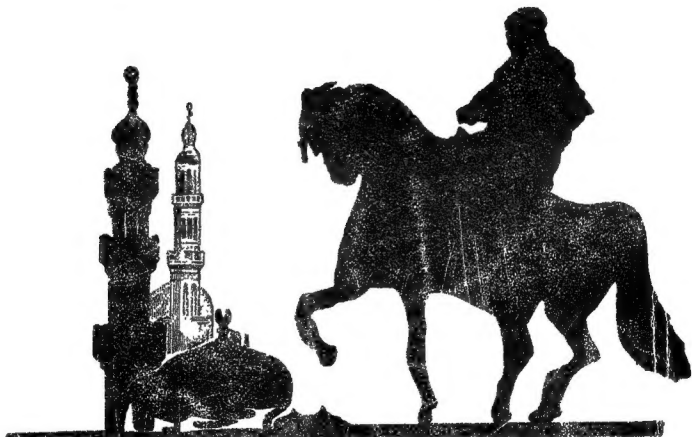


دكتور

عصام الدين عبدالرؤف الفتى

أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

تاريخ المغرب والأندلس



الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

نَارِيجُ الْمَغْرِبِ الْإِنْدِلِسِيِّ

دكتور
عصام الدين عبد الرؤوف البقي
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أفضل المرسلين
وبعد :

يتضمن هذا الكتاب مجموعة محاضرات ألقيتها على طلابي في عدة
جامعات في مصر وخارج مصر عن تاريخ المغرب والأندلس .

ودراسة تاريخ المغرب والأندلس له أهمية خاصة بالنسبة لنا
كعرب ، ذلك أن أسبانيا حكمها العرب عدة قرون ، وازدهرت فيها
الحضارة الإسلامية ، وشهدت نهضة ثقافية إسلامية كان لها أثرها في
أوروبا ، وأقيمت فيها المساجد الضخمة ، التي كانت منارة للإسلام والعلم
والحضارة في القارة الأوروبية عدة قرون .

ولكن العرب — كما هو حالهم اليوم — أضاعوا هذه البلاد ،
وفقدوها كما فقدوا غيرها فيما بعد ، بسبب ما يسود بينهم من انقسام
وخلافات ومنازعات ، متناسين الصالح العام ، ومتطلعين فقط إلى تحقيق
مآرب شخصية زائلة .

لذلك فدراسة تاريخ الأندلس ، يوضح لنا ، كيف وصل العرب إلى
قمة المجد ، بفتحهم لاسبانيا أو لقطعة من أوروبا ، وكيف اقتربت جيوشهم
الظافرة المنصورة من باريس واستوطنوا هذه البلاد ، ونشروا الإسلام
واللغة العربية والثقافة الإسلامية ويسعد الإنسان حينما يدرس هذا
الازدهار ، وهذا التقدم الحضارى . ولكن الدارس يعبر مع دراسته
القرن ، شأنه شأن دارس التاريخ ، فيصاب بالحزن والأسف ، حينما

يرى أن مجد العرب والاسلام في هذا البلد الى زوال ، حتى ينتهى حكم العرب في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

وقسمت بحثى الى عدة موضوعات ، بدأت بدراسة الفتح العربى للمغرب ثم أسبانيا قبل الفتح العربى ، وانتقلت الى بحث الفتح العربى لاسبانيا ، والنتائج التى ترتبت على هذا الفتح ، ثم درست عصر الولاة فى الأندلس ، وفيه حاول المسلمون فتح فرنسا ولكنهم هزموا فى بلاط الشهداء . وفى عصر الولاة اشتد الصراع بين القيسية واليعانية .

وظلت بلاد الأندلس فى اضطراب حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك ، وأقام فى أسبانيا اماره مستقله تملأ عن الدولة الاسلاميه ، وخلفه أبناؤه فى حكم الأندلس حتى ولى عبد الرحمن الناصر ، فصول الامارة الى خلافة ، وظلت الدولة الأموية تحكم فى الأندلس حتى سقوطها سنة ٤٢٢ هـ .

اضطربت الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية ، وتنافس أمراء الأقاليم فى حكم الأندلس . هذا انتهزت الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا الفرصة ، وأنقضوا على مدن الأندلس ، منتهزين فرصة النزاع بين ملوك الطوائف ، وحاول المرابطون ثم الموحدون من بعدهم أن ينقذوا المسلمون فى الأندلس ، ولكن محاولاتهم كانت مسكيات وقتية . وظل أمر الأندلس الى ضعف والنصارى فى قوة حتى لم يعد للعرب سوى غرناطة ، آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م . ويسقطها زال الحكم العربى عن الأندلس .

هذا وبالله التوفيق

المؤلف

دكتور عصام الدين عبد الرؤوف الفتى

مصر الجديدة

١٩٨٤/٨/٤



الفصل الأول

التعريف ببلاد المغرب والأندلس

١ - أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

٢ - التعريف ببلاد المغرب

٣ - التعريف ببلاد الأندلس

٤ - الفتح العربي للمغرب

٥ - الفتح العربي للأندلس

أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

لتاريخ المغرب والأندلس أهمية كبيرة في دراسة التاريخ الإسلامي العام والخاص . فبخصوص المغرب والأندلس دراستهما متصلة ووثيقة الصلة ، لأن ما كان يجري في المغرب له صداه في الأندلس وما يحدث في الأندلس له رد فعل في المغرب .

وانضمام المغرب والأندلس الى الدولة الإسلامية الكبرى ، أعطاها طابعاً مميزاً وقسم الدولة الإسلامية الى قسمين كبيرين ، قسم شرقى له نظمه وحضارته وتقاليدده ، وقسم غربى له مقوماته وثقافته ، ولعب القسم الغربى دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام ، فقامت الدولة الفاطمية في المغرب ، وانتقلت الى المشرق فسيطرت على مصر والشام والحجاز واليمن .

ومن ناحية التاريخ العام يقضح لنا أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس ، ذلك أن الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في المشرق ، انتقلت الى المغرب والأندلس ، وانتشرت العلوم والفنون العربية المتقدمة في الأندلس وصقلية وانتقلت الى أوروبا . وبذلك لعبت المغرب والأندلس دوراً كبيراً في ازدهار الحضارة الانسانية .

نظرة عامة حول بلاد المغرب

عرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الأفرقيق يسمون القسم الشمالى منها الذى كان يسكنه العنصر الأبيض باسم لبيو أو ليبيا ، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الاحباش السود . أما لفظ افريقية ، فقد أطلقه الرومان على الإقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالى الشرقى من الجمهورية التونسية ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا غربا ، وكان يعرف باسم ولاية افريقية القنصلية ، وأطلقه العرب على كل ما يلى : طرابلس غرباً . ثم تحدد مدلول

أفريقية ، فأصبح في معظم المصادر العربية ، يعنى الإقليم الذى تتوسطه القيروان ، ويمتد من طرابلس حتى بجاية .

أما المغرب فيشمل كل ما يلى مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي وتتوسطه أفريقية . وقد أستخدم على تقسيم المغرب الى ثلاثة أقسام كبيرة ، بحسب قربها أو بعدها عن مركز الخلافة في المشرق وهى :

١ — المغرب الأدنى ويسمى أيضاً أفريقية ويشمل تونس وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر وعاصمته القيروان أيام الأغلبه ، والمهدية أيام الفاطميين ، ثم مدينة تونس فيما بعد وحتى اليوم .

٢ — المغرب الأوسط ويشمل بلاد الجزائر ، ويمتد من تاهرت حتى وادى ملوية وجبال تازة غرباً ، وقاعدته تلمسان .

٣ — المغرب الأقصى : وعاصمة المغرب الأقصى ترددت بين مدينة فاس ومراكش ، فلأدراسة العلويون أسسوا مدينة فاس سنة ١٩١ م ، واتخذوها عاصمة لهم ثم جاء المرابطون وبنوا مدينة مراكش سنة ٦٣٣ م ولتخذوها عاصمة ، والمغرب الأقصى يشمل المملكة المغربية اليوم التى عاصمتها الرباط .

ولفظ لأفريقية مشتق من كلمة أفرى التى أطلقها الفينيقيون على سكان أوثيكا وقرطاجنة ، ثم عممه اليونانيون بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية الى المحيط للأطلسي .

أما لفظ المغرب فالمراد به ، هو كل ما يقابل المشرق من البلاد وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلوله فجعله البعض يشمل بلاد شمال أفريقيا بالإضافة الى الأندلس وجميع الممتلكات الإسلامية في حوض البحر المتوسط مثل صقلية وجنوب إيطاليا وجزيرتي سردينية وكورسيكا وجزر البليار أو الجزر الشرقية ، وقد اعتبر بعض المؤرخين مصر من بلاد المغرب ، باعتبارها القاعدة السياسية والعسكرية والثقافية لهذه المنطقة المغربية في الفترة الإسلامية الأولى . لأن الخليفة

هشام بن عبد الملك مثلاً ، فقد عبد الله بن الحطاب ولاية مصر والمغرب والأندلس .

وفي العصر العباسي زاد مدلول كلمة المغرب ، فانضمت التسلم الى هذا القسم ذلك ان العباسيين قسموا مملكتهم قسمين ، وهما المغرب ويشمل الشام ومصر وأفريقية وما يليها غرباً ، والمشرق ويشمل بلاد فارس وما يليها شرقاً . ولكن على الرغم من كل هذه التقسيمات السانفة فان جمهرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة مغرب بالأراضي الإسلامية الممتدة غربى مصر الى المحيط الأطلسي . فهناك المغرب الأفريقي والمغرب الأندلسي . وعلى هذا الأساس كانت مدينة الإسكندرية هى الحد الفاصل بين المغرب والمشرق ، ولهذا عرفت بأسم باب المغرب ، لأنها كانت معبراً لجميع المغاربة القادمين من المغرب أو العائدين إليها سواء بالبر أو البحر بقصد التجارة أو طلب العلم أو تأدية فريضة الحج .

تبدأ أفريقية المغربية من حدود برقة الغربية شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً ويحدها من الشمال البحر المتوسط ثم منطقة ساحلية ضيقة تشمل أقليم التل ، ويحدها من الجنوب صحراء مترامية الأطراف هى الصحراء الكبرى ويفصلها عن مصر برقة ، التى كانت امتداداً للصحراء الغربية وتفتقر هذه المنطقة لسلاسل الجبال العالية تمتد من مراكش الى تونس ، مخترقة المنطقة كلها من الغرب الى الشرق فاصلة السهل الساحلى الضيق عن بقية البلاد حيث تكثر الاغوار ، بينما تحصر السلاسل بينها سهولا طويلة ضيقة . لذا فطبيعة البلاد الجغرافية وعرة والدفاع عنها ميسور ، بينما يتطلب الهجوم مشقات كبيرة .

أما سكان المغرب فيمكن تقسيمهم الى ما يأتى :

١ — الروم وهم البيزنطيون .

٢ — الأمازيغة ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاق من المستعمرين اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية وكانوا يعينون بالطاعة والولاء لصادقهم البيزنطيين .

٣ - البربر وهم سواد سكان المغرب *

أطلق الرومان اسم البربر على سكان بلاد المغرب لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم ، وينقسم البربر الى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضري ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أو الهضاب المزروعة ، ويشغلون الزراعة والصناعة ، والحضارة البيزنطية تأثير عليهم والبربر الرحل ويعيشون على الرعي ، ويميلون للاغارة وعلى ما يجاورهم من عمران ، وينقسم البربر عموماً الى قسمين كبيرين ، برانس ووتر ، وينسب البرانس الى برانس بن بر كما يزعمون ، لذلك سموا برانسا ، ويسكنون المدن ، ويتأثرون بالحضارة البيزنطية . وأما البتر ، فهم بدو ، يسكنون البادية *

وينقسم بربر البرانس الى سبع قبائل كبرى هي :

أوربة وأصنهاج وكتامة ومصموده وأوريفه وأزدواجه وتعتبر قبائل أصنهاج أكبر قبائل البربر ، وقد غلب على أصنهاج البدى ، وتفرقوا في بلاد المغرب *

ومن القبائل البرانسية الكبرى ، كتامة التى لعبت دوراً هاماً في تاريخ المغرب فعلى أكتافها قامت الدولة الفاطمية وتنتشر قبائل البرانس في كل بلاد المغرب . ولكن بعض قبائلهم ، توغل في قلب قارة أفريقيا حتى تصل الى منحنى نهر النيجر ، ومصب السنغال ، معظمها ينزل في مواضع زراعية متحضرة *

أما بربر البتر ، فينقسمون الى أربع قبائل هما : -

خريسة ونفوسه ، وأداسه ولواته ، وتنزل هذه القبائل في السهول المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التى تمتد من طرابلس الى تازة ، وينتشرون في إقليم النخيل الذى يمتد من غدامس الى السوس الأقصى ، ويؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية ، وللبتريطون في داخل أفريقية وفي إقليم التل قرب طرابلس وعلى سفوح جبال أوراس *

والعداء بين البتر والبرانس قديم ، ويتمثل بصفة خاصة بين زناته أكبر قبائل البتر وصنهاجه أكبر قبائل البرانس ، ويرجع سببه الرئيسي الى العداء بين البجو والحضر ، فالبتر يشنون الغارات بين البلادية على المدن الصامرة للبرانس ، والبرانس يتاثرون بالحضارة البيزنطية ، أما البتر فيتميزون بالبداوة . لذلك تقارب البتر من العرب بسرعة على حين حمل البرانس عبء المقاومة مع العرب . ولما آلت البلاد الى العرب أنضم البرانس الى الحركات المعارضة للدولة الاسلامية .

الفتح العربي للمغرب

كان من الطبيعي أن يتطلع عمرو بن العاص الى فتح أفريقية ، بعد أن أتم فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، وهو نفس السبب الذي ألح فيه عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب بفتح مصر بعد فتح الشام .

ذلك أن الشام ومصر وبلاد المغرب كانت تتبع الدولة البيزنطية ، فلما تم فتح بلاد الشام كان ضروريا فتح مصر لتأمين حدود الشام ، من الخطر البيزنطي في مصر . ولما تم فتح مصر كان لابد من تأمين حدود مصر غربا ، أي فتح أفريقية لحمالية مصر من خطر بيزنطي في غربها .

بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، قاد حملة لغزو برقة سنة ٢٢ هـ وفتحها وصالح أهلها على الجزية ، وواصل زحفه حتى فتح طرابلس بعد حصار دام شهرا لكنه انسحب بقواته منها عائدا الى مصر .

ولما ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح ولاية مصر خلفا لعمرو بن العاص ، سار على سياسة سلفه في غزو أفريقية فسار الى برقة ، وكان يليها عقبة بن نافع الفهري من قبل وإلى مصر ، وضم الى جيشه حامية برقة ، وسار الى طرابلس ولكن الروم تصدوا للحامية العربية بقيادة جريجوريوس - حاكم أفريقية الروماني - أو جرجير - كما يسميه العرب .

رفع العرب حصارهم عن طرابلس ليتفرغوا لمقاومة الحاكم الروماني ، ونشبت بين الفريقين معارك ضارية في ظاهر ٥٥٥٥ سيطله بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة - وهي عاصمة أفريقية حينئذ . وهزم في هذه المعركة القائد الروماني وقتل سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م ، واستولى عبد الله بن سعد على سيطله ودمرها تدميرا ، وبث جيوشه في تلك الانحاء وصالح أهل هذه البلاد على الجزية . ولكنه لم يتخذ قاعدة اسلامية في هذه البلاد ولم يعهد لاحد القادة المسلمين بحكم هذا

الأقليم ، إنما انصحب علداً إلى مصر بعد خمسة عشر شهراً ، تاركاً حامية في برقة وأخرى في زويلة •

ولكن الدولة الإسلامية توقفت عدة سنوات عن الفتح ، بسبب الفتنة الكبرى في عهد بن أبي طالب ، وثورة معاوية والخوارج عليه ، والتي انتهت بمقتله في رمضان سنة ٤٠ هـ •

حملة عقبة بن نافع الأولى على بلاد المغرب

يجمع المؤرخون على أن معاوية بن أبي سفيان ولي عقبة بن نافع الفهري أفريقية سنة ٥٠ هـ ، وأمره بفتح هذه البلاد ويبدأ الفتح الحقيقي للمغرب بحملة عقبة هذه والجدير بالذكر أن أنقواد الذين تولوا فتح المغرب ، بعضهم امتاز باللين والحكمة السياسية ، والبعض الآخر امتاز بقوة الشكيمة ، والمقاومة العسكرية دون السياسية ، وكان للجانب السياسي أهميته ، في تثبيت أقدام المسلمين في المغرب ، وانحماج البربر في الحياة الإسلامية •

وعقبة بن نافع الفهري من الشخصيات الكبيرة في التاريخ الإسلامي فهو أحد رجال عمرو بن العاص الذين حاربوا معه في فتوحه الأولى في أفريقية ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، ومن أوائل المجاهدين في المغرب ، دخل برقة سنة ٣٣ هـ ، دون العشرين ومشارك في الغزوات التي شنّها العرب في أفريقية بمقدرة عسكرية فائقة ، وشجاعة منقطعة النظير •

وقاد الحملة التي أخضعت قبيلة لواته في طرابلس ، وانضم إلى جيش عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وتولى عملية برقة منذ فتحها ، وظل مجاهداً مرابطاً في سبيل الله ما يقرب من ربع قرن •

اتخذ عقبة بن نافع الفهري طريقه في داخل البلاد مباعداً الساحل ، ولقد لزم هذه الخطة في كل أعماله ، لأن السواحل مليئة بالحصون

والمحارس ، أما انداغل فليس فيه تحصينات قوية ، ومقاومة البربر في الداخل ، أقل من مقاومة البيزنطيين على الساحل . وجاز وهاد برقة على رأس عشرة آلاف مقاتل وسار في إقليم الولحات متقلداً دون أن يلقي مقاومة تذكر ، إذا لم يتوقعوا قدوم العرب في هذا الوقت ، فدهمهم عقبة ، وأصاب منهم كثيراً ، وتوغل غرباً حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع للتخور والعوامم الأفريقية تباعاً وهزم جيوش البربر والروم التي اعترضته حتى استحق لقب « قاهر الروم والبربر » وتوغل في مفاوز المغرب الأقصى .

رأى عقبة ضرورة إقامة مدينة إسلامية جديدة في أفريقية لتكون عسكرياً للمسلمين وعزاً للإسلام حتى آخر الدهر ، فشرع في أخطاط هذه المدينة ، لتكون قاعدة لنشر الإسلام في هذه البلاد ، يلجأ إليها البربر لاعتناق الإسلام ، ودراسة تعاليمه على أيدي الفقهاء والوعاظ وانعلماء في مسجد القيروان الجامع وموضع القيروان يناسب المراج العريى ، فهي بعيدة عن البحر وعن الخطر للبيزنطى الكائن في الساحل ، ومن حيث قربها من الصحراء لتصعب محاصرتها . وموضع القيروان متوسط بين السلاح والهضبة القريب من السفوح الصالحة للرعى . ولهذا الموقع أهمية عسكرية ، فيمكن منه مراقبة تحركات العدو من بعيد ، ومباغتته إذا تطلب الأمر ، واتخذ منها — بالإضافة الى نشر الإسلام — قاعدة عسكرية يجمع فيها حذته وعظده ، ويرسل منها التجريدات العسكرية لشسن الحملات الصحريية ، والعودة الى القيروان بالغنائم ، واعداد الحملات من جديد وهكذا ظل عقبة بن نافع واليا على أفريقية خمس سنوات (٥٠ — ٥٥ هـ) (٦٧٠ — ٦٧٥ م) حيث عزله والى مصر مسلمة ابن مخلد ، الذى جمع له معاوية بين حكم مصر وأفريقية ، وعهد الى أبى المهاجر دينار بحكم أفريقية ، ويختلف هذا الأنصارى عن عقبة ، اذ يعتمد على السياسة في تعامله مع البربر أكثر من القوة العسكرية ، وأثبتت هذه السياسة نجاحها ، وأثمرت ، فهادن البربر واستعاملهم ، ليضرب بهم العدو المشترك وهو الروم ، وبذلك استطاع أن يواجه قوة البربر وشدة

بأسهم في ضرب العدو القوي المتمثل في البيزنطيين ، وتجنب مواجهة
عدوين في وقت واحد • ولجأ إلى الحيلة والدهاء في جذب البربر إليه
فالتقنهم بأنهم — أي البربر — أقرب إلى العرب من الروم ، والعرب
دخلوا المغرب ليحاربوا الروم ، وليس البربر ، وأنضم إليه كسيله — زعيم
البربر البرانس — هو وقومه ، واعتنقوا الاسلام ، واعتنقته قبيلة أوربه •
وهذا مكسب كبير للاسلام وللعرب ، وزحف أبو المهاجر دينار وكسيله إلى
تلمسان ، وفتحها • وبذلك اجتاحت المغرب الأوسط (الجزائر) واحتل مدنه
الساحلية حتى بلغ تلمسان •

ولم يلق المؤرخون الأضواء على ولاية أبي المهاجر دينار التي
استمرت سبع سنين (٥٥ — ٦٢ هـ) ربما لأنها تقع بين ولايتي عقبة الأولى
والثانية ، ودور أبي المهاجر دينار في المغرب لا يقل عن دور عقبة •

ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة رأى ضرورة اتمام فتح المغرب
فنزّل أبا المهاجر دينار ، وأعاد عقبة بن نافع إلى حكم أفريقية لما عرف عنه
من الشجاعة وقوة البأس وحسن البلاء •

اتخذ عقبة سياسة مخالفة تماماً عن سياسة سلفه ، فنظر إلى كسيله
وقومه نظرة شك وريبة ، بل قبض على كسيله وعلى سلفه أبي المهاجر
دينار • وبذلك انشق عليه البربر البرانس وقبيلة أوربه بالذات ،
ومما لا شك فيه أن عقبة أخطأ في سياسته هذه ، فقد جلب على نفسه عداوة
البربر البرانس بعد أن كانوا في عهد سلفه أنصاراً للعرب والمسلمين
وسفروا الآثار السيئة التي ستترتب على هذه السياسة •

ومهما يكن من أمر فقد قاد عقبة جيشه في حملة مشهورة في تاريخ
المغرب ، وجاس خلاله من أدناه إلى أقصاه حتى بلغ المحيط الاطلسي ،
وخاض في حملته هذه معارك ضارية وحرباً مريرة مع قبائل البربر ، فقد
فيها طائفة من غيرة رجاله •

ولما بلغ عقبة ساحل المحيط ، وامتد إلى ساحل المحيط دفع فرسه

الى الماء حتى بلغ نحره ، هنا أخفته نشوة النصر كل مأخذ ، وتطلع الى تحقيق آمال عريضة للإسلام وأهله وقال : « اللهم انى أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت اللهم أشهد أنى قد بلغت المجهود ولو لا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد سواك » .

عاد عقبة بجيشه الى القيروان ، ويبدو أن عودته المفاجئة سببها ما نرى الى علمه من حدوث قلاقل واضطرابات فى أفريقية ، وفى أثناء عودته ، مر بالجزائر ، واتخذ بها قاعدة اسلامية على غرار القيروان ، وهذه القاعدة هى تاهوده بالقرب من مدينة يسكره بالقرب من قسطنطينية ، وفرق عقبه قواته فى أنحاء المغرب ، وبينما ينسحب من الجزائر فى قلة من الجند ، فر من أسره كسيلة ، وقوى أمره وعظم بأسه بمن انضم اليه من البربر والروم ، وباعت عقبة — الذى كان فى قلة من الجند — ودارت رحى معركة حامية الوطيس بين كسيلة وعقبة ، وحارب أبو المهاجر دينار الى جوار عقبة ، واستشهد فى هذه المعركة — التى دارت قرب تاهوده ، عقبة وأبو المهاجر سنة ٦٤ هـ / ٦٨٢ م .

ولا يزال موضع تاهوده يعرف بسيدي عقبة ، وهو عبارة عن واحة جميلة من النخيل ، وبها مقام هذا الفاتح العربى الكبير ، وزحف كسيلة الى القيروان ، واستولى عليها ، كما استولى على البلاد والمواقع التى آلت الى العرب ، وزال الحكم العربى من المغرب وذالت دولتهم ولكن الى حين .

لما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، رأى ضرورة استعادة بلاد المغرب والقضاء على مقاومة البربر فى هذه البلاد ، فعهد الى زهير بن قيس البلوى بحكم أفريقية وأمدّه بجيش ضخم كيما ينفذ الاستراتيجية الاسلامية فى هذه البلاد سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) والتقى زهير بن قيس بجيش كسيلة فى معركة انتصر فيها العرب على أعدائهم ، وقتل كسيلة وجمع من البربر ، ومزق البربر فى هذه المعركة كل ممزق ، وأرسل فرقاً من جنده فى أنحاء أفريقية لاختصاع البربر ، وأنهاء الفتنة ، واسترد القيروان ، وترك فيها حامية للدفاع عنها .

ولم يكد العرب ينتهون من اخضاع ثورات البربر حتى داهمهم خطر جديد أشد هولاً وأقوى بأساً ، ذلك هو الخطر البيزنطى .

فالبيزنطيون لا يستطيعون الوقوف مكتوفى الايدى لزاء احتلال العرب لبلاد المغرب التى يخضع جزءاً كبيراً منها لسيادتهم . ذلك أن البيزنطيين انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية بالأسطول من صقلية ، ونزلوا فى قرطاجنة ، ثم زحفوا على برقة فى حشد كبير ، وهزم الروم العرب شر هزيمة ، وقتل زهير وكثير من جنده ولم ينج من المعركة الا من لاذ بالفرار . ومرة أخرى يفقد المسلمون بلاد المغرب ، ويتوقف الفتح العربى لهذه البلاد بضع سنين . ونستدل من ذلك أن مقاومة البربر البرانس للمغرب من ناحية والروم من ناحية أخرى قد صرفت المسلمين عن فتح هذه البلاد بعض الوقت ، يضاف الى ذلك أن الدولة الاسلامية فى أوائل عهد عبد الملك بن مروان شغلت بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وثورات الخوارج .

لم يكد عبد الملك بن مروان ينتهى من اخضاع الثورات فى دولته ، ويميد اليها الأمن والطمانينة ، والاستقرار والهدوء حتى تطلع الى استعادة فتح المغرب ، فولى عليها حسان بن النعمان النصابى وسيره الى أفريقية على رأس جيش كبير ، تذكر الرواية العربية أنه أقوى جيش سار الى أفريقية منذ بداية الفتح ، واخترق حسان بجيشه برقه ، واتبع سياسة أبى المهاجر دينار فى استمالة البربر ، وضمهم الى جانبه ، وضرب العدو المشترك بهم بدلاً من مواجهة عدوين فى وقت واحد . ويعتبر حسان الفاتح الحقيقى لبلاد المغرب ، تولى حكم هذه البلاد بين عامى ٧٨ — ٨٦ هـ .

انضم البربر البرانس الى العرب فى محاربة الروم ، وزحف الفريقان الى قرطاجنة فخر بها حسان ، وهزم الروم ، ولم تعد بذلك قاعدة للبيزنطيين يشنون منها الهجمات على العرب ، ولم يستطع المسلمون غزوها من قبل لمناعتها وحصانتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية ، حيث كانت ترسل اليها الامدادات بسرعة .

لم يقف امبراطور الروم مكتوف الأيدي ازاء تدمير قرطاجنة لأن انهيالها هو في الحقيقة انهيار للحكم البيزنطي ، فهي - كما قلت - قاعدة للعمليات الحربية البيزنطية والنفوذ البيزنطي في بلاد المغرب ، فمسير الامبراطور اليها جيتا بقيادة يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة أرسلها ملك القوط ، اذى أزعه اقتراب العرب من بلاده ولم يستطع العرب للتصدي لهذه القوة المتحالفة ، فانسحبوا الى القيروان ، واستقروا فيها حتى أرسلت دمشق انيهم الامدادات ، فعاودوا الهجوم على قرطاجنة وهزموا الروم والبربر في عدة مواقع ، واستولى حسان بعد قرطاجنة على المدن الساحلية ، وطرد الروم فيها ودمر تحصينات الروم القوية ، وخرب قرطاجنة ، وفر الروم والقوط وبذلك أخرج من الميدان عنصرا هاما من عناصر المقاومة في المغرب ، وهو للعنصر البيزنطي . وبهزيمة الروم تمكن حسان من سحق كل مقاومة بربرية ، واستعاد الاسلام سلطانه فيها بين برقة والمحيط .

عاد حسان بعد هذه الانتصارات الرائعة الى القيروان ليريح أصحابه مما أصابهم في حملة قرطاجنة ، وعرف بظهور خطر جديد وهو خطر امرأة من البربر تعرف بالكاهنة ويختلف المؤرخون في شأن الكاهنة اختلافا كبيرا ، بل يميل بعضهم الى انكارها أصلا معتمدا على ما يشوب اخبارها من أساطير ولكن تجمع الآراء على وجود الكاهنة وعلى ذكر الدور العظيم الذى قامت به أثناء فتوح افريقية ، ولكن شخصيتها وحقيقة أمرها لازالت غامضة في حلجة الى كثير من التوضيح .

يبدو أن الكاهنة كانت زوجة لرجل من رؤساء القبائل ، وتوفى تاركا لها ولدين صغيرين استبدت بهما ، وحكمت القبيلة باسمهما ، وملكنت البربر خمسا وثلاثين سنة وهذه القبيلة هي قبيلة جراويى احدى قبائل البتر المقيمين في الاوراش ، وكانت هذه القبيلة على صلة بالروم ، ويبدو أن الكاهنة كانت مسموعة الكلمة لدى قومها ، مهية الجسائب بين ذويها ، فاستطاعت أن تحتفظ بالامر لابنيها القاصرين .

ثورة كسيلة على العرب هي مقاومة البرانس المستقرين يعزهم

الروم وينصرونهم لأنهم نصارى أو آخزون بأسباب الحضارة البيزنطية ، ودفعاهم كان عن النواحي العاصرة الفسيحة التي كان هؤلاء انبرانس يعمرونها ويقفلون ويرسلون سواثبهم في مراعيها وسفوحها .

أما ثورة الكاهنة فتورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضارة القديمة ، وطال عهدها بالاستقلال لضعف الأحكام البيزنطيين ، وعجزهم عن إخضاع البتر في الصحراء والهضاب وإثراجح أن هذه المرأة لم ترفع راية العصيان الا حين تسامعت بمسير حسان اليها ، وأنها كانت مطمئنة في نواحيها ترقب مصير كميله ثم مصير الروم على يد حسان فلما رأت حسان ينوى السير نحوها ، أخذت تستعد لقتاله وردة عن بلادها .

ويغلب على الظن أن للكاهنة كانت تتوقع مسير العرب اليها لأنها لم تكذب تتسامع بمسير حسان اليها حتى رحلت من الجبل في عدد لا يحصى ولا يدرك ، وحطت رحالها عند باغية ، وهي مدينة حصينة على سفح الاوراش تقوم بين الجبال مقام الباب من الدار وقد أرادت الكاهنة من ذلك ان تكون على مقربة من مواطن جراوة الاصلين على الأوراش ، لكي نستمد منها العون ، أو تطلب النجاة عند الضرورة ، وأمرت بهدم باغية حتى لا تسقط في يد العرب ، وهذا يدل على أنها كانت تحارب العرب منفردة دون عون من الروم . لذلك لمحرك الكاهنة حركة بربرية صرفه لا تعرف حرب الحصون ولا المناجزة خلف الاسوار وانما أسلوبها هو اللقاء في الارض الغضاء بالحرب والسيوف .

والتقى حسان بالكاهنة على نهر نينى ، وكان لا يفكر أيضا في الاحتماء بالحصون .

كانت معركة نينى شديدة حامية اضطر حسان وجنده الى خوض غمارها ، وكانوا مجيدين من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها ، ولهذا ضُغت عزائمهم ، ووهنت قواهم عن خوض هذه المعركة ، واذا اضفنا الى ذلك أن العرب كانوا يقاتلون قوماً مشهم واستثارت الكاهنة حماسهم بما لها من مكانة في نفوسهم وهيبة في قلوبهم وبذلك ثبت البربر للعرب ، وهاجسوا

العرب هجموا لم يكونوا يتوقعونه ، فدارت الدائرة على العرب ، واضطروا الى التقهقر بعد قتل شديد ، وقتل من العرب كثيرون . ولم تكف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الاوراش ، وانما تتبعت حسان حتى اخرجته من حدود افريقية ، واطمأنت على سلاطنتها منه ، ثم عادت ادراجها . ولم تدخل الكاهنة القيروان ، وانما عم أهلها الفرع والمهلع ، واستعدوا للرحيل من تهديد مرتقب وعادت الكاهنة الى الاوراش ، وهذا يدل على أن حركة الكاهنة كانت ثورة مطية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتفاض عام ، وأقام حسان في طرابلس ينتظر المدد ، وينظم أموره هناك ، فشيء لنفسه منازل على مقربة من برقة سميت قصور حسان .

ولكن حركة الكاهنة لم تؤد الى هدوء البلاد ، وانما عمها الاضطراب ذلك ان الكاهنة ملكت افريقية ، وأساعت السيرة في أهلها ، فعارضها بعض البربر ، بل راسلوا العرب ولاحظت الكاهنة ان العرب ما يكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همتهم الى المدائن والنواحي الحاضرة بينخلون وسمهم في الاستيلاء عليها ، فإذا تم لهم ذلك ، انقضوا على النخيرات — والنفائس والاموال فانتهبوها ، ولم يخلفوا وراءهم منها شيئاً ، ثم ينصرفون بعد ذلك عن افريقية ، كأنما كانوا يأتون لهذا وحده ، فاعتقدت أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد الا امرا واحدا ، الأموال والنسائم والأسلاب والسبى ، فلا بد من قطع رجاء العرب في البلاد والقضاء على معالم العمران فيها فتجعلها قاعاً صفصفاً ، كأن لم تكن بالامس . وقد اخطأت الكاهنة في سياستها هذه ، وغاب عنها ان العرب أمة زاحفة الى الامام ، وان حركة الفتوح الاسلامية تسير قدما دون توقف ، وأن العرب يهدفون الى فتح بلاد المغرب ونشر الاسلام في هذه البلاد ، مهما كانت التضحيات ، ووجهت الكاهنة أهلها يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، وخرج يومئذ من النصرارى والبربر خلق كثير مستغيثين بما نزل بهم من الكاهنة ففترقوا في البلاد المجاورة .

أضر هذا العمل بقضية الكاهنة ضرراً كبيراً ، فقد عارضها فريق كبير من أهل البلاد حينما رأوا الخراب والدمار قد عم حقولهم ومنازلهم ،

وتمكنت سبل معيشتهم ، وبلغ من امتيائه الناس من الكاهنة ، أن استجد بعضهم بحسان ، وعارضوا الكاهنة ، وقاموها فاضطرب الامر من يدها وعم للاضطراب البلاد ، ونظر البربر الى العرب كمقنضين ومنتقذين من سياسة الكاهنة الغاشمة ، الامر الذى سيكون له أبعد الأثر فى اتمام فتح البلاد .

انتهز حسان فرصة معارضة البربر لكاهنة ، واستجداد بعضهم به ، وقاد جيشا ضخما سنة ٨٠ هـ ضم فريقا من البربر لمحاربة الكاهنة ، والتقى حسان بجيوش الكاهنة عند مدينة قابس ، وهزمها شر هزيمة ، ونكل بقلوبها ، وقتلها سنة ٨٢ هـ فى موضع يعرف ببيتر الكاهنة فى جبل أوراس .

وجد الروم فى خروج حسان من أفريقية فرصة سانحة لاستعادتها ، وبسطت سلطانهم عليها من جديد ، وكان الامبراطور انييزنطى الجديد ليونتيوس ، قد اقلقه سقوط قرطاجنة فى يد العرب وتدميرها ، واسترد البيزنطيون مدينة قرطاجنة وقتلوا الحامية العربية التى فيها ، فآغار عليها حسان واستعادها وخربها حتى لا يعود الروم اليها .

اتخذ حسان سياسة رشيدة فى جذب البربر الى جانب العرب فولى على النواحي عمالا وولاة من البربر بل عهد بحكم الاقاليم لابناء الكاهنة ، ولكى يضمن حماية سواحل المغرب من الخطر البيزنطى شيد ميناء تونس ، لتحل محل قرطاجنة وليبنى فيها أسطولا يغير على ساحل الروم ، فيشغلهم بأنفسهم عن الاغارة على أفريقية ، ولا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، وبهذا يستطيع العرب سكناها ، لانها ليست على البحر مباشرة ثم ان موقعها يجعلها بئامن من غارات الروم المفاجئة ، وأعجب هذا الميناء اليونانى القديم حسان ، وأعاد تخطيطه ، وزودها بحار صناعة لبناء الأساطيل ، واستعان فى ذلك بألف أسرة من أقباط مصر الذين كانوا على علم وخبرة بالشئون الملاحية وبناء السفن . وهكذا أصبحت أفريقية بعد أن فتحها العرب مثل الشام ومصر ، مركزا تجاريا تفرج منه أساطيل المغرب تحصل راية الاسلام فى غرب البحر المتوسط .

بعد أن أتم حسان فتح أفريقية ، نظم للشيشون العسكرية والادارية والمالية في البلاد ، وأثنى الحواوين ، ورتب الخراج والجزية ووطد سلطان الحكم الجديد في القصور والناحي ، ثم جدد مدينة القيرون ، وأثنى بها المسجد الجامع ، ولبت في منصبه حتى توفي عبد الملك بن مروان ، ولما ولي الوليد بن عبد الملك ، أبقى حسان في منصبه ولما كانت أفريقية تابعة لمصر ، فقد عزل عبد الله بن مروان — والى مصر — انذى خلف عبد العزيز بن مروان ، عزل حسان بن النعمان سنة ٨٦ هـ ، وعهد الى موسى بن نصير بحكم بلاد المغرب •

يعتبر حسان بن النعمان — كما قلت — الفاتح الحقيقي لبلاد المغرب ، فلما ولي موسى بن نصير هذه البلاد ، وجد نظاماً ثابتاً وقائماً واقتضى أثر حسان في معاملة البربر وسأوى بينهم وبين العرب في المعاملة ، وجذبهم اليه ، ولحسن اليهم واتخذ منهم جنداً لجيشه ، وكان البربر هو العنصر الرئيسى في جيش طسارق بن زياد في فتح الأندلس كما سنرى •

يجب أن نشير إشارة سريعة الى نشأة موسى بن نصير ، فالرواية العربية تشير الى أنه من التابعين ، وولد سنة ١٩ هـ في خلافة عمر بن الخطاب في قرية من قرى الجزيرة أو بوادى القرى من شمال الحجاز ، وينسب الى بكر بن وائل ، وأن أباه نصيراً كان ممن سبأهم خالد بن الوليد في معركة عين التمر سنة ١٢ هـ ، وقيل أنه ينسب بطريق الولاء الى بنى لخم ، وتشير الرواية العربية ان نصيراً كان على حرس معاوية بن أبى سفيان ، ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان وأعتقه •

تدرج موسى في بعض الوظائف قبل ولايته على أفريقية سواء العربية أو الادارية وقد بعث بعض الحملات البحرية في عهد معاوية ، وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة ، ودخل في خدمة عبد العزيز بن مروان — أمير مصر — وتولى مكانة رفيعة في بلاطه حتى ولي أفريقية في سنة ٨٦ أو ٨٩ هـ • ولها يكن من أمر فقد اضطرت بلاد المغرب بعد عزل حسان

وتولية موسى ، فاضطرب البربر من جديد ، وعادوا الى الثورة فسمح موسى الثورة في كل ناحية ، وأخضع هواره وزناته وصنهاجه وكتامه وغيرها من القبائل البربرية للقوية ، ثم سار الى طنجة وفتحها ، وكان العرب لم يصلوا اليها بعد ، وولى عليها قتلدا عظيما هو طارق بن زياد الليثي ، وطهر مفاوز المغرب الأقصى من العصاة والمتمردين ، وأحرز في هذه الغزوات من الغنائم والمسيبي ما لا يحصى ، ولما هدأت البلاد ، وانتهت الثورات استمال اليه البربر وحشد في جيشه آلافا من البربر ، ونشر الاسلام بينهم وأقبلوا على الدين الجديد بحماس منقطع النظير . وانتشر الأمن في البلاد ، وحلت الطمأنينة محل الفتن والاضطرابات .

واهتم موسى بانشاء اسطول قوى ، قاوم هجمات البيزنطيين على طول سواحل المغرب بل هاجم جزر البليار وجزر ميورقه ومنورقه — وكانت من أملاك ملك أسبانيا القوطي — وسارت حملات أخرى الى صقلية وسردينيا ، وعادت مصلة بالغنائم والاسلاب .

وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال أفريقية كله البر والبحر ، ولم يبق في يد النصارى من شمال أفريقية كله سوى ثغر سبتة الواقع في نهاية البحر المتوسط شرقي طنجة وكانت يومئذ من أملاك أسبانيا .

نتائج الفتح العربي لبلاد المغرب

كان من نتائج الفتح العربي لبلاد المغرب تطور المجتمع ، وتغير عاداته وتقاليده بعد أن اندمج العرب والبربر . وكان لابد لهذا المجتمع الجديد أن يتخذ صورا وأشكالا متعددة قبل أن يتخذ صورته النهائية نتيجة لاختلاط عناصر ذات لغاه وأديان وتقاليده مختلفة .

انتشرت اللغة العربية في بلاد المغرب ، نتيجة لهجرات القبائل العربية الى هذه البلاد ، ومما ساعد على انتشارها انها لغة الدين الجديد ، كما أن العرب سموها في جبل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة ، والناس كما يقول ابن خلدون تبع السلطان وعلى دينه ، فसार

استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسمخ ذلك لغة ومن عوامل انتشار اللغة العربية تعريب الدواوين الذى بدأ فى عهد عبد الملك بن مروان ذلك أن عبد الملك شرع فى صبغ الدولة بصبغة عربية بعد أن استقرت فيها الأمور ، واتسعت خبرة العرب وساعد تعريب الدواوين على ذيوخ اللغة العربية وانتشارها فقد أقبل الموظفون من البربر على تعلم اللغة العربية حتى يستقروا فى عملهم ، فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين والادارة والسياسة ، فضلا عن كونها لغة الدين والأدب والثقافة .

انتشر الاسلام بين البربر بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب وأرسلت الخلافة فقهاء وعلماء ساهموا مساهمة كبيرة فى نشر الاسلام ، وكانت الديانات الرئيسية فى بلاد المغرب ثلاثة . المسيحية على الساحل واليهودية بين البربر البقر ، والوثنية والمسيحية بين البربر الليبرانس .

ورأى المسيحيون الوثنيون من البربر فى الاسلام عقيدة بعيدة عن تعقيدات الكنية وفيها البساطة والوضوح تدعو الى فعل الخير ونبذ الرذائل والمؤاخذة ، وأدراكا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية ، وأدى انتشار الاسلام بين البربر الى تصمسهم للدين الجديد ، فالتزموا الى صفوف المجاهدين ينشرون الاسلام فى غير بلاد الاسلام .

استغرق الفتح العربى للمغرب ثمانين عاماً منذ سنة ٢٣ هـ حتى نهاية القرن الأول الهجرى ، وهى مدة طويلة اذا ما قورنت بفتح الشام والعراق ومصر ، الذى لم يستغرق أكثر من عشر سنوات ، وهذا راجع بطبيعة الحال الى عناد البربر وقوة بأمسهم ، وشدة مراسهم ، وشدة مقاومتهم للفتح يضاف الى ذلك تصدى البيزنطيين للفتح العربى ، وتوقف الفتوحات العربية لوضع سنين ، نتيجة للفتنة الكبرى وفى عهد عبد الملك بن مروان فترة من الوقت لقمع ثورة عبد الله بن الزبير .

وبالخلاصة أن الفتح العربى للمغرب أوجد تنظيماً شاملاً فى المجتمع

المغربى ، فدخل المغاربة في دين الاسلام الامر الذى أوجد تقارباً بين
الشعبين العربى والبربرى اللذان يتشابهان في بعض الصفات والسمات ،
وصارت للبربر نفس العقليّة العربية ، وظهر منهم فقهاء وشعراء
وخطباء ، وازدهرت المذاهب الدينية والسياسية المعروفة في الدولة
الاسلامية في بلاد المغرب وصارت معاملاتهم قائمة على أساس الشريعة
الاسلامية .

وهكذا نرى أن الفتح العربى للمغرب قد غير الحياة المغربية تماماً ،
بمكس الغزو الفينيقي أو الرومانى أو البيزنطى الذى لم يمس الحياة
المغربية ، وكانت جيوش هذه الدول مجرد جيوش احتلال لا أثر
ولا تأثير لها على البربر . أما العرب فقد نقلوا الحياة المغربية الى وضع
جديد وعصر جديد . الفتح العربى للمغرب ثورة في تاريخ البربر . فيها
تحولت البلاد الى عهد مختلف تماماً عن العهد السابق ، تغير اجتماعى
وثقافى وسياسى ودينى وأصبحت بلاد المغرب جزءاً من الدولة
الاسلامية .

وكان لتغير وضع البربر أثره في فتح الأندلس وساهم البربر
مساهمة كبيرة في هذا الفتح ، وكان معظم القادة منهم ، ورأوا في ذلك
فرصة للجهاد والحرب ، وأشبع فيهم موسى بن نصير رغبته في الحرب
والجهاد والحصول على الخنائم .

اسبانيا قبل الفتح العربى

كانت اسبانيا جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية الرومانية ، ولما سقطت روما فى يد الجermen ، استولى الجرمان على املاك الرومان فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا ، وكانت اسبانيا من نصيب القوط .

والقوط احدى القبائل الجرمانية التى نزحت من شمال اوريا ويقال من اسكندناوه بالذات وبين القوط والوندال تشابه عظيم فى العادات والتقاليد ، مما يؤكد الرأى القائل ببنتماتها الى شعب واحد ، ونشط القوط فى عهد الامبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ - ٢٣٥ م) وزحفوا صوب البلقان تدريجيا ، وزحفوا الى اليونان ، والحقوا بها الغراب والدمار . وظلوا يواصلون العبث والزعج فى البلقان ، حتى دمرهم الامبراطور الرومانى قسطنطين الكبير ، وأجبرهم على الانسحاب الى اقصى داسيا سنة ٣٣٢ هـ ، وألقى فى قلوبهم الرعب ، وتتبعهم الاباطرة وأصحفهم ، وأجبرهم الهون على الفرار الى ضفاف الدانوب . وتعرضوا بعد ذلك لملاحقة القادة الرومان .

لكن القوط لم يستكينوا طويلا لما لحق بهم من ويلات وبطش وتكيد ، فعزى أمرهم واشتد بأسهم فى عهد قائدهم أليريك ، وثاروا فى اليونان وتراقيا ، وخربوا البلاد ودمروها ، وواصلوا زحفهم فى اوريا حتى تخلوا روما سنة ٤١٠م ونهبوها . ولكن الامبراطور الرومانى هونوريوس عقد معهم صلحا ، بمقتضاه تمهدوا بالهدوء والسكينة ، بل وافق على دخولهم فى الجيش الامبراطورى ، وساهموا فى قمع الثورات التى اجتاحت اوريا ضد الامبراطورية الرومانية ، ثم استقروا فى اواسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهر اللوار والجارون ، واتخذوا تولوز عاصمة لهم بموافقة الامبراطور واقاموا فى هذا الاقليم مملكة قوطية خاضعة لروما . ومن أبرز حلوك القوط - تيودوريك الأول ولد أليريك - اذى أشرنا اليه - وقسوى أمر

هذه المملكة في عهد تيودوريك الثاني الذي دخل أسبانيا ، وضمها الى مملكته الناشئة ، وطرد منها الوندال والسويف ، واعترفت الامبراطورية بالمملكة القوطية التي واصلت اتساعها حتى شملت شبه الجزيرة اليبيرية في نهاية القرن الخامس الميلادي . لكن الفرنج طردوا القوط من فرنسا ، وشملت مملكة القوط أسبانيا فقط متخذة طليطلة عاصمة لها ، وطبق القوط الأنظمة والقوانين الرومانية في أسبانيا ، واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون أسبانيا قرنين من الزمان حتى الفتح العربى .

لم يمتزج القوط بالشعب الاسبانى ، انما شكلوا أرسقراطية حاكمة تستأثر بثروات البلاد ، وتحالف القوط مع رجال الدين الذين أمثلوا الضياع الشاسعة والارقاء ، وأراضهم معفاة من الضرائب ، ووجه الاشراف ورجال الدين القوانين والنظم حسب مصالحهم الخاصة ، ووفق حياتهم الاقتصادية ، أما سائر الشعب فلما طبقة متوسطة تجار وموظفين يتناضون الأجر الزهيد ، ولما أرقاء يعيشون لخدمة سادة الأرض ، وأدوات انتاج لخدمة السادة رجال الاقطاع .

قاسى الشعب الاسبانى في ظل حكم القوط ويلات اليأس والحرمان والشقاء ، وكان عبء الضرائب يقع على عاتقهم ، بل ان القوط بعد أن حكموا أسبانيا تغلوا عن المروح الحربية والمقدرة القتالية التى تحلوا بها قبل مقدمهم الى أسبانيا ، وحينما حاربوا ضد الرومان والى جانب الرومان . واعتمد القوط على الشعب الاسبانى الكادح فى الحرب واستكانوا الى الراحة والسكينة ، وأصبح قوام الجيش الاسبانى من الاسبان واليهود أنتظموا فى سلك الجيش غير راضين عن حكومتهم التى سلبتهم حقوقهم المشروعة فى الحياة الحرة الكريمة وكان من الطبيعى الا تخلص هذه العناصر المضطهدة فى الحرب لصالح القوط ، بل تمنوا الخلاص من حكومتهم الظالمة الغاشمة وهذا يفسر أسباب هزائم جيش أسبانيا القوطى .

اشتد اضطهاد اليهود فى أسبانيا ، وكانوا يشكلون الطبقة العاملة والتجار والمزارعين ، وقاسوا صنوف الاضطهاد من القوط

وأجبروهم على التمسك أو النفي أو المصادرة فاعتنق النصرانيون كثير منهم كرها . ولما اشتد اضطهاد القوط لهم راسلوا يهود المغرب وديروا معهم انقلابا ضد القوط ، ولكن أمرهم انكشف ، فز القوط في اضطهادهم في عهد الملك ايجيكا سنة ٦٩٤م ، وأصدر مرسوما بالتتكيل بهم ، وصادر أملاكهم على اعتبار انهم خونة أعداء الوطن ، وفرض عليهم العبودية ، وحرر الارقاء النصرانيون من السادة اليهود ووجههم بعض أملاكهم ، ونزع الابناء اليهود من السابغة لتربيتهم على النصرانية ، وألا يتزوج رجل يهودي نصرانية ولا تتزوج يهودية نصراني . وهكذا عاش اليهود في ظلم واضطهاد ، وتمنوا الخلاص من بطش القوط ، وناصروا المر، حينما قدموا إلى أسبانيا ، واعتبروهم منقذين مخلصين .

وحينما فتح العرب بلاد المغرب ، ولقنوا من شواطئ أسبانيا ، كان يحكم المملكة القوطية في أسبانيا وتيزاوتسمية الراجب العربية غيطشه - وهو ابن الملك ايجيكا - وكانت مملكة القوط في عهد هذا الملك في آواخر أيامها ، فرقتها الخلافات وعمتها القلاقل والاضطرابات ، وكثرت فيها الفتن ، وقضى وتيزا سنين حكمه في سحق معارضيه ، ومن خصومه الاقوياء ثيود وفريد الذي نفاه الملك ايجيكا إلى قرطبة ، واستطاع الفرار ، والانضمام إلى الثوار الناقمين على الملك ، وزاد أمر البلاد اضطرابا اقتراب الجيش العربي المنتصر الظافر من شواطئ أسبانيا المضطربة ، وكان العرب قد حاصروا سبتة وردهم عنها حاكمها القوطي يوليان ، وأمد وتيزا يوليان بخير جفده ، لأن سقوط سبتة يشكل خطرا على بلاده ولكن الأمور في أسبانيا زادت اضطرابا ، وأعلن الثورة ضد الملك ، رودريك ابن ثيود وفريد ، وانضم إليه الممارضون للملك ، وكانت ثورة قوية عنيفة ، بل نادى بنفسه ملكا وحل وتيزا وقتله ، وولى الملك سنة ٧١١م .

هأت البلاد بتولية رودريك الملك ، فتمكن من قمع الثورات ، والقضاء على الفتن في كل مكان ، واعلدة الامن والطمانينة إلى

الناس • وقد لجأ الثوار والمعارضون إلى يولييان — حاكم
سبته والمسيحي •

تختلف الروايات حول أصل يولييان فهي البعض أنه يحكم
سبته نيابة عن الامبراطور البيزنطي ، ويعتقد البعض الآخر أنه
قوطي يحكم سبته نيابة عن ملك القوط ، وينكر البعض وجود يولييان
على الإطلاق ، لأن أخباره لم ترد إلا في القرن الثاني عشر ، ولكن
الحقيقة أن يولييان شريكا نصرائيسا ، حكم سبته نيابة عن ملك
القوط ، وأنه كان واسع النفوذ ، — يمتصم بالبحر لهذا إلى الاشراف
والمعارضون لحكم رودريك ، وكان من أنصار العهد القديم يعارض
حكيم رودريك ، ويرى ضرورة عبادة العرش إلى بيت ويتر ،
فتصالح يولييان مع موسى بن نصير لحزل رودريك عن العرش •
وتعيق للرواية العربية سببا آخر لتختلف يولييان مع موسى بن
نصير ، يعتقد أرسل يولييان ابنته الصناء فلورندا إلى بلاط القوط في
طليطلة لتتلقى ما يليق بها من التربية والتعليم بين أبناء الأسر
الارستقراطية ولكن رودريك أفتتن بجمالها ، واعتدى على عفافها
فغضب يولييان ، ورأى ضرورة الانقسام من رودريك ، وبعض
الروايات تذكر هذه الرواية من أساسها ، وتعتبرها من نسج خيغال
الرواة • ولكن للرواية الأسبانية لا تفكرها وترجع إلى القرن الثامن ،
ويؤيد بعض الكتاب الاوربيين هذه القصة ، وينكسرها البعض الآخر •

وهنا يمكن من أمر يمكن أن يكون سبب موقف يولييان من الفتح
العربي لاسبانيا راجعا إلى مناصرة يولييان للعهد القديم وانصاره ،
ومعارضته للعهد الجديد ، فضلا عن قصة فلورندا • وكان تدخل
يولييان أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لاسبانيا •

الانكس :

المراد بلفظ الاندلس أسبانيا الإسلامية بصفة عامة ، أطلق هذا
اللفظ في بلدى الإحمر على شسبه جزيرة أيبيريا كلها ، على اعتبار
أنها كانت جميعا في يد المسلمين ، ثم أخذ لفظ أندلس يحل محله

الجزر على شبهة فيسبباً تبعاً للوضع الجغرافي الذي كانت عليه الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة ، حتى صار لفظ الإندلس آخر الأمر قاصراً على مملكة غرناطة الصغيرة ، وهي آخر معقل للمسلمين في الأندلس ، في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية .

وكلمة الأندلس اشتقها الغرب من كلمة أندلوس وهي اسم قبايل الوندال الجرمانية التي اجتاحت أوروبا في القرن الخامس الميلادي ، وانتشرت في السهول الجنوبية الإسبانية وأصطلح اسمها ، ولما فتح العرب أسبانيا ، عرّبوا هذا الاسم ، وسماها الأندلس .

ويلاحظ أن حكم المسلمين للأندلس دام أكثر من ثمانية قرون ، ولهذا تركوا فيها آثاراً مادية وزخرفية وخطية واضحة المعالم ، ولا سيما في الولايات الجنوبية التي استقر فيها العرب إلى آخر أيامهم ، فالمساجد والمدارس واللغة والموسيقى والأغاني والصفات العربية يلاحظها بوضوح كل من اتصل بالإسبان ، وعاش بينهم ، واللغة الإسبانية تهتوى على أكثر من أربعة آلاف كلمة عربية عدا التعابير والصيغ العربية الموجودة في تلك اللغة . ولا تزال توجد عائلات مسيحية إسبانية تحمل أسماء عربية مثل بنى حسن وبنى لمية . أما أسماء الأماكن العربية والمغربية فلا تزال في كل قرية وفي كل ناحية من الأراضي الإسبانية .

وتقع شبه جزيرة أيبيريا في جنوب غرب أوروبا ويحدها من الشرق البحر المتوسط ، ومن الغرب المحيط الأطلسي ويفصلها عن فرنسا شمالاً جبال البرانس ، التي تتخللها مغارات ومضائق تصل بين البلدين . وهذه الجبال جعلت أيبيريا في شبه عزلة عن أوروبا ، وتحيط بإسبانيا مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي من الشرق والغرب من الجنوب حتى أطلق عليها العرب جزيرة أسبانيا .

وقد استغل المسلمون طبيعة أسبانيا الجبلية في تكوين شبكة دفاعية قوية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الأنهار التي

تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق الى الغرب أو العكس خطوط دفاعية ضد أى هجوم يقع عليها من المسيحيين في الشمال فقامت على هذه الوديان مدن هامة ، وكانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط مثل سرقسطة وطليطلة . وفي أقصى الجنوب تجد نهر الولادى الكبير الذى تقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة وأشبيلية وقادس .

ويعتبر جبل طارق حلقة الوصل بين المغرب والأندلس ويقع هذا الجبل في أقصى جنوب إسبانيا ، وكان يسمى الجبل الجوف *Monte Juf* أطلق عليه المسلمون اسم الصخرة وجبل الفتح وجبل طارق وفرضة المجاز . واسم جبل طارق هو الاسم المعروف حتى الآن في جميع اللغات *Gibraltar* نسبة الى فاتح الأندلس العظيم طارق بن زياد .

أما المضيق نفسه فيعرف قديما بأصدة هرقل نسبة الى الجبال المحيطة به ، وأطلق عليه العرب مضيق جبل طارق وطوله ٨٠ كم ، وعرضه حوالي ١٥ كم .

وكما يقول الدكتور أحمد مختار العبادى أن مسافة المضيق التى تفصل المغرب عن الأندلس شقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو التقافى أو الاقتصادي بينهما فكل من اللطريقين يعتبر منطقة أمان للأخر وامتدادا له في التجمعات الجبلية والأخذ والسطاء والى الضلالت التاريخية والتكوينات الجغرافية والجوالية والمواقع الاستراتيجية رغم وجود هذا المضيق بينهما . ولهذا نشب صراع تقليدى مستمر بين السلطتين الأفريقي والأوربي حول السيطرة على هذه المنطقة الحسنة بالمضيق ، والمعروفة باسم المضايق ، غزو المغرب وغزو الأندلس ، والبعدوة مغنا الجانب أو الشاطئ .

الفتح العربي لاسبانيا

الاسلام في نهضة الشاملة ، وببروحه للقيام الشجاعة التي بثها في نفوس اهل يكيب للمسلمين ولدولة الاسلام أرضا جديدا في كل سنة بل وفي كل يوم ولما فتح المسلمون للشام لم يكتفوا بذلك ، بل اتجهوا الى مصر ، ومن مصر فتحو المغرب ولما تم فتح المغرب رأى موسى بن نصير أن يواصل انتصارات المسلمين وجهادهم فيما وراء المصيبي ، في عالم جديد غريب هلى المسلمين كل للخرابة ، وشجبه على ذلك اللقاء الذى تم بينه وبين يوليان حطهم سبته ، والتحالف بين الرجلين كان تحالفا فريدا من نوعه ، يوليان يتطلع الى القضاء على عرش ملك القوط ، مستمينا بقوة المسلمين للتقدم والفسارية ، وموسى يريد أن يستغل تحالف يوليان معه في تحقيق حلم الاسلام الكبير ، وهو الانتشار في شتى البلاد والبقاع ، والزحف الى الامام دون أن يعوقه عائق ، ويحول دونه حاجل

بعد أن أتم موسى بن نصير فتح طنجة ، تطلع الى فتح سبته ولكنه لم يستطع لمناعتها وبينما هو يستعد لاعادة الكرة جاءت رسالة من يوليان يعرض عليه مشاركته في فتح اسبانيا ويرغبه في الانضمام التي قد يحصل عليها من وراء هذا الفتح . والراجح أن يوليان لم يكن يقصد أن يساعد موسى على فتح اسبانيا ، واحتفالها في حوزة الحرب ، ولكن يوليان كان يقصد أن يساعد موسى في التخلص من رود يوك ، والانضمام بعد ذلك من اسبانيا وكان يعتقد أن الحرب يشنون الفلارات لأجل الحصول على الخنائم ، ثم ينسحبون الى مواقعهم أما موسى فعينما وصلت له رسالة يوليان ، وجد الفرصة سانحة لتوسيع ملك الاسلام فيما وراء البحر .

ومعما يكن من أمر فقد قبل موسى يوليان ، وتختلف الروايات حول مكان المقابلة ، فالبعض يرى أنها تم في عرض البحر ، ويرى آخرون أنها كانت في سبته ، ويرى البعض أنها تمت خارج سبته ،

ولا نعرف بالضبط ما الذى دار فى هذه المقاتلة . ولكن يفهم من سير الاحداث انهما اتفقا على غزو أسبانيا ، وتمهد يولييان بتكثيف السفن والادلاء وكل مساعدة ممكنة . وأغلب الظن أن يولييان حرص موسى على التخلص من رود ريك والانسحاب فوراً ، وانتهاء مهمته عقب ذلك . لكن موسى كان يضرع استغلال صاحبه فى تحقيق مشروع كبير ، وهو التوسع فيما وراء البصر . وأطلع يولييان موسى على ضعف أسبانيا ، ومعارضة الأهلين للحكم القوطى ودلته على نقاط الضعف فى هذا البلد الفسيح .

لما اقتنع موسى بهذا المشروع الكبير ، كتب الى الوليد بن عبد الملك يستأذنه فى فتح أسبانيا ، فكتب اليه الوليد أن يفتبره بالشرائى ، ولا يزوج بالمسلمين الى أهواله البحر ، ونزل موسى على نصيح البطيفة فى اختبار الفتح الجديد بالسرائى .

عهد موسى الى احد جنده ، وهو طريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبى زرة ، وأمره بشن الغارة على سباحت أسبانيا الجنوبي ، فعبر طريق المضيق فى مائة فارس وأربعمائة رجل فى رمضان سنة ٩١ هـ ٧١٠ م وهناك فى المكان المصروف بالسسمه حتى اليوم نزل طريف وجوده وأغاروا على المناطق التى تليها الى جهة الجزيرة الخضراء وانصاب سبياً ومالاً كثيراً ، وحمل ماله .

أثبتت هذه الحملة الاستطلاعية اخلاص يولييان اذ تقدم لطريف السفن والارشادات اللازمة ، كما أن هذه الحملة لاحظت ضعف المقاومة فى أسبانيا ، وتدهور البلاد وامكن غزوها .

شجعت هذه الحملة الاستطلاعية موسى بن نصير على اعداد جيش كبير لفتح أسبانيا فجهز جيشاً من العرب والبربر يبلغ عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل ، وأسند قيادته الى طارق بن زياد أثينيى — حاكم طنجة — ويختلف المؤرخون حول نسب طارق بن زياد فبعض البعض أنه فارسي من همدان ، وأنه مولى لموسى بن نصير ، وتشير رواية أخرى وحى للأرجح أن طارقه من البربر ، ومن هبة نفرة

بالبذات ، ووجهه تلقى الاسلام عن أبيه زياد ، وهذا عن أبيه عبد الله
ويعد عبد الله تدخل في أسماء بمرورية محضه حتى تصل الى بقره
وهي القبيطة التي ينتهب اليها .

كان طارق بن زياد جنديا شجاعا ، وقتلدا بارعا ، وقد فطر
موسى الى مواهبه وولاه طنجة ، وهي أمنع حصون المغرب ، وتقف
في بقعة استراتيجية تحتاج الى مقدرة دفاعية كبيرة ، ثم أسند
اليه مهمة فتح الاندلس ، وقاد جيشا كبيرا وعبر جنديه المضيق في سفر
يوليان ، ونزل بالبقعة الصخرية التي لا تزال تحمل اسمه الى اليوم .
وهي جبل طارق سنة ٨٩٣ م - ٧١١ م ، واخترق طارق المنطقة المجاورة
بمعونة يوليان وارشاده وتمكن من اختراق بلاد الجزيرة ، فاستولى
على قلاعها ، وهزم قائدها القوطي تميم ولما أدرك ولادة ملك القسوة
في هذه المنبسط خطر انزعاج الاسلامي ، وما قد يؤدي ذلك الى
زوال ملك القوط ، أرسلوا الى تيمود وريك - ملك القوط الذي كان في
بعض الولايات الشمالية ، لقمع الفتن فيها بخبروه بقتلوه الموقوف ،
فباد الملك بسرعة الى طليطله وأعاد تنظيم قواته .

تغلب طارق بن زياد على كل مقاومه اعترضته ، وواصل زحفه الى عاصمة
القوط ، وأعيد ملك القوط جيشا قويا يقبله مائة ألف مجندين
أو تسعون ألفا ، وينارح الجيش لوقف الزحف الاسلامي . ولما علم
بضخامة جيش القوط ، استنجد بموسى فأمدته بخمسة آلاف جندي ،
فشن جيش الاسلام اثنى عشرة ألفا ، نواضم اليهم يوليان في قوة
صغيرة من ألفين وثمانمائة .

دار اللقاء بين جيش القوط الكبير وقوة المسلمين الاقل عددا
على ضفاف نهر وادي لك أو وادي بكة . وفي هذا الموقع دار اللقاء
القرين بين التماس بين الشرق والغرب ، وبين الاسلام والنصرانية في
رمضان سنة ٨٩٣ م - ٧١١ م ، وفرق النهر بين الجيشين .

دارت مناوشات بين الجيشين استمرت عدة أيام ، ثم تشبكت
المركة الحاسمة التي انتهت في اليوم السابع من بدأ القتال ، فتمكن

جيش القوط تغرقه الخيانات والخلافات والكرامية للملك ، وعدم الاخلاص في الحرب ، وتعنى كثير من بجند الملك القوطي هزيمته ، واستطاع جيوليان في الحركة أن يستميل بعض الجند ، وأدى انقسام الجيش إلى هزيمته ، ومزق المسلمون أعداءهم كل ممزق ، ولم يتجع إلا الشريد ، أما الملك فاحتفظ الروايات في مصيره ، فيقول البعض بلقيه عرق نقي النهر ، والبعض يقول أنه قتل ، ويذهب البعض إلى أنه هرب إلى البرتغال ، وتترهب في بعض الأخيرة بتخفيا حتى وفاته .
ويسمى هذه الواقعة وادي لك أو وادي بكه أو بوقعية شبقونه ، وكان من أهم نتائجها زوال ملك القوط ، وسقوط المدن الإسبانية في أيدي المسلمين الواحدة تلو الأخرى تساقط أوزاق الخريف .

ألفت هذه الواقعة الرعب في نفوس القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ، وقصدوا إلى الهضاب والسهول ، وذاغت أنباء النصر في بلاد الغرب ، فزحف إلى الأنطلس عدد عظيم من البربر والترب ، وانضموا إلى الجيش المنتصر ، واشتبك المسلمون مع القوط في حركته الأخيرة ، ومجاورة من القوط لدرء المسلمين عن بلادهم ، ولكن الكثرة دأبت على القوط مرة أخرى ، الأمر الذي يسر للمسلمين أمر فتح المدن الأسبانية المحسنة تلو الأخرى .

زحف طارق بن زياد إلى طليطلة ، على حين أرسل نعيم الرومي - مولى الوليد بن عبد الملك - إلى قرطبة ، فبهزم أسوارها ، واقتحمها دون خشية ، وأرسل حملات أخرى إلى البيرة وعزلة وبلنسية ، وتم فتح هذه البلاد ، وغلب اليهود المجسمين في ساحل الحروب لأنهم - كما قلنا - يرجون زوال ملك القوط ، وكان المسلمون يقسمون في كل مدينة يفتعلونها حامية صغيرة لتقبلها وتمنع أي مقاومة قوطية ، لاستئردادها ، ثم زحف المسلمون شرقا إلى قرطبة ، وكانه تسمى تدعى نسبة إلى حاكمها ، ولكن هذا الحاكم قلوب المسلمين بعينة وصلاية ، ولم يفتطم المسلمون فتح البندة ، بل ابتغوا عليها بشرط عدم مقاومة أعداء المسلمين .

وكانت مقاومة القوط قد اعتراها الوهن والضعف ، وهذا يفسر لنا دخول طارق بن زياد طليطله ، والاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر ، وقد غرت حاميتها وهرب سكانها الى القرى والجبال المجاورة ، ووجد المسلمون المدينة خالية من سكانها ، وغنم المسلمون مفاتيح وميرة من القمصور والكنايس تسبب المراجع العربية الحديثة عنها •

خشى طارق أن يقطع عليه السور الطويق في هذه البلاد الجبلية الموعرة لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، ونصب المسلمون من الجهد الذي بذلوه واكتسبته الفخائم التي جصموها ، ويرى البعض أن طارق استنجد بموسى بن نصير غير أن بعض المصادر تشير الى أن موسى بن نصير هو الذي أمر طارق بوقف الفتح ، أما جوملا على عدم اللجوء بالمسلمين في مجاهل تؤدي الى تدميرهم أو حقدًا على أن ينال طارق شرف فتح الأندلس •

ونحن نرجح أن موسى بن نصير الذي عرف عنه الحذر ، طلب من طارق التوقف حتى يلحق به لخراسة الموقف على الطبيعة واتصديح إمكانية مواصلة الفتح أو التوقف عند هذا الحد • ومهما يكن من أمر فقد عبر موسى مضيق جبل طارق على رأس عشرة آلاف مقاتل من العرب وثمانية آلاف من البربر في سفن صنعها خصيصا لهذا العمل ، يحفزه شرف الاشتراك في الفتح على الرغم من أنه بلغ من العمر أرذله ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ٥٩٣ — ٧١٣ م ، وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونه ، ثم قرموونه — وهي حصن منيع — فامتولى عليها ، وفتح أسبيلية بعد حصار دام شهورا ، وفتح ماردة بعد ثلاث وعشرين سنة ٩٤ م ، والتقى موسى بطارق على مقربة من طليطله ، وتشير الرواية العربية الى أن موسى أنجب طارقا بل بعضهم يقول أن موسى زج طارقا في السجن ، ولكنه ما لبث أن غلبا عنه ، ثم اشترك القائدان الكبيران سويا في مواصلة فتح ما تبقى من بلاد الأندلس ، وزحفا نحو الشمال الشرقي ، واخترقا ولاية أراجون وأسسقولا على سرقسطة ووشقة ولا رده حتى بلغت شاطئ البحر الشمالي عند حدود فرنسا الجنوبية •

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما ، وكانت
أواخر الخليفة الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق ،
فرجع موسى ومعه طارق ، بعد أن خلف على الأندلس ابنه
عبد العزيز بن موسى بن نصير في أواخر سنة ٨٩٤ - ٨٧٤ م .

وكان موسى طموها يتطلع إلى عبور جبال البرانس والاندفاع
في غزو أوروبا ، ولكن الخليفة عارض هذا الرأي خوفا من العاقبة
الوخيمة . أما ابنه عبد العزيز بن موسى ففتح الجزء الشرقي من
الجزيرة . وبذلك تم فتح شبه جزيرة أسبانيا كلها إلا الجزء الشمالي
الغربي الذي يسمى جليقية . فكانت هذه البقعة التي تركها العرب
لبردها ووعورتها ، نواة للدولة المسيحية الأسبانية التي ما زالت تنمو
وتتوسع حتى طردت العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون .

ويرى سافيرا أن حملة طارق بن زياد جلت. مدة للأسرة
الملكية القديمة ، وعولها على أعدائها إلى الملك . ولما رجع موسى
إلى الأندلس انتفضت العملة صفعة الفتح . ولذا ثار الأسبان في المهن
الكبرى مثل اشبيلية وطليطله وغيرها مما اضطر العرب إلى فتحها من
جديد ، ومن هنا أصبحوا فلتحين لا معدين كما كانوا من قبل .
وكانوا أسيرة يولييان والأسرة الملكية القديمة المكافآت والضياع
والاعتطالات على مساعدتهم في الفتح . ولكننا نرد على كلام سافيرا
بأن العرب جلعوا فلتحين لا معدين ، وأن فتح الأندلس جزء من سياسة
المسلمين للكبرى التي بدأت منذ فجر الإسلام وهي مواصلة الفتح ،
ونشر الإسلام في غير بلاد الإسلام .

وهكذا فتحت الأندلس في أربع سنوات من ٩١ - ٨٩٥ م .

تختلف الروايات حول البواعث والأسباب التي دفعت الوليد
ابن عبد الملك إلى استدعاء موسى وطارق إلى دمشق ، فيعتبر بعضها
إلى الخلاف بين طارق وموسى وخوف الخليفة من أثر هذا الخلاف
على موقف المسلمين في الأندلس . وتشير رواية أخرى إلى أن الخليفة
خشى من تولد موسى بالمسلمين في أراضى بعيدة قاصية عن عين

دمشق وتشير رواية أخرى - وهي الأرجح - من أن الخليفة خشي
من أن يستغل موسى بهذه البلاد النائية البعيدة ، وقد عرفت
عنه الطموح .

امتثل موسى لأمر الخليفة ، وكانت عنده - رغم شغفها بآمال
عراض ، ففكر في اختراق جبال البرانس ، وأن يقتحم أمم النصرانية
في فرنسا وإيطاليا واليونان وغيرها ويصل إلى الشام عن طريق
القسطنطينية ، ويحول البحر المتوسط إلى بحيرة عربية ولم تكن
هذه الخطة مستحيلا تحقيقها في ذلك الوقت . ذلك أن دولة الفرنجة في
فرنسا وألمانيا - وأنلوبارد في إيطاليا وممالك النصرانية الأخرى
كانت كلها ضعيفة ، - ولا تستطيع التصدي لقوة المسلمين المتفوقة
في ذلك العصر .

وتختلف الروايات حول مصير موسى بن نصير ، فتذكر بعض
هذه الروايات أنه قُوبل في دمشق بالترحاب ، وتذكر روايات أخرى
أنه عومل بقسوة في دمشق لا تتناسب إطلاقا مع الدور الكبير
الذي أداه في خدمة الاسلام وأهله .

لقد وصل موسى إلى القسطنطينية إلى دمشق في موكب من
الجنائيم لم يشهد التاريخ له مثيلا يتمثل في الأسرى من أبناء وثقات
وملوك البقوط والذهب والفضة وغير ذلك مما لا يمكن حصره ،
وتشير الروايات إلى أن موسى اقترب من دمشق ، وكان الوليد في
مرض الموت ، فطلب منه ولي عهده سليمان بن عبد الملك أن يتمهل
لحين وفاة الوليد حتى يحل هو - أي سليمان - على دمشق
النائم . ولكن موسى رفض طلب سليمان ، وبخيل دمشق
والوليد على حراس الموت ، ولما توفي الوليد وولي سليمان
غاز - قضيه على قوسى وأساء معاملته ، وزجه في السجن وظالبه
بالتسلل الكثير ، ولما قطع موسى تمهيدا بضم ما عليه لأجبا إلى
يتغنى القسطنطينية لطلبها فمعاونته على تمهيد باقي ما عليه . ثم
مغلنا عنه وفوق الشنخ بجسد أن جهناور من العنار تفانين عاننا
بسط أن أدى نوزا بطوليا وذكره التاريخ بفخر وأعرنا الخدمة طهنة .

كان موسى بن نصير من أعظم رجالي الجيوب والاعارة للمسلمين في القرن الأول - الهجري ، وظهرت خطوته الفاتحة في منعة ونفسية الشعوب وزراعة في سياستها وقادتها وكان عالماً في اللدنية والفقه والشعر والأدب والفلك .

أما مصير طارق بن زياد فالروايتان العربية والاسبانية لا تشير كل منهما اليه بشيء ويبدو أن أمره أهمل في دمشق وأنه قضى بقية حياته في زوايا البسبان ، وأسيئت معاملته رغم مقبوضته العسكرية الكبيرة ورغم جهوده الجبارة في فتح بلاد المغرب والأندلس . أما مصير الكونت يوليان ، في بعض الروايات عاد إلى سمته بعد الفتح ، وأقطع ما حولها من الأراضي ، وقام بملحقها جزاء لطبقته ، وبقي على دينه ، غير أن عقبه خطوا في الإسلام ويقول الرواية أنه قتل في صراع مع موطنين أو قتل ، بعد ذلك ما عولم في ولاية الجرد التقني بيد العرب الذين ارتابوا في ولايته .

كان محمد المرز بن موسى بن نصير أول ولاية الأندلس تحت المسلمين ، وأسس خلف موسى ابنه عبد الله على أفريقيا ، وأقر سليمان ابن عبد الملك هذا الأخير ، وكانت مهمة عبد العزيز ضيقة متاعاً ، فمقوى الحصون ، وفتح الحاميات العسكرية بما يحتاج من مؤن ومعدات ، وقمع الثورات ، وأعاد الهدوء والطمأنينة التي ابتليت ، وأنبها ديوانا لطريق الإحكام الشرعية ، ونبه على الزواج بين العرب والاسبان وتزوج بالملكة ايجلونا - أرملة إدو ديك ملك الجيوب واختار السبيلية أول عاصمة للأندلس ، وأجبر المصاحرون على الأندلس من العرب والبربر ، واستقرروا بالوطن الجديد ، واشتغلوا بالزراعة والمهنة والتجارة .

ولكن العرب في أسبانيا عارضوا حكم عبد العزيز بن موسى ، واتهمه بعضهم بالانقياد لزوجته ، بل ردد البعض أنه تنصر ولكن بالأغرب ، إلى المصائب أن المصائب كانت حول توليها في الاحتلال بالأندلس ، ويخزن خلفه الشبهة عن الخلافة التي استعصمت بها

موسى . فمهما يكن من أمر فقد هاجمه الثوار في مسجد أشبيلية وقتلوه سنة ٨٩٧ هـ . وأرسلوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك بدمشق مما يدل على أن أصابع سليمان لم تكن يعمية عن هذه المؤامرة خصوصا وأن سليمان عزل عبد الله بن موسى في هذه الأونة .

نتائج الفتح العربى للأندلس

من الناحية السياسية سقطت مملكة القوط ، وتمولت أسبانيا الى ولاية تابعة للدولة الاسلامية الكبرى ، يحكمها ولاية يمينهم وإلى أفريقية أو وإلى مصر . لأن أسبانيا كانت أحيانا تتبع وإلى أفريقية وأحيانا تتبع وإلى مصر .

أدى الفتح العربى للأندلس الى تغير شامل في المجتمع الاسبانى فلم يعد ينقسم المجتمع الى طبقة أرستقراطية تتمثل في القوط ورجال الكنيسة وطبقة متوسطة تعمل لحساب الأرستقراطية وتتقاضى الأجر القليل . ، وطبقة دنيا من الاقنان والارقاء ويهود ناقلين على الحكومة لاضطهادهم . ، وانما ذابت الفوارق بين الطبقات في المجتمع الجديد وانقسم المجتمع الى العرب وهم الذين ساهموا في الفتح أو هاجروا الى أسبانيا واستقروا فيها بعد الفتح ، والبربر هم أهل المغرب الذين ساهموا في الفتح .

والاسبان سكان البلاد الأصليين وقد تعلموا اللغة النوبية لغة الفاتحين وسموا بالمستعربين ويقوا على دينهم ، لا يتعرض لهم العرب بسموء ولا يهملونهم ، على اعتناق الاسلام ، لأنه لا اكراه في الدين . ، وانما بقى من أراد على دينه بشرط دفع الجزية وثمة طبقة أخرى وهى طبقة الموالدين ، ونشأت هذه الطبقة الجديدة من تزاوج العرب بالاسبان ، فعملوا موايا الجنسين ، وكانوا نتيجة لاختلاط الدماء العربية بالأوروبية .

ومن نتائج الفتح الاسلامية للأندلس تحصن الأوسانغ الاقتصادية في الأندلس . ، فأعيد توزيع الأراضي الزراعية بين العرب

والبربر والاسبان ، ولم يعد الاسباني يزرع لصالح الارستقراطية التي لم تكن تترك له سوى النزر اليسير مما لا يكاد يكتفى احتياجاته أما المغرب فقد تركوا الأرض في يد الاسبان يزرعونها ويتؤدون خراجها الذي حدد بنسبة المحصول وجودة الأرض ويعدده أو قربه من مصادر المياه .

وأدى الفتح العربي الى انتشار اللغة العربية والاسلام ، وظهور الحضارة الاسلامية في الأندلس بتدريجيا ، وكانت أسبانيا قبل الفتح تعيش في ظلام الجهل . ولكن الاسلام اضاء بنوره هذه البلاد وأدى الى ظهور العلم والثقافة وانتشر الحضارة الاسلامية .

عصر الولاة في الأندلس

تُعرف الفترة الأولى للحكم الإسلامي في الأندلس بعصر الولاة وهي فترة مضطربة كل الاضطرابات ، سادت فيها الفوضى والفتن بلاد الأندلس ، واشتد هذه الفتن ضراوة ما حيث بين العرب والبربر ، وكان أمير القهريان هو الذي يميز ولاية الأندلس في أغلب الأحيان ، على أن أهم ما يميز هذه الفترة هو غزوات المسلمين في قرطبة أو عندما وراء انبرائس ، لما قتل عبد العزيز بن موسى ، ولي الأندلس ابن عمه أيوب ، ابن حبيب اللخمي سنة ٩٧ هـ ، وحكم البلاد ستة أشهر فقط ، واليه ينسب بناء قلعة أيوب في جنوب سرقسطه شمال أسبانيا ، وهي الآن مدينة كبيرة لا تزال تحمل اسمه ، ثم خلفه الحري بن عبد الرحمن الثقفي حتى سنة ١٠٠ هـ ٧١٩ م ، وخلفه السمع بن مالك الخولاني نسبة الى قبيلة خولان اليمنية بمهد من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وقام هذا انوالي الجديد بعدة اصلاحات عمرائية وأدارية ، منها اعادة بناء سور قرطبة وقنطرتها التي تربط المدينة بأراضيها الجنوبية عبر نهر الوادي الكبير .

بدء المحاولات الجنبية لفتح فرنسا

كانت الفتوح العربية تتدافع كأمواج البحر موجة تلو موجة فالعرب قد فتحوا الشام ثم وثبوا منه الى مصر ، وجاءت بعد مصر أفريقية ، ثم كان بعد مصر فتح أفريقية ، فتح الأندلس وتمشيا مع هذه الطريقة كان لابد أن يتبع فتح الأندلس قفزة أخرى الى ما وراءها وفعلا فكر في هذا - كما قلت - موسى بن نصير عندما أتم فتح أسبانيا ، ثم فكر في أن يعبر جبال البرقات الى أرض غاليا ، ومنه يسير شرقا في مشروع كبير يرمى الى فتح روما أو القسطنطينية ، والقسطنطينية كانت أملا عظيما ، تحطمت على أسوارها كثير من المحاولات العربية في المشرق ، فقد حاول العرب غزوها عدة مرات ، ولكنهم أخفقوا ، ولكن الخليفة

استدعى موسيرون نصير - كما رأينا - ورفض توغل المسلمين في أراضيهم ومجاهل غير آمنه، ولكن فكرة غزو ما وراء أسبانيا ظلت تتجدد في النفوس حتى ولي الإندلس السبع بن مالك الخولاني، وهو من خيرة الولاة الذين تولوا أمر الإندلس. ويتولى عادت إلى الجند جماعتهم وتحركت فيهم روح الغزو التي كانت قد فترت بعد استدعاء مهمي وطبارق إلى الشرق، وما أجهما في دحر الخلافة.

ويجب أن نلقي نظرة عامة على فرنسا قبل محاولتنا المستعجلة فتحها، وفرنسا في التاريخ الروماني تسمى غاليا، أو غاليس أو غال، وكامبيلاج جغرافي لم تكن قد وجدت بعد كتلة واحدة أو كوحدة سياسية، كذلك لم تكن قد تكونت بعد اللغة الفرنسية في ذلك الوقت، وبعد زوال الدولة الرومانية توزعت فرنسا بين قوى مختلفة، فاستبانيا كانت تابعة للقوط الغربيين - وهي المدن السبع - والجزء الذي يحد نهر اللوار شمالا إلى جبال البرنات جنوبا كان دوقية مستقلة تسمى أكيانيا «أكتين» فإذا مرنا من أقليم إسبانيا شرقا، فهناك أقليم بروفانس، بينهما نجد شرقي نهر الرون «برجنفا» وكانت هذه الأقليم مستقلة تماما، لا تخالف عن البارات الجرمانية. أما شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية، فكانت مملكة تسمى مملكة الفرنجة أو الميروفنجية.

ضعفت الدولة الميروفنجية بمرور الزمن، ولم يعد في استطاعتها القبض على زمام الأمور في الدولة، انهارت السلطة المركزية، واسترد الاشراف والزعما المحليون استقلالهم وامتيازاتهم، وأزداد سلطان محافظ القصر، وأصبح في القرن السابع منذ ضعف الملوك أقوى الناس الادارية والسياسية في الدولة، وأصبح محافظ القصر صاحب السلطة الفعلية في الدولة، بينما لم يكن للملك من السلطة سوى أسماء فقط، واختصت الأسرة الكارلية بهذا المنصب الكبير، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية، وولى شارل مارتل منصب محافظ القصر سنة ٧٣٠ م بعد أن تغلب على منافسيه. هكذا كانت مملكة الفرنج حينما ظهر المسلمون إلى غاليا أو غاليينس.

كانت مرة بزيادة السمع بن مالك ، وغزوا ولاية سبتلمانيا القوطية ،
ولحقوا على قواعدنا ، وزحفوا على مدينة تولوز — عاصمة أوكيتن —
وكان آودو — دوق أوكيتن — أحد أعظمه الأسرة الميروفنجية ، أقوى
أمرأه أنفوج في غاليا ، وشدهم بأسا وأمسقل بأكوتن منتزعا فرصة
الاضطرابات التي سادت ، وسيطر على جنوبه فرنسا ، من اللوار
الى البرانس ، والتف حوله القوط والبستاكس و (الكاتالونيون) وتطلع
الى التخلص من سلطانهم كله على بلد ، ولتتراجع بالذات الى البرنسية .

أقام السمع بن مالك في سبتلمانيا حكومة استعلاية ، ولقد توزع
الارمن بين الأكليل وفرمن الغزاة والغزاة على الشطرين ، وكل لهم
الحرية الدينية ، ولقد كان طبعاً لهم من زحف نحو الغرب لثبوت
أوكيتن ، وحزم الأعداء الذين تصدوا له شر هزيمة ، وأتجه إلى تولوز ،
فاستطاع أن يد يوقو ، وأعد جيشا قويا لانتفاذ مملكته من العرب والنقي
السمع بن مالك بيومو بظاهر تولوز في معركة حامية القوطيس ، وبذل كل
من الفريقين ألوانا من الشجاعة الفادرة ، وسالت الدماء أنهارا ، وفجأة
سقط السمع من فوق جواده صريحا ، فدخل نظام الجيش الاسلامي ،
وحادثه القوقى والاضطراب ، وانسحب المسلمون الى سبتلمانيا بعد أن
هقدوا القائد الشجاع سنة ١٠٢٢ هـ ٧٣١ م .

اتخذ المسلمون على أثر هذه الهزيمة من حيلة لربونة قاعدة لمعقلاتهم
الحرية فيما وراء البرانس .

لجأ الجيش الإسلامي عبد الرحمن طلائقي ، قائدا عاما وقويا
لجيش الجماعة له واليا طبرستان الاندلس حتى توجه للدولة الى أحد واليها .
وقضى بقوته في وحدة الأجداد في البلاد حتى ولي منيمه بن سعييم الكبير
حكم الاندلس سنة ١٠٢٣ هـ ، وكان لابد لمنميه من إعادة تنظيم جيشه
وأعداده لمواجهة الفتح فيما وراء البرانس ، وأصلح أحوال البلاد
الداخلية ، وقضى على الاضطرابات التي حدثت في الاندلس ثم عبر جبال
البرانس ، وأتم فتح إقليم سبتلمانيا بحدته السمع ، ثم صد مع الأعداء
مجاهدين للجمهورية ليرين والمسلمين ، منهم قتل على القلعة المعروفة

برجانديا حتى بلغ مدينة أوتون في أعلى الرون ، ولكن أهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعت ، وأنهى الأمر باستشهاده هو الآخر سنة ١٠٧ هـ ، فارتد الجيش إلى الداخل ، وعادت الاضطرابات إلى الجزيرة مرة أخرى .

وتسود الاندلس بعد ذلك لفترة من الاضطرابات ، تنف فيها حركة الفتح الخارجي مدة أربع سنوات ، ويتوالى على الاندلس في هذه الفترة التي تلي وفاة غنيمه ستة ولاء . وفي سنة ١١٢ هـ ٧٣٠ يتولى أمير شجاع متمسك للجهاد ، هو عبد الرحمن الغافقي نسبة إلى قبيلة غافق النخعية ، كان جنديا عظيما ظهرت مواهبه الحربية في غزو فرنسا ، عرف عنه العدل وحب الإصلاح والورع والتقوى ، وكان فوق العصبيات وعاد الوثاق بين التيفنة والمضرة في عصره ، الأمر الذي قوى من شأن البلاد والجيش ، وكان حكمه في الواقع لما تمهده عهد جديد في تاريخ الاندلس .

نظم عبد الرحمن إدارة البلاد ، وأعاد إلى النصرارى أملاكهم المنصبة ، وسأوى بين الناس في الضرائب ، وأوجد نظاما اداريا قويا ، وأعاد تنظيم صفوف الجيش ، وزوده بالقوى الأسلحة ، وحسن القواعد والثغور الشمالية ، واختار لجيشه فرسانا من البربر ، يقومهم نخبة من المغرب .

اختص عبد الرحمن الغافقي الثورات في الشمال . وفي أوائل سنة ٧٣٢ م ١١٤ هـ سار عبد الرحمن إلى الشمال مفرقا ولاية أرنهون « النهر الأعلى » ونافار « بلاد البشكنس » ، وعبر البرانس من طريق نيلونه ، ودخل فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م وحقق مباشرة على مدينة آرل الواقعة على نهر الروم ، التي عارضت الحكم الإسلامي ، وقهرها بعد لائى وعناء ، ثم زحف غربا ، وعبر نهر الجارون ، وقاقت عبد الرحمن بوذو قتالا شديدا حرم فيه الدوق شتر هزيمة ، وقتل من جنده خمسون ، ودخل عبد الرحمن غاصقة بردال ، وسقطت أوكوتين كلها في يد المسلمين ، ولاد الدوق بوذو بالفرار وأخذ يهرب في الأرض ، ثم ارتد عبد الرحمن نحو الدوق مرة أخرى وأحرق الجيش الإسلامي برجوتية وأسفل على لئون وواجهت زحفه حتى مصانع التي تبعد مائة ميل فقط عن باريس وأرسل

عبد الرحمن بعد ذلك عربا الى ضفاف اللوار ، ليتم فتح هذه المنطقة . تم مقصد عامه الفرنج ، وبذلك سيطر على نصف فرنسا الجنوبي من الشرق الى الغرب في بضعة أشهر فقط .

بحاً يودو الى سارل مارل يستنجد به ضد الخطر الداهم الذي اودى بمملكته . والدوله الميوغنجية تعتبر في نظر الفرنسيين ، المرحلة الاولى من تاريخهم الحديث . ولكنها في الحقيقة لم تكن فرنسه بحال من الأحوال ، فلا اللغة ولا الحدود ولا القوميه كانت فرنسية حتى ذلك الوقت . وانما كانت الدوله الميوغنجية ألمانيه ، فسارل ألماني وكذلك حينه ، فالقتال الذي وقع أنما كان بين سكان الصحاري المنددة من بلاد العرب الى شمال أفريقية وبين سكان الغابات الشماليه في أوروبا حيث موطن القبائل الجرمانية . وهذه أول مره في التاريخ تلتقى فيها هاتان القوتان . لذا كان الجيوش مختلفين في كل شيء في السلاح وفي اللباس وفي التكتيك الحربي وأساليب القتال .

فالغرب وأندلس آتون من بلاد صحراوي حاره . ملابسهم واسعة فضفاضة ، وأسحتهم خفيفه أهمها الخوس والسيف ، وطريقتهم في الحرب الكر والفر . ولهم مرقه من الحائه هي الركن الالاسمي في النجس . وهي التي يهتمون بها ، ويولونها عايتهم . أما الحرمان . مهم أها ، مناطق باردة أجدهم حديدية ، ويحاربون نبيه عراه . أسلحتهم من معدة من بنتهم حيث الغابات الثقيلة والسيف العرمسه وأكثرهم متباه بسببرون في صفوف مరాصة .

ومهما يكن من أمر فقد نفذ عبد الرحمن بجيشه الكبير الى فرنسا سنة ٧٣٣ م ١١٤ هـ وأقتحم وادي الرون وولايه أكونين ونسبت قوى أودو ، وأشرف على ضفاف اللوار . وقد أفلقت هذه الانتصارات سارل مارل — محافظ القصر في مملكه الفرنجة في عهد سيودريك الرابع ولجأ أودو وزعماء الفرنج الى محافظ القصر مستنجدون به . ويخبرونه من سقوط بلادهم في يد المسلمين . بالمغري صاحب كتاب نفح الطيب أكبر وسوعه في تاريخ الامم . يدل على مؤرخ أقدم منه اسمه الحجاري

نسبه الى وادى انجاره بالاندلس . عولا معاه ان عارله (سارل مارنل) قال لقومه حين نسكوا اليه وقوف العرب على ابواب بلادهم ، انتظروا لا تواجهوهم فى اقبال أمرهم فان لهم ارادة مويه ، وميه صادقة وحصانه انظروا حتى تهدأ أمورهم ، ويأخذوا فى التنافس فى اترياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ، وبضعف امرهم ، فتمكنون منهم بأيسر مجهود .

ويعقب المغزى عنى ذلك بقوله : فكان واقه ذلك .

سأسى سارل مارنل ويودو الحلاطات بينهما وتنافساً لمواجهة العدو المشترك . وكان لابد من خوض غمار معركة فاصلة لدرء خطر المسلمين عن بلاده ، وفى نفس الوقت للسطوة على جوب فرنسا ، واستراخ ملك بودو ، وهذا حلم قديم كان يرثوده ، وقاد سارل جينه الذى يتألف من الفرنج والعساكر الجرمانية المتوحشه والعصابات المرتزقه فيما وراء البرتات وسار زعيم الفرنجه على رأس هذا الجيش الجرار نحو الجنوب للاتقاء العرب .

ودار اللقاء الحاسم بين الشرق والعرب والاسلام والنصرانية ومن الصعب تحديد مكان هذا اللقاء ، ولكن يمكن القول بأنه السهل الواقع بين مدينتى تور ومواتيه على مقربة من مدينه تور ، وبعد أن استولى المسلمون على مدينه بواتيه وخرّبوا كنيستها ، ربما أراد عبد الرحمن أن يعبر اليرار فاجأه الجيش الكبير بقيادة سارل . ودارب رضى معركة رهيبه وأرند الجيش المسلم الى السهل - الذى أشرنا اليه - وكان الجيش المسلم منفلا بالغنائم وكانت تفر بين جنوده القلائل ، وتتمثل هذه الغنائم فى كنوز ثرواب جوب فرنسا ودار انقتال بسدة وصراره بن الفريسيين ، ولاح النصر فى جانب المسلمين ، ولكن فطن الفرنجة الى حرص المسلمين على عائتهم فأجحدوا شرة فى داخل الجيش المسلم ، وانقصوا على الغنائم فترك المسلمون الحرب ، واتجهوا الى انخلائهم ينعزبن الفرنجة عموا ، فذهب الخلل الى صفوف المسلمين ، وعثا حاول عبد الرحمن أن يعبد الهدوء الى جيشه ، فأصابه سهم فقتله ، وخر صريعا من فوق جواده ، وعم الدعر

والجزع والهلح بين صفوف الجيش المسلم ، هنا وأنت الفرصة الفرنجة للنيك من المسلمين ، فقتلوا منهم ما لا يحصى ولا يعد ، وأقبل الليل أكتوبر ٧٣٢ م ١١٤ هـ فقرر المسلمون الانسحاب من المعركة التي لم يعد لهم أمل في الانتصار بعد أن فقدوا قائدهم والكثير من جندهم ، وارقد المسلمون في جوف الليل وجنح الظلام جنوبا صوب قواعدهم في سبتمانيا ، تركين أمتالهم ومغانمهم وفي الصباح أقبل شارل على المعسكر فوجده خاليا الا من الجرحى ، فأمر بضيحهم وأنسحب الى الشمال ، وخشى أن يتابع الجيش المسلم خوفا من كمين ربما قد أعدوه .

والرواية العربية تتحدث بإيجاز شديد عن موقعة بلاط الشهداء ربما لما أحدثته من صدمة للمسلمين ، بينما تسهب الرواية النصرانية في الحديث عن هذه الموقعة .

ولموقعة بلاط الشهداء أهمية كبيرة جدا في التاريخ الاسلامي فهي من الممارك الفاصلة في التاريخ ، اد أوقفت زحف العرب في أوروبا ، والمعروف أنه لو أنتصر العرب ، لاستقطاعوا اجتياح أهم النصرانية في أوروبا ، والوصول الى القسطنطينية عن طريق أوروبا وأوقعت هذه المعركة زحف المسلمين عند حد معين ، وتعتبر انتصارا للعرب على الشرق وللنصرانية على الاسلام . ولدولة الفرنجة على دولة الاسلام .

وتعرض الكثير من المؤرخين لهذه الموقعة ، ويقول جييون لو أنتصر التعرب في تور و بواتيه ، لكن القرآن بتلى ويفسر في أكسفورد وكمبرج .

ويقول آخر : ان فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ولما وثب المسلمون الى فرض الدين ، فنهض ازاء ذلك الخطر فتى من عسيرة جرمانة هو كارل مارتل ، وأيد هبة انظم النصرانية المشرقة على الهدوء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ودفعها الى بلاد جديدة . وبغول زملر كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وقد هاون هذا النصر زعيم للفرنجة

على توطيد سلطانه ، لا في غالبا وحدها ولكن في جرمانيا التي اشركها في نصره .

ويرى محمد سيد الله غنان أن معركة بلاط الشهداء كانت أعظم لقاء بين الاسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، وفقد العرب في هذه المعركة سيادة العالم بأسره وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وأرقد تيار الفتح الاسلامي أمام الامم الشمالية كما أرتد قبل ذلك بأعولم أمام أسوار القسطنطينية وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتح امم الغرب ، وأخضاع النصرانية لدولة الاسلام ولم تتح للإسلام المتحد فرصه أخرى ، لينفذ الى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مصيره الى بلاط الشهداء ولكنه أصيب بتفريق الكلمة ، بينما تسطت أسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخليه اذ قامت فيها وراء البرتات أمبراطورية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الاسلام في الغرب .

وغريق من المؤرخين المحدثين لا يعلق أهمية كبيرة على هذه الواقعة ، ويرون أن الامتداد الطبيعي للغزو العربي في أسبانيا هو جبال البرتات . أما العمليات العسكرية التي قاموا بها وراء هذه الجبال ، فهي مجرد غارات غداثية بجافع الحماس الديني دون أن يعملوا حسابا للتأثير الهزيمة الفاهقي في رأيهم — كانت نهاية طبيعية لامتداد غير طبيعي مصفوف بالمخاطر ولهذا لم يكن لها تأثير ايجابي على مجريات الاحداث السياسية الاسلامية ، لأنها كانت بعيدة جدا عن قلب العالم الاسلامي وعن المجال الحيوي للدولة الاسلامية ، فالهزائم التي منى بها المسلمون أمام القسطنطينية مثلا ، كان لها تأثير كبير وصدى قوى في السياسة الاسلامية ، لأنها كانت قريبة من دمشق حاضرة الدولة الاسلامية . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الرواية الاسلامية لا تعلق كثيرا ، ولا تسهب كثيرا في الحديث عن بلاط الشهداء .

ولكننا مع الرأي الأول القائل بأن هذه المعركة حددت مصير العالم أجمع شرقه وغربه ومسلمه ونصرانيه ، وسميت هذه المعركة — كما قلت — بلاط الشهداء ، نسبة الى طريق روماني قديم ، دارت عنده هذه المعركة ،

ولهذا الطريق مرصوف مبلط وتسميها المصادر الاوربية ، موقعة ثور .
أما القائد شارل مارتل ، فلقب بعد المعركة « مارتل » أى المطرقة .

توقفت فتوح المسلمين فى فرنسا بعد بلاط الشهداء ، بعكس ما كان يحدث للمسلمين فى فتوحاتهم ، فكثيرا ما هزموا ثم عادوا الكرة وانتصروا . ولكن موقعة بلاط لشهداء - أوقفت فتح المسلمين فى فرنسا ، ذلك أن الدولة الأهوية قد هزت بالكثير من المتاعب ، فالمسلمون هزموا فى آسيا الصغرى ، ونسن البيزنطيون الغارات على بلاد الشام والجزيرة وظهرت الدعوة العباسية فى المشرق ، لذلك شغلت الدولة الأهوية عن هذا القطر البعيد ، وأثرت هزائم المسلمين فى فرنسا على الروح المعنوية لعرب الاندلس . ونبه أئام الاوربيى الى خطر المسلمين فى أسبانيا ، ولهذا طارد شارل مارتل العرب الى حدود سببتمانيا ، وانتزع منهم إقليم بروغانس ، ولم يلبث أن استرد الفرنجة سببتمانيا بل أنشأ تارلمان نغرا فى أسفل جبال انبرتات على ساحلى البحر المتوسط ، وبذلك لم يعد للعرب أملاك فيما وراء البرتات ، ولقد حاول العرب الغزو من نواحي أخرى فهاجموا السواحل الجنوبية لفرنسا وحرقوا سويسرا غير أن هذه الاعمال لم تتخذ صفة الفتح المستقر . بل كانت عمليات تتسم بطابع الغارات السريعة .

الفتن والحروب الداخلية في المغرب والاتحاش

انتشرت في بلاد المغرب أفكار الفوارج ، وعارضوا الحكم الاموي ، ورأوا أن الخلافة يجب أن تكون بالانتخاب الحر المباشر لأى مسلم حر فلما ولى عبد الله بن الصحاب — أفريقية كلنت القبائل البربرية تضطرب بمواهل الثورة ولا سيما في المغرب الأقصى ، فسير عبد الله الى مواطن الثورة في بلاد المغرب جيشا بقيادة حبيب بن أبى عبيدة الفهري ، وأعاد البلاد الى الهدوء والسكينة ، وعين ابن الصحاب ابنه اسماعيل ونيا على المغرب الأقصى ، ولكن البربر عارضوا حكمه ، وثاروا عليه ، والتفوا حول داعية من الفوارج الصفرية ، يسمى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، ودعوا لميسرة بالخلافة على مبادئ الفوارج ، ثم زحفوا الى السويس ، وقتلوا الولي اسماعيل بن عبيد الله ، وعلى أثر انتصارات الفوارج داعت دعوتهم بين البربر ، ولاقت نجاحا كبيرا ، وضعف سلطان العرب في بلاد المغرب ، واضطر ابن الصحاب الى اخضاع انبربر ، فسير اليهم جيشا كبيرا ، الحق به انبربر عدة هزائم قرب طنجة ، وسميت هذه المعركة بموقعة الاشراف لكثرة من قتل فيها من قادة العرب سنة ١٢٣ هـ .

ذعر هشام بن عبد الملك من هزيمة العرب أمام البربر ، ومن ثوة البربر على الحكم الاموي ، فأرسل جيشا الى بلاد المغرب بقيادة كلثوم ابن عياض القنصري على رأس جيش ضخم من عرب الشام سنة ١٢٣ هـ ، واجتمعت اليه اثناء مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس وكان يساعد كلثوم ابن اخيه بلج وتوجس عرب أفريقية خيفة من جند الشام بقيادة كلثوم غير أنهم انضموا بعد عدة منازعات الى جيش كلثوم ودخل العرب في معارك ضارية أواخر سنة ١٢٣ هـ مع البربر قرب طنجة ، هزموا فيها شر هزيمة ، ومزقوا شر ممزق ، وقتل كلثوم وكثير من ضباط الجيش وجنوده .

ومن نتيجة هذه المعركة خروج المغرب الأقصى من قبضة بنى أمية وانتشار دعوه الخوارج في المغرب الاوسط .

وتراجعت فلول الجيش الشامي بقيادة بلج بن بشر القنصيري وتحصنوا بئر سبتة ، وكان عددهم حوالي تسعة آلاف فارس معظمهم من الشام مع قلة من جند مصر . وهناك فرض عليهم البربر حصارا شديدا حتى كاد يهلكهم جوعا ، وينكل بهم . لكن ظروف الأندلس أنقذت بلج وجنوده ، ذلك أن أخبار ثورات البربر في الغرب ، انتقلت الى الأندلس فثار في الأندلس ضد واليهم عبد الملك بن قطن الفهري ، فلم ير من منقذ له من هذه الثورة العارمة ، سوى بشر بن بلج المحاصر في سبتة ، وتناسج الخلافات بين المفسرية ، وعرب الشام اليمينية ، وتحالف معه ، وأشرط أن يفك الحصار ويسمح له بالذهاب هو وقواته الى الأندلس لانقاذهم من ثورات البربر التي استطار ترها ، وزاد خطرها ، على أن ينسحب من الإندلس فور القضاء على الثورة .

وكان نوار البربر في ذلك الوقت قد وحدوا صفوفهم في الأندلس وقسموا انفسهم الى ثلاث جيوش .

جيش يهاجم طليطلة ، وجيش ثان يهاجم قرطبة ، والجيش الثالث يتجه جنوبا للقضاء على قوة الشاميين في سبتة ، والاتصال بأخوانهم ببربر المغرب .

عز بلج بن بشر الى الأندلس بعد أن رفع عبد الملك بن قطن الحصار عنه ، وبمعه أن كان محبوبا هو وبرجاله في قصص ، فقد تقسموا لتسييم الحصرية في الأندلس ، وبعد أن استراحوا بعض الوقت من ويلات ما أصابهم في المغرب ، اشتبك بلج مع البربر عند بلدة شخونه ، وبسنت شمل البربر ، وانتصر على فريق البربر في قرطبة ، ثم زحف مع قواته وقوات حليفه والى الأندلس الى طليطلة ، واستبكوا مع جموع البربر الرئيسية في عدة وقائع مزقوا فيها نملهم ، وبذلك انتهت ثورة البربر ، وعادت الأندلس الى الهدوء والسكينة .

وأخذ بلج وأصحابه بعد ذلك ينعمون بجلالة النصر ، ويتمتعون بالخيرية الأمنية الهادئة بعد الحيرمان والنؤس في مدينتيه . ولكن عبد الملك بن قطن الفهرى والى الاندلس - طالب التمامين بالرجوع الى أفريقية تنفيذا للشروط . لكن التمامين رفضوا أن يعودوا الى أفريقية بعد أن بهرتهم خيرات الاندلس ورغض التماميون الانسحاب ، ودار قتال بين عرب الاندلس والتمامين ، قتل فيه الوالى عبد الملك بن قطن ، وولى بلج أم رالاندلس ، وقد أثار هذا الممعل غضب الحجازيين المضريين ، فمقتلوا بلج بن بشر ، وقامت بين الطرفين حروب عنيفة استمرت اكثر من عام حتى سنة ١٢٣ هـ - ٧٤٣ م ولما رأيت الخلافة سوء الحال في الاندلس ، ولت عليها رجلا له مكافئة وله قوة ، ذلك هو الشاعر أبو الخطار بن خراثر الكلبي ، وهو يعنى .

بدأ أبو الخطار ، ولايته بداية طيبة ، فأراد أولا أن يحل مشكله التمامين ، فأنزلهم مقسمين على كور الاندلس بحيث تكون متسابقة الى حد كبير بالامكان التى جاؤا بها من المشرق ، فأنزل أهل جند دمشق كورة البيرة ، وسماها دمشق ، وأنزل أهل جند حمص كورة أنبيليه وسماها حمص ، وأنزل أهل جند قنسرين كورة جيلان في جنوب الاندلس ، وسماها قنسرين ، وأنزل أهل جند الأردن كورة ريه ، وسماها الأردن وأنزل أهل فلسطين شذونه في أقصى الجنوب وسماها فلسطين . أما أهل مصر ، فأنزلهم الجنوب الشرقى من الاندلس في كورة تدمير وسماها مصر . وهذا عمل أدارى حكيم ، كان من الممكن أن يقضى على الفوضى في الاندلس .

واستطاع أبو الخطار أن يعالج الامور بمسياسة من الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل .

استقرت الامور في الاندلس فترة قصيرة بسبب سياسة أبى الخطار ، ولكن عادت الاضطرابات من جديد . والجدير بالذكر أن الولايات الاسلامية في آواخر العهد الاموى قد اضطربت اضطرابا شديدا ، وقامت فيها حروب أهلية متعددة بين القيسية المضرية وبين اليمانية القمصانية ، وحدثت هذه الحروب الاهلية في الاندلس كذلك . وكان الوالى

— كما قلنا — يمنية ، وهو أبو الخطار الكلبي ، أما زعيم المضربة
أو القيسية ، فهو الصميل بن حاتم حفيد شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين
في كربلاء .

وسبب هذه الفتنة بسيط في حد ذاته ، لـذ وقع خلاف بين شخصين
أحدهما — مضري والآخر يعني ، فلجأ الاثنان الى الوالى أبى الصطار ،
الذى حكم لليمنى، فظن المضري أن هذا الحكم تمصص من الوالى لكونه يمنية،
فذهب الصميل — زعيم المضربة — الى أبى الخطار زعيم اليمنى ووالى
الاندلس — ليكلمه ، فوقع نزاع بين الطرفين ، فخرج من المجلس ، وقد
حلت عمامته ، فقال له أحد الحراس على الباب : أصلح عمامتك
أبا الجوشن . رد قائلا : « ان كان لى قوم فسيقيمونها . وهذا تهديد
بالحرب . وقامت الحرب بين الجانبين القيسية واليمنية على ضفاف
الوادي الكبير ، واستمرت سجالا بينهما الى ان تمكنت المضربة من هزيمة
اليمنية في موقعة كبيرة عند بلدة تقنده في جنوب قرطبة . واستطاع
السميل بهذا النصر أن يعزل أبا الخطار من ولاية الأندلس ، وأن يعين
مكانه رجلا محايدا بين عرب الشمال وعرب الجنوب اسمه يوسف الفهرى .
واختار الصميل هذا الرجل لحنكته ومهارته ، ويعده ص التتعب . وكانت
شخصيته مرغوبة من الطرفين المتنازعين ، مقبولة بينهم ، وحكم الفهرى
بعشورة الصميل .

نصف الدولة الأموية وتدهورها

اضطربت الأمور في الدولة الأموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ ، وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذي قضى معظم أيام خلافته في البادية ، وبقي في الخلافة سنة وشهرين ، ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هجرية وخلفه يزيد بن الوليد الذي توفي بعد خمسة أشهر ، وبويع أخوه إبراهيم ، وفي عهده ازدادت الدولة الأموية اضطرابا بسبب الصراعات المستمرة بين القيسية واليمينية ، ونورات الفوارج ، وانتشار اندعوة العباسية في إقليم خراسان ، والانقسام بين أفراد البيت الحاكم ، وتجلي الاضطراب في البيت الأموي ، فلم يكن هناك إجماع على توليه إبراهيم فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة ، وناس لا يسلمون عليه بوحدة منها ، وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان ابن محمد .

ولما آلت الخلافة الى مروان بن محمد تعصب للقيسية ، وطالب اليمينية بدم الوليد بن يزيد ، فثار عليه يزيد بن خالد القسري بدمشق ، وانضمت اليه اليمينية ، فأرسل مروان الى دمشق جيشا أحمد النورة ، وخلصت له دمشق ، كما قضى على ثورات أخرى ، قام بها اليمينية في بلاد الشام .

ولم يكن يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها الى خلعه وانضمت اليه اليمينية ، فسار اليه مروان ، وأوقع به العزيمة وظل مروان يفضح الثورات ، منتقلا من بلد الى بلد ، حتى فوجيء بقيام الدولة العباسية في الكوفة سنة ١٣٣ هـ ، وهزم في موقعة الزاب ، وقتل .

اقترن قيام الدولة العباسية بمذابح مروعة ، ذهب ضحيتها أفراد البيت الأموي ، بل نبشت قبور الخلفاء الأمويين ومثل بجثثهم . ولم ينح من بطش بني أمية الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذي كتب له التجاة من بطش بني العباس ، كما كتب له ، اقامة الدولة الأموية في الاندلس ، أعاد فيها مجد آبائه وأجداده .

الامارة الأموية في الأندلس

عبد الرحمن الداخل (١٢٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٧٨ م)

انتشرت الفوضى في الأندلس في أواخر عصر الولاة ، وعانت البلاد في فتن وحروب ، وعم القحط وعظم البلاء ، وأشتد البؤس والتسقاء ، وازداد الأمر حرجا في الوقت الذي تدهورت فيه الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، وكانت دولة انشلاخ منصرفه تماما عما يحدث في الأندلس ، وإذا أجمع الأندلسيون على أمير يحكمهم ، يفضل في حكم البلاد التي مزقتها العصابات ، وفرقتها ، وشجعت هذه الفوضى الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الاطراف النائية ، وشن الغارات المتتالية ، وظل الأمر كذلك ، حتى ولي أمر الأندلس رجل قوى هازم ، هو يوسف ابن عبد الرحمن الغفري ، وتولى برأى للجماعة ، دون مصادقة من دولة الخلافة التي كانت مشغولة عما يجري في الأندلس ، واستطاع الغفري أن يقهر منافسيه ، ووطد أقدامه في البلاد محاولا الاستغلال بها نهائيا عن دولة الخلافة .

نعود الى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فقد نشأ في قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ، ونما وترعرع في بيت جده ، وصلطت الفتوة الأموية وهو في ريمان شبابه الغض في حوالى العشرين من عمره ، وفر هو وأهله ناحية الفرات فرارا من ملاحقة بنى العباس ، ولكن اكتشف أمره ، ففر الى فلسطين ثم مصر ، ولحق به مولا به فر وطالم ، وفي برقة ألجأ الى أخواله من بنى نفزه أخواله ، وأقام وقتا طويلا ، ولكن أمره عرف ، ففر هو وصاحبيه الى المغرب الأقصى ، وأقام بها متخفيا عند شيخ من شيوخ البربر ، ولقى في هذه البلاد الكثير من المحن والشدائد . وفي هذه البلاد علم بأخبار الأندلس وما آل إليه أمر البلاد من اضطراب .

وفي أواخر سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م تطلع الى استغلال الفوضى في الأندلس ، والعمل على استرداد ملك بنى أمية السليب ، وانتهاز فرصة

الخلافة الشديدة بين القيسية واليمينية وأرسل مولاة بدر ، لنشر الدعوة لبنى أمية بين أهل الشام وأنصار هذا البيت . وكانت رئاسه الأمويين لزعيمين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد ، واتفق بدر معهما على بث الدعوة بين اليمينية ، للذين كانوا يتمنون الخلاص من الفهرى ، ونشط أبو عثمان وحليفه فى نشر الدعوة فى البيرة خصوصا بين اليمينية ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، ولما أيقن بكثره أنصار بنى أمية ، أرسل الى عبد الرحمن الأموى يطلب منه القدوم الى الأندلس ، فقدم عبد الرحمن للى طرش ، وهى قرية تقع غربى المكنب على مقربة من البحر ، واستقر بها ينظم دعوته ، ويدير خطه .

كان والى الأندلس ، يوسف بن عبد الرحمن يميدا عن قرطبه ، ممسكة بالقرب من سرقسطه لقهر الثورة هناك ، ولكنه أضطر الى الاسراع الى قرطبه مع نائبه الصميل ، لاحتباط دعوة عبد الرحمن ، والقضاء عليها فى مهدها ، وأراد يوسف معالجة الأزمة سلما ، فأرسل الى عبد الرحمن بطلب منه ، الكف عن دعوته فى مقابل مال كبير أو مصاهرة ، أو منحه ولاية من الولايات ، ولكن عبد الرحمن الذى دانت له جنوب الأندلس بالطاعة والولاء رفض كل العروض . وأبى الا أن يستحوذ على ملك الأندلس برمته .

ولما قوى أمر عبد الرحمن الأموى سار من طرش فى صحبة أنصاره الورىة ، فبسايمه أهلها ، ثم الى نخشونه ، فدخلت فى طاعته ، ثم الى أشبيلية ، فبايعه رعيما وأهلها اليمينية وانضم اليه أثناء تجواله كثير من للجدد والأنصار ، وزادت دعوته فى غرب الأندلس كله ، وأقبلت اليه المتطوعة من كل صوب وحلب ، من المضرية واليمينية وأهل الشام . وواصل زحفه حتى أقترب من قرطبه فى أوائل ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .

سار يوسف والصميل الى قرطبة ، وتفرق معظم جنودهما بعد أن أفشاها كثره الحروب ، وأغراها دعوه عبد الرحمن بن معاوية . وهما يكن من أمر فقد عسكر يوسف بجنده القليل فى المسارة فى ظاهر قرطبة . من القرم . على حين عسكر عبد الرحمن على ضفة البحر الجنوبيه ، وفتح

النهر بين الجيشين المتحاربين عدة أيام . ففى يوم الجمعة ، وهو يوم عيد الأضحى ، نشبت معركة حامية ، ودار قتال مرير بين الفريقين ، وهزم جيش يوسف الفهرى شر هزيمة ، وقتل فى هذه الواقعة الكثير من وجوه القيسية والفهرية ، وفر يوسف الفهرى والصميل من المعركة ، ودخ على أثرها عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ، وصلى الجمعة فى مسجد الجامع ، وبأيعه الناس بالامارة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م . ومن مصادقات التاريخ أنه فى يوم الأضحى سنة ٦٤ هـ الجمعة ، انتصر مروان بن الحكم — جد عبد الرحمن الأموى — على الضحاك بن قيس الفهرى فى موقف مرج راهط .

وليوم المسارة نتائج بعيدة المدى فى تطور الحياة السياسية الأندلس ، ذلك أن انتصار عبد الرحمن الأموى أنهى عصر الولاة وما اتصف به من قلاقل واضطرابات ، وبدأ عهد حديد فى تاريخ الأندلس ، أطلقه المؤرخون على تسميته عصر الامارة .

السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموى

لم تكن موقعة المسارة الا خطوة على الطريق ، يحاول عبد الرحمن الأموى أو الدخول بعدها بذل الجهود للسيطرة على الأندلس ، التى كانت تضطرم بالثورات ، ويتغلب على كل ناحية أمير أو حاكم مستقل من ذوى العصبيات والنفوذ ، فسيطرت اليمنية على بعض البلاد ، وكذلك المضربة والبربر وانتهم نصارى الشمال — الذين كانوا مستضعفين بالأمس — انتراع بعض الأراضى من الأندلس ، وتقوية نفوذهم فى مملكتهم ، كما أن الفرنج فيما وراء البرانس ، انتزعوا من المسلمين ما تبقى لهم من أرض ، وتحالفوا مع نصارى الشمال الاسبان على انتهاز الفرص لتقوية نفوذهم على حساب نفوذ المسلمين .

قضى عبد الرحمن طوال حكمه الذى امتد فترة تزيد على ٣٣ سنة كلها فى صراعات مع العناصر الطامعة والمغتصبة والثائرة ضد حكمه ، فكان يخضع ثورة ، وينتقل بعدها الى معركة أخرى فلم يهنا بهذا الحكم

العريض طوال سنى حكمه ، بل قصاصا كلها فى توطيد سلطانه ، وقهر
الثوار ، وقمع الفتن .

من الطبيعى أن يكون أقوى خصوم عبد الرحمن الداخل ، يوسف
الفهري ، الذى امتزع منه عبد الرحمن الأندلس ، ففر يوسف عقب
هزيمته الى طليطلة ، وجمع الأنصار حوله ، حتى عظم جمعه ، وسار مع
حليفه الصميل الى البيرة (غرناطة) واجتمع أهل هذه الأنحاء حول
يوسف ، وأعد أئدة لمحاربة عبد الرحمن ، واسترداد ملكه السليب ، لكن
عبد الرحمن ، ترك حاميه فى قرطبة ، وسار الى خصمه فى البيرة ، وهزمه
شر هزيمة ، وأستسلم عبد الرحمن والسميل وعقد الداخل معها صلحا ،
تعهدا فيه بالطاعة والولاء ، والكف عن الحرب والنقتال ، على أن يؤمهما
فى النفس والولد والأهل والأنصار ، وأن يسمح لهما بالاقامة فى قرطبة
تحت رعايته ورقابته ، فوافق عبد الرحمن ، وقدم يوسف ولديه
عبد الرحمن ومحمد رهينة حتى تستقر الامور ، وتم عقد الصلح بين
الفريقين سنة ١٣٩ هـ . وعاش الرجلان يوسف والسميل فى قرطبة ،
وشدد عليهما عبد الرحمن الرقابة والحراسة ، ولكن يوسف الفهري
لم يقبل أن يعيش فى ظل هذا الاعتقال ، ويفقد جاهه وسلطانه ، ففر
سنة ١٤١ هـ الى ماردة وكتب أنصاره فى طليطلة ، حتى عظم جمعه ،
وأستبك مع عبد الرحمن الداخل فى عدة وفائع ، هزم فيها يوسف نمر
هزيمة ، وقتل الكثير من أنصاره ، وفر يوسف الى طليطلة ، وعاش بين
أنصاره فى حرية ، ولكن بعض أنصاره اغتالوه وأرسلوا رأسه الى
عبد الرحمن سنة ١٤٢ هـ

ويبدو أن أصابع عبد الرحمن لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة وانتهت
بذلك حياة يوسف الخافلة بالأحداث الجسام ، وسك الداخل فى نوايا
الابن الأول ليوسف فقتله أيضا . ولم يعد لحبه من أبناء يوسف سوى
محمد ، فانتهر محمد فرسه ضعف الرقابة عليه ، ففر من معتقله بقرطبة
الى محقل الثورة الفهرية فى طليطلة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره جيشا ،
هزمه . وهزم أنصاره ، وسبقه محمد الى قرطبة مهنقلا ، ولكنه أدعى

المعى ، فضغفت الرقبة عليه ، فعاد ثانية الى طليطلة ، وحرك الثورة ضد الداخل ، ولكنه فشل أيضا . وعلى الرغم من الهزائم المتتالية للفهرية ، في معقلهم في طليطلة ، إلا أن الثورة عادت من جديد بزعامة هشام ابن عروة الفهرى ، أعلن الثورة ، واعتصم بالمدينة ، فسار اليه عبد الرحمن . ومازال يشدد عليه الحصار حتى طلب الصلح ، وما كاد عبد الرحمن يعود الى قرطبة ، حتى عاد الفهرية إلى الثورة من جديد في طليطلة . ولكن عبد الرحمن قمع الثورة . وبذلك سحق عبد الرحمن الداخل الثورة الفهرية وكانت الفهرية أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسultanه ، وأكبر عقبة في سبيل استقرار ملكه .

ثورة الفاطمى

ثورة حظيرة سملت عبد الرحمن عدة أعوام ، نشبت في شمال شرق الأندلس بين البربر ، وزعيمها من بربر مكتاسه ، وكان فقيها يعلم الصبيان ، وامتثال نفسه بأفكار البربر التي تدعو الى التخلص من العرب ، ولكي يكتسب أهميته بين رعاياه ، زعم أنه سليل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها ، وأخذ من شنت برية مركزا لمورته ، وكثر جمعه ، وقوى أمره ، بمن انضم اليه من البربر الناقمين على حكم عبد الرحمن ، وانضم اليه أيضا بعض العرب ، وأرسل عبد الرحمن عدة حملات الى شنت برية لقمع الثورة ، ولكن التأثير رد كل هذه الحملات على أعقابها خاسرة ، ونكل بجند عبد الرحمن ، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد الى شنت برية . ولما فشل عبد الرحمن في القضاء على التأثير الفاطمى . لجأ الى الحيلة والخديعة . فحسم اليه زعيما من زعماء البربر بدعى هلال ، وعبد الله بخنم البلاد التي استولى عليها التأثير الفاطمى ، اخذ نجح عبد الرحمن في بث بذور الانقسام بين البربر ، وانضم اليه هلال الكثر من اتباع الفاطمى ، صعب أدر الفاطمى ، وانفص الكثر من الرجال من حوله . واعتصم الفاطمى في الجبال ، وظارده عبد الرحمن ، ومازال عبد الرحمن يضبط على الفاطمى دون جدوى ، حتى نزل الفاطمى بقرية من أعمال شنت برية

تسمى قرة العيوس ، وهناك تأمر عليه اثنان من البربر ، وقتلاه وأرسل
رأسه إلى عبد الرحمن في قرطبة ، ويبدو أن هذه المؤامرة كانت من تدبير
عبد الرحمن ، الذي فشل في قمع الثورة بحملاته المتتالية ، ولكن أثمرت
المؤامرة فيما فنسلت فيه الجيوش . وأنتهت بذلك ثورة البربر التي ألقب
وهددت دولة عبد الرحمن أكثر من عشر سنوات ، وأثارت للعرب والمغزج
في شرق الأندلس وغربه . وهددت أمن الدولة وسلامتها ، وضاعفت من
الفرقة والانقسام بين العرب والبربر .

ثورة عبد الخافر اليماني

رأينا ثورة القيسية الفهرية ، ودرسنا عوامل قيامها وأسباب فشلها ، كما تحدثنا عن ثورة البربر بزعامة الفاطمي ، ونحدث الآن عن ثورة اليمانية بزعامة عبد الخافر ، استولى على ما جاور قرطبة من بلاد ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهتد قرطبة ، فخرج عبد الرحمن لقتاله والتقى للفريقان اليمانية وجند الداخل بوادي قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن أعوان عبد الخافر من البربر ، وظل يقاتل جند عبد الرحمن حتى هزم ، وقتل هو والكثير من أعوانه سنة ١٤٤ هـ

ولم تكن أشبيلية أقل خطرا من طليطلة على دولة عبد الرحمن فقامت فيها عدة اضطرابات من بينها ثورة يمانية ترعها أبو الصباح بن يحيى البحصي ، صديق عبد الرحمن وطيفه ، وكان أبو الصباح زعم اليمانية في أشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس ، وأيد عبد الرحمن ونصره ، وقاتل معه يوم المسار ، ولكن عبد الرحمن شك في نواياه نحوه ، وعزله عن أشبيلية ، فغضب البحصي وأعلن العصيان ، وانضم إليه اليمانية ، ولما رأى عبد الرحمن أن قمع الثورة من الأمور المستعصية ، لجأ إلى الحيلة والخديعة في القضاء على الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إلى البحصي يدعوه إلى المصالحة ، ويستدعيه إلى قرطبة للتفاهم ، ولما قدم البحصي إلى قرطبة ، قتله عبد الرحمن . وبذلك تفرق حممه . وهذات أشبيلية سنة ١٥٠ هـ

ثورات بعض الأمراء الأمويين

ولم يتعرض عبد الرحمن فقط لثورات مطية من الأندلس ، بل ثار بعض أمراء بني أمية ضده ، وطمعوا في الملك ، فدبر ابن أخيه المخزومي الوليد بن معاوية الثورة ضده . ذلك أن عبد الرحمن سعى إلى استعاء أمراء البيت الأموي المستقر في الأرض إلى الأندلس ، وتوالت على الأندلس كثيرون ، وكانوا موضع غلبة عبد الرحمن وتقديره ، وأعشق عليهم ،

وأسند اليهم المناصب الكبيرة ، ولكن بعضهم أنضم الى معارضى عبد الرحمن فنكس بهم ، وقتل المفيرة ابن أخيه الوليد ، خيفها اكتشف مؤامرتة ، ونفى أخاه أنوليد وأسرتة الى المغرب .

سياسة عبد الرحمن الداخل للخارجية

وبينما عبد الرحمن يوطد لنفسه في الأندلس ، ضاربا على أيدي خصومه فيها ، إذ واجه عداء خارجيا قويا يتمثل في العباسيين في المشرق ودولة شارلمان في أوروبا ، ويجرى الأمر على هيئة مؤامرة دولية واسعة صد عبد الرحمن ، ويشترك في هذه المؤامرة الدولية الواسعة النطاق ، أكبر ملكين في ذلك الوقت ، وهما أبو جعفر المنصور ، لما له من قوة وفكر ، وشارلمان ملك الفرنجة ، ونه ما له من سياسة وبطش ، ويتآمر الملكان على التخلص من عبد الرحمن .

مفهوم المسلمين في ذلك الوقت أن عالم الاسلام يضمه دولة واحدة ، وأن المسلمين يخضعون للخليفة أشرعى سواء في دمشق أو بغداد . فلما أسنولى عبد الرحمن على الأندلس ، عى الرغم من أنه أموى ومن بيت الخلافة السابق ، الا أنه لا يستطيع أن يعلن نفسه خليفة ، لأن الخليفة في الحقيقة في بغداد ، وهو صاحب الحق الشرعى في كل ولايات العالم الاسلامى ، لذلك بايعه الناس أمرا على الأندلس ، وكانت الدعوة على المنابر تقام له باسم ابن الخلفاء ، وفي بعض ولايات الأندلس كانت الدعوة تقام باسم الخليفة العباسى دون أن يعترض عبد الرحمن ، لان هذا وضعاً شرعياً كما قلنا .

بدأ الصراع بين أبى جعفر المنصور وعبد الرحمن الداخل ، مملا في حملة العلاء بن مغيث سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م ، وكان العلاء والبا عام أفريقية من قبل المنصور ، فأراد أن يقضى على ، عبد الرحمن ، وأن يجعل الأندلس ولاية عباسية ، كما كانت من قبل تخضع لولاة الأمويين في القردوان .

- واستغل العلاء فرصة معارضة القيسية واليعنية لحكم عبد الرحمن الداخل ، ووجد أن الوقت مناسب للتخلص من الأمويين في المغرب ، ٥
تخلص العباسيون من الأمويين في المشرق ، وانتهر فرصة ثورة فهرية ،
مليطة ، تشغل عبد الرحمن عن الثورة العباسية الزاحفة الى الأندلس
ومهما يكن من أمر ، فقد عبر العلاء الى الأندلس في سبعة آلاف مقاتل
ونزل بلقليم بأجرة ورفع العلم الأسود - شعار العباسيين - داعياً لـ
جعفر المنصور ، ورحب بمقدمه العرب الناقمون على عبد الرحمن
ولكن عبد الرحمن هزمه وقتله وأرسل رأسه الى المنصور -
رأى المنصور رأس العلاء ، انزعج وقال « الحمد لله الذي جعل بيننا وبين
هذا الشيطان براء وسماه صقر قريش » .

وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يتخلص من محاولة ضم الأندلس
الى الدولة العباسية ، واحتفظ بملكه البعيد عن هذه الدولة ، وأثبت للحد
العباسية أن في مقدوره الاستقلال بالأندلس ، والتصدى لمؤامرات
العباسيين التي تستهدف القضاء على دولته الفتية الناشئة . كما توقفت
منذ ذلك التاريخ محاولات العباسيين العسكري للنيل من الامارة الأموية
في الأندلس .

على أن العباسيين لم يكفوا عن تحقيق غرضهم الرامي الى التخلع
من الامارة الأموية ، فلبأوا الى سياسة جديدة غير العنف وشن الحروب
هي سياسة اثارة بعض الناقمين على عبد الرحمن ، والاستعانة بدو
الفرنجة التي تتمتع بالخلاص من الامارة الأموية ، وحاول ملك الفرنج
وامير اطور الغرب شارلمان أو شارل العظيم أن يؤمن حدود بلاده الجنوبية
في أسبانيا ، وتحقيق مشروعه الذي كان يسعى الى تنفيذه ، وهو احيد
الامبراطورية الغربية . ويلاحظ أن تقارب الدولة العباسية من الدوا
الكارلونجية الافرنجية ، واشتراكهما في هذه المؤامرة مما يرجع الم
عدائهما المشترك ضد الدولة الاموية في اسبانيا ، وجهة ، وضد الدولة
البيزنطية المتأخمة للعباسيين من جهة أخرى .

٢ - موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل

وقعت حواشي هامّة في شمال الأندلس سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م عقد ثار سليمان بن يقظان الكلبي (الأعرابي) والى برشلونه وجيرونة ، والحسين بن يحيى الأنصاري - والى سرقسطة - وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلمه ، وقوى أمر هذه الثورة ، طبيعة الشمال الجبلية وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الداخل ، لم يستطع قمع هذه الثورة ، إلا أن التأثيرين ، اعتزما الاستعانة بالفرنجة ، لتأكيد حركتهما الاستقلالية ، وللوقوف الى جانبيهما ضد عبد الرحمن وهكذا فقد خان هذان الزعيمان وطنهما بالالتجاء الى شارلمان ، الذي هو عدو للإسلام والمسلمين في الأندلس ، ويطمح في التخلص من الدولة الإسلامية في هذا القطر النائي البعيد .

ومهما يكن من أمره ، فقد سار سليمان ، وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابي ، مع نفر من أنصاره للقاء شارلمان سنة (٧٧٧ م / ١٦٠ هـ) في مدينة بادربون - من أعمال وستفاليا بألمانيا - واستقبل شارلمان سليمان وصحبه ، وعرضوا عليه المحالفة ، وطلبوا منه أن يسانداهم في التخلص من عبد الرحمن الأموي ، وطلبوا منه غزو الولايات الشمالية لإفريقية ، وعرضوا عليه تسليمه المدن التي يحكمها ابن الأعرابي نيابة عن أمير قرطبة ، ولا سيما سرقسطة .

وكان من الطبيعي أن يوافق شارلمان على طلب ابن الأعرابي الذي يطمح مع سياسته الرامية الى التخلص من أمير قرطبة ، وتأمين حدود بلاده من خطر المسلمين في الأندلس . وبذلك وضع المسلمون ميّداً جديداً في الأندلس ، وهو مبدأ الاستعانة بالفرنجة كلما عارضوا بلاط قرطبة ، الأمر الذي فتح الباب أمام الفرنجة للتدخل في أمور الأندلس ، وتقوية أمر نصارى الشمال ، وكل هذا أدى في النهاية الى انهيار دولة الإسلام في الأندلس .

ولم يكن ثوار الأندلس في الشمال ، هم وحدهم الذين حرصوا
 شارلمان ، بل ينسب إلى الخلافة العباسية في المشرق تأييد هذه السياسة
 في المغرب ، لناواة بني أمية ، وللتفليس منهم . والرواية الأفرنجية تحدثنا
 عن علاقات سياسية بين المنصور وبينين ، وتقول لنا أن بينين ، بحث في سنة
 ٧٩٥ م سفارة أبي بغداد ، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج
 وفعلوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا عدة سنوات في البلاط
 الأفرنجي في مدينة متر . وكانت دولة الفرنجة قد قوى أمرها ، أما ذوو
 الاسلام في الأندلس — فكما يقولون — مزقتها الخلافات والفتن ، ومهـ
 شارلمان على رأس جيش كبير ، مما يدل على أن هدفه لم يكن مساندة الثقيـ
 في الشمال فقط ، وإنما كان يهدف إلى السيطرة الكلية على امارة قرطبة .

وسار شارلمان إلى الأندلس متظاهرا بدافع ديني ، وهو احـ
 الأندلس إلى النصرانية ، وحماية النصاري في الشمال والمستعربين
 داخل الأندلس وكان هدف هذه الحملة سياسيا ، وه وتمقيق أطما
 شارلمان في السيطرة على أسبانيا .

ولما اقترب شارلمان من الأندلس ، قسم جيشه قسمان عبر أهـ
 جهال البرانس من الناحية الشرقية ، وجها القسم الثاني بقيادة شارلمان
 من الناحية الغربية على أن يجتمع الجيشان أمام سرقسطة ، حيث يلتقـ
 شارلمان بطلقاته المسلمين ، وفتح شارلمان في طريقه بنبلونه عاممة قـ
 البشكنس ، وأخضع هذه القبائل ، وقدم شارلمان إلى سرقسطة ومـ
 ابن الأعرابي ، وأنضم الجيش الآخر إلى عسكر شارلمان أمام سرقسطة
 طبقاً للخطة الموضوعة ، وانتظر شارلمان مقدم المسلمين أنيه لتضييـ
 فتح المدن ، ولكن الظروف قد تضررت وتهدلت ، فذهب الخلاف بين زعمـ
 المسلمين ، فبدلاً من أن يرحب الحسين بن يحيى الانتصاري — والمـ
 سرقسطة — وطيف ابن الأعرابي بالملك تارلمان ، لم يسلم سرقسطة المـ
 شارلمان ، ولكنه أغلقها ، وتمصن بها . وأثبت بذلك فشل التحالف القائم
 بينه وبين ابن الأعرابي . وتعليل ذلك ليس صعباً فربما أن الانتصاري ختمـ
 من مقبة ائتخالف مع الفرنجة وضباع البلاد ، وربما استيقظ ضميره مـ

عدداً للضلع الجسيم الذى وقع فيه ، ويحاول شارلمان عبثاً الاستيلاء على سرقسطه ، وعجز ابن الأعرابي أن يحقق شيئاً من وعده فى تسليم م المدن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، وخشى ملك الفرنج مغبة انخراطه فى تلك المجاهل ، وأرتاب فى نية سليمان (ابن الأعرابي) وموقفه ، فارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى فى طريق العودة (١٦١ هـ / ٧٧٨ م) .

يختلف المؤرخون حول أسباب انسحاب شارلمان من منطقة سرقسطه عائداً الى بلاده ، ويرى البعض أنه انسحب بعد أن أيقن أنه اختفى بلاداً تسعها أعداء له ولجنده ، وربما يؤدى ذلك الى فناء جيشه ، خصوصاً أنه أبتعد عن بلاده ، وانقطع خط امداداته ، فأيقن أنه لا مماناة هالك . ويرى البعض أن السكسون المارقين ، عادوا الى الثورة من جديد ، بعد أن أبتعد شارلمان عنهم ، وخربوا وأهرقوا الأرض حتى ضللت الرين ، فسرر شارلمان الانسحاب ، ويمكن التوفيق بين الروايتين أى أن انسحاب شارلمان المفاجئ من سرقسطه إنما تم بسبب تضاؤله من القوى الإسلامية فى أسبانيا ، وثورة السكسون .

أرتد شارلمان وفى ركبته سليمان بن يقطان أسيراً ، ومعه عدد من الرهائن ، وسار شمالاً نحو بلاد البشكنس وكان الناقاريون فى تلك الأثناء قد جمعوا لحولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونه ، ومن حياتهم الميسوبة . وأنضم اليهم كثيراً من المسلمين من البلاد المجاورة . ولكن هذه المجموعة تعرضت لهجمات شارلمان العنيفة ، وهزمها وشتت شملها ، واسترد شارلمان بنبلونه ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود الى عرقلة جيشه أثناء انسحابه الى فرنسا .

غادر شارلمان بنبلونه متجهاً الى جبال البرتات عن طريق مضارب رونسفال المؤدية الى باب السزرى وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل لاختراق البرتات وما كاد الجيش الفرنجى يعبر الجبال حتى هاجمته المسلمون بقيادة عيشون ومطروح ولدى سليمان بن يقطان - ، وخلفا أباها من الأسر ، وعادا الى سرقسطه ، بعد أن شحدا الهجوم على مؤخرة

جيش شارلمان ، وفجأة مؤخرة الجيش عن مقعته . هذا ما تذكره الرواية العربية - أما الرواية اللاتينية فتقول ان البشكنس تزعسوا بجيش شارلمان ، عند هذه المرات ، واجهوه بشدة وضراوة . ولكن الاستاذ بيدال يؤكد أن البشكنس وحدهم لا يستطيعون تحريك جيش شارلمان والمواقع أن تحصالما قد أنعقد بين العرب الذين أرادوا تخليص أسيرهم وبين البشكنس الذين اعترضوا الانتقام من شارلمان انذى الحق الخراب والدمار بمدينةتهم والرواية الفرنجية تحدد تاريخ هذه الواقعة (٧٧٨ م / ١٦١ هـ) ويؤكد مؤرخ شارلمان لجنهارت الذى شاهد المعركة أنه هلك فيها الكثير من الأمراء والسادة والرؤساء ورجال القصر والحاشية ، ورولان ، بطل الأنشودة الشهيرة ، التى نظمت فيما بعد عن هذه الواقعة ، وأستحدثت من أنشيد معاصرة لها ، وانتهى لازالت أثرا خالدا لشهيد الفروسية في المعصور الوسطى .

وتذكر المصادر الفرنسية أن هذه الحارة ، قد أبادت مؤخرة جيش شارلمان وقتلت قائدها الفرنسى رولان الذى كان من المقربين لشارلمان ، وقد ظهرت بعد هذه الحادثة بمدة طويلة تقرب من ثلاثة قرون ، ملحمة فرنسية تشيد ببطولة هذا الفارس الفرنسى ، وتقلنية في الدفاع عن وطنه وجيشه وقائده ، وكيف أنه رفض أن يفلخ في البوق حتى لا يموه لشارلمان لانقاذهم ، يهجم في الكمين ، وكيف أن عشيقة التى كانت تنتظر عودته الى فرنسا بشغفه شديد ، ماتت كعدا حزنا على مقتله ويجبر الفرنسيون أنشودة رولان بداية الأدب الفرنسى ، على الرغم من أنها تقسم بالطابع الأسطورى .

عاد شارلمان الى بلاده يجر أنيال الفشل والخيبة بعد أن فقد رهرة الجيش الفرنسى ، وأسترد عبد الرحمن الداخل سرقسطه سنة ١٦٤ هـ ، ووطد أقدامه في هذه أنواحي وأثبتت هذه المعركة أن الامارة الأموية بقيادة عبد الرحمن الداخل قوية ، تستطيع التصدى للمؤامرات الداخلية والخارجية ، ففشلت الخلافة العباسية في أسترداد الأندلس ، وفشل شارلمان في الاستيلاء على هذه البلاد وفشل المتواطئون الخونة الذين

لم يتورعوا عن الاستطاعة بالنحو لتخليصهم من حكم عبد الرحمن الداخل .
وفي عهد عبد الرحمن لم نعد نسمع عن محاولات خارجية أخرى للاستيلاء
على الأندلس .

وكان عبد الرحمن رجلا يعرف قدر أن رجاله ، فلما التقى بشار بن
رواحده — كما يقول ابن حبان — تام الرجولة صلب المكسر ، أوجى إليه
دهاؤه أن يتودد إليه ، مع ما كان له عليه من الفوز والانتصار ، فدعاه إلى
عقد معاهدة يأمن بها كل منهما جانب صاحبه ، وزاد في تودده ، فعرض
أن يصاهر شارلمان تدعيما للرابطة بينهما ، فلم يسمع شارلمان إلا أن يبعد عن
نفسه ذلك الحلم الامبراطوري فيما يحتض بالأندلس فأجابه إلى السلم ،
وأن لم تتم المعاهدة .

حاضرة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل

بعد الفتح العربي اختلط العرب والبربر المسلمون بسكان البلاد
الأفريقيين من القوط والأسبان واليهود ، وامتزجوا فيما بينهم ، ونشأت
طبقة جديدة — المولدين — من تزاوج العرب والبربر بالاسبان . أما أهل
اسبانيا الذين تعلموا اللغة العربية ، فسموا بالمستعربين ، وكانت الثقافة
الإسلامية في الوطن الأم — الوطن الإسلامي — تتوالد على الأندلس مع
المهاجرين الجدد ، وحدث امتزاج بين طبقات أهل الأندلس ، وضيوع انتقال
الإسلامية بين هذه الطبقات الأمر الذي كان له أثره في حضارة أوروبا
عموما . ويلاحظ أن التأثير الإسلامي في الأندلس كان واضحا في عصر
الولاء ، لأنه وفد عليها مع الجند والمهاجرين من الشام حتى أن الحياة
الأدبية كانت مدى لحياة الشام الأدبية ، فالشعر الأندلسي في هذه الفترة
كان شعرا كلاسيكيا يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجبريل وكان الأمير
عبد الرحمن شاعرا ، مثل أمراء بني أمية السابقين ، وله شعر فيه حنين إلى
وطنه الأول الشام .

أيها الراكب الميمم أرى أقر من بعضي السلام لبعضي

ال جسمى كما. علقت يارض
وعقودى وبالكسبة يارض
تلا قفى الله بالفراق علينا
فصنى باجتماعنا سوف يقضى.

عنى الداخلى بقرطبة — حاصرة المسلمين فى الأندلس — وحصنها
وزينها بالمشآت نلغضه والرياض اليناعة ، وأول أنشائه منية الرصافة ،
وقصرها المنيف وكان قصر الامارة قد تقادم به الزمن وولت أيامه ، فأنشأ
عبد الرحمن ضاحية ملوكية فى شمال غربى قرطبة ، بها قصر متيف ، جلب
له مختلف البهور والغروس من الشام وأفريقية ، وسكنها
الرصافة ، كما فعل جده هشام بن عبد الملك من قبل ، الذى نقل مقر أمارته
الى ضاحية جديدة سماها الرصافة فى الشمال الشرقى من الشام ، وجبر
الماء الى هذه الجنة الضاء وغرس بها نخلة أتى بها من الشام ، وقد جذبت
هذه النخلة مناجر عبد الرحمن فقال فيها .

تهبت لنا وسط الرصافة نخلة
فمذلك فى الاتضاء والنتاى مثلى

والرصافة من الرصف أى المدينة الجانبية مثل رصافة بغداد ، وهى
بغداد الشرقية . على كل حال ورث عبد الرحمن عن أجداده فى الشرق
اتخاذ قصور فى الضواحي والصحارى بعيدا عن صفى المدن والامتعام
بالمشآت المعمارية وسار خلفاؤه على هذا الأسلوب .

كذلك أعاد عبد الرحمن الداخلى بناء جامع قرطبة سنة
١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، وتأثر فى بنائه بمسجد دمشق . كما أنشأ مساجد فى
مدن أخرى فى الأندلس . وقد أنفق عبد الرحمن أموالا كثيرة فى تشييده
جده المساجد ، لكنه توفى قبل اتمام بناء جامع قرطبة ، فأتته خلفاؤه
من بعده ووسعوه وجددوه ، وزادوا فى زخرفته حتى أصبح قبلة المسلمين
فى الغرب ، وقال بعض المؤرخين : ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه .
ولا أعجب بناء ، ولا أكثر صنعة .

وعنى عبد الرحمن بأعداد جيش قوى من الموالي والبربر والرقائق
واتخذ قواعد بحرية لبناء السفن فى عدة موانئ بالأندلس ، وحصن مدينة
قرطبة ، واتخذ لها سور قرطبة الكبير .

ونفتم هنا عهد عبد الرحمن ، ونقول انه قضى أكثر من ثلاثين سنة ،
فى حروب مستمرة مع أعدائه فى الداخل والخارج ، يظهر خصما ، ليصارح
خصما آخر ، وتطلب على كل هذه العقبات التى أعترضت حكمه . وبذلك
أسس الدولة الأموية فى الأندلس ، ووضع القواعد والأسس التى أمتعت
ثلاثة قرون .

هشام بن عبد الرحمن

(١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٩ - ٧٩٦ م)

ترك عبد الرحمن أكثر من عشرة أبناء تخص بالذكر منهم ، سليمان وهشام وعبد الله ، أما سليمان فقد ولد في الشام ، وكان يحكم طليطلة في ولاية أبيه ، ويحظى بمحبة أهل الشام وعبد الله ، وكان يحكم بلنسية وكان سليمان أكبر أبناء عبد الرحمن ، الا أن عبد الرحمن كان يفضل ابنه هشام — حاكم ماردة — وأمه أم ولد تسمى حلل و حلال وعرف عن هشام الورع والتقوى والتواضع وحب الخير لم يعرف عنه كما يقول ابن حبان : هفوة في حدادته ولا زلة في أيام صباه .

سار عبد الرحمن سيرة آبائه الأمويين بتوريث الحكم أبنائهم ، وترك قبل وفاته وصية غامضة لابنه الثالث عبد الله ، يوصيه فيها بتسليم الحكم لمن يدخل العاصمة قرطبة أولا من الأخوين ، سليمان وهشام ، فقال : فإن سبق إليك هشام فارم اليه الخاتم ، فله فضل دينه ، واجتماع الكلمة عليه ، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنه وتجدته وحب الشاميين له .

ووصل هشام الى العاصمة قرطبة قبل أخيه سليمان ، وولى الخلافة . ولكن سليمان لم يعترف به ، ودعا لنفسه في طليطلة وما جاورها ، وانضم اليه أخوه عبد الله ، ولحق به في طليطلة ، وأعلن الاخوان الثورة ، وانضم اليهما الكثير من أهل الشام ، وهلجهم سليمان قرطبة ، ولكن الجند ، ردوه على أعقابهم ، فذهب الى ما رده ، ومنها الى بلنسية ، وعاث في البلاد نهباً وفسادا ، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل ، فلجأ عبد الله الى قرطبة وطلب من أخيه هشام المعفو والتصفيح ، ففعا عن أخويه سليمان وعبد الله على أن يعبر كل منهما بأهله وولده إلى المغرب وأقالما بحدوة المغرب . وأنتهت بذلك ثورة الاخوين (١٧٤ هـ / ٧٩٠ م) .

استطاع هشام بن عبد الرحمن التصدي لكل المحاولات التي

استجذفت للنيل من ملكه ، ودخل في حروب عديدة مع معارضية ، فبعد أن قضى على ثورة أخويه — كما قدمنا — أخضع نورتين يمينتين قامتا في نواحي سرقسطة وبرسلونه ، الأولى كانت بقيادة سعيد بن الحصين بن يحيى الأنصاري والثانية بقيادة مطروح بن سليمان بن يقظان (ابن الأبرامى) وسبق القول أنه هاجم مؤخرة جيش نسرلمان أثناء انسحابه الى فرنسا . الأولى قضى عليها المضرة ، ودعوا لهشام ، والثانية قضى عليها عبيد الله ابن عثمان — قائد الأمير هشام — بعد أن استولى على طرطوشه ، وهاصر سرقسطة ، وفيها مطروح وصحبه ، وظل يواصل الحصار حتى استسلمت سرقسطة ، وقتل مطروح سنة ١٧٥ هـ . وبذلك فستلت الثورة في تلك الأجزاء . كما جرد هشام عدة حملات على جموع البربر الثائرة في رنده أو تاكرنا سنة ١٧٨ هـ ، وشتت جموعهم ، وأرغمهم على الطاعة والولاء .

الموقف من نصارى الشمال

بعد أن قهر هشام الفتن الداخلية في دولته ، اعترم تأديب نصارى الشمال للذين لجأوا الى العنف واقتطاع الأراضي والاغارة على ممتلكات الدولة الإسلامية منتهزين فرصة موت عبد الرحمن ، والقتال التي أعقبت وفاته ، وللنصارى جبهتان في اسبانيا تقاوم كل منهما الحكم الاسلامى ، جبهة شرقية وهى منطقة القلاع ، التي صارت فشتالة فيما بعد ، وجبهة غربية وهى منطقة جليقية ، وشجع النصارى في الجبهتين الفرنجة والبشكس ، فأرسل هشام الجيوش التي اخترقت قلاع فشتاله وأغوار جليقية ، وهزم عبد الله بن عثمان برمند — ملك جليقية — سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م ، واصل المسلمون غاراتهم على جليقية حتى تنازل الملك عن عرشه لولده الفونسو الثانى .

ولم يكتف هشام بذلك بل سمر سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م حملة أخرى الى جليقة بقيادة عبد الكريم بن الواحد بن مغيث فلخترق المسلمون معاوير جليقية ، غفر السبكان الى روروس الجبال ، ودارت رحى معركة رهية بين ملك جليقية والقائد المسلم ، انتهت بمزيمة الجلائقة ،

وغنم المسلمون منافع كثيرة . وبذلك عادت الولايات الشمالية الى الهدوء والطاعة :

وأراد هشام إعادة عهد الجهاد فيما وراء انهرتات ، فأرسل حملات صيفية على ولاية سبتمانيا الفرنجية في جنوب فرنسا وغنم منها معانم كثيرة ، مكتته من بناء عدة مساجد على شاطئ الوادي الكبير ، ونوسيع نطلق مسجد قرطبة للذي أسسه والده ، كذلك أعاد بناء الجسر القديم الممتد على الوادي الكبير ، والذي يربط العاصمة بأراضيها الجنوبية ، وصار يعرف بجسر قرطبة .

وقد كتب المؤرخ الفرنسي رينو يقول أن مسلما أراد أن يواجه المسلمين الى الجهاد ، بدلا من أن يحارب بعضهم بعضا ، ويجمع شملهم يشرف الجهاد ، ويشغل المسلمين عن إثارة القلاقل والاضطرابات ، وأراد في نفس الوقت أن يثبت لنصارى الشمال قوة المسلمين ، وتدة بأسهم ، وأن يموض ما ضاع من المسلمين من أرض نتيجة لغزوات بيبين وشارلمان ، وأصدر هشام منشورا قرىء في الجوامع يدعو الناس الى الجهاد بالنفس أو بالمال ، ولقيت دعوته قبولا وحامسا من الأهلين ، فنفروا الى قرطبة خفافا وتقالا من كل فج عميق حتى تجمع لديه مائة ألف مقاتل ، وأموال جمه ، فسير الحملات الى الشمال وإلى جنوب فرنسا ، كما سبق القول .

مذهب مالك في الأندلس

من المعروف أن المذاهب الفقهية الرئيسية ، هي المالكي ، والحنفي والشافعي والحنبلي . وانتشرت هذه المذاهب في البلاد الإسلامية ، كل فيما يناسبه من مذهب ، وقد أنتشر المذهب الحنفي في العراق ، لأنه عراقي ، ولم ينتشر في الأندلس لأنه مذهب الدولة العباسية المداينية ، ولأن مالك نفسه كان يعارض سياسة العباسيين ونقل عن الإمام مالك ارتيابه الى سياسة هشام وورعه وتقواه . وتطبيق أحكام الاسلام بأمانة ودقة ، وكان الفاتحون العرب والمهاجرون اليها من العرب أهل من

أهل الشام أو من أهل الحجاز ، وأهل الشام تأثروا بمذهب الأواعى الذى انتشر فى الأندلس بعد الفتوح ، أما الحجازيون فقد حملوا مذهب مالك معهم الى الأندلس وكان من بينهم فقهاء ، حملوا أفكار هذا المذهب الى أهل الأندلس ، وسافر طلاب علم الى المدينة المنورة ، وتمعنوا على أيدي هذا العالم الجليل ، وعادوا الى الأندلس فقهاء ينشرون هذا المذهب بين الناس ، ومن بين هؤلاء زياد بن عبد الرحمن ، وأخذ عنه يحيى بن يحيى أنليثى الذى رحل الى الحجاز ، ليأخذ عن الشيخ ، وعاد الى الأندلس ليتم ما بدأه أستاذه زياد ، فانتشر المذهب فى الأندلس ثم عبر بلاد المغرب ، وانتشر فيها ، وحل مذهب مالك فى الأندلس محل مذهب الأواعى .

ويتضمن مذهب مالك آراء فقهية فى القضاء والفتيا وفى العبادات والأحوال الشخصية ، فيها الحلول لكثير من مشاكل الدنيا . وهناك سبب آخر يرويه ابن خلدون وهو أن البيئة الأندلسية والمغربية أو طبيعة أهل المغرب والأندلس كانت تشبه الى حد كبير ، طبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة والبعد عن التعميد ، ولهذا فإن عقلية أهل الأندلس والمغرب ، كانت تطلب عليها نزعة أهل الحديث .

ويختلف مذهب مالك عن مذهب أبى حنيفة ، فى أن مذهب مالك يتقيد بنصوص القرآن وبالأحاديث النبوية فى استنباط الأحكام الشرعية والفتوى . ولا يعتمدون على الرأى والقياس الا غلبا ندر . أما مذهب أبى حنيفة فيعتقد على الرأى والقياس الى جانب النصوص . لذلك عرف أنصار مذهب مالك بأهل الحديث . أما أنصار أبى حنيفة فعرفوا بأهل الرأى والقياس . وقد ظهرت فى العراق مشكلات عديدة ومعقدة بسبب تعدد الأجناس وازدهار الحضارة ، وظهور موضوعات جديدة فى حاجة الى الاجتهاد والرأى والقياس .

..سعدت الأندلس فى أيام هشام . أعجب الناس به وبسماسته ، واتفقوا حوله ونصروه ، وشبهوه بأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز فى ورعه وصلاته وتدينه ، وزهده فى الدنيا . والسير على مصالح الرعية . وكان

يرسل عماله الى الكور والاقلايم لتفقد أحوال الحكام والقضاء ، فإذا ثبت ظلم وال أو قتل ، استدعاه ، وغزله وعلقه ، وإذا ثبت للعكس حمد الله على حسن أحوال الرعية . وأمر هشام بتدريس اللغة العربية في معاهد النصارى ، مما أدى الى حفظهم فيه .

ويرجع الفضل في هشام الى أنه كان يطبق الزكاة ، فيجمعها خفيقا للشرح ويوزعها على المحتاجين ، وكان يطوف الأسواق ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر في المظالم بنفسه ، ويזור المرضى ، ويحث الناس على تعمير المساجد حتى امتلأت بالمصلين . لذلك أشاد للأمام مالك بحله وتقواه .

ومادمننا قد تصدقنا كثيرا عن الامام مالك الذي عاصر هشام فيجب أن نشير بإيجاز الى هذا الامام .

مالك بن أنس رجل يمدى من قبيلة ذى أصبح ، عاش بين عامي ٩٤ - ١٨٩ هـ أى أنه أدرك العصرين الأموي والعباسي ، واتخذ المدينة المنورة مقرا له ، وللامام مالك كتب في الحديث اسمه (الموطأ) مرتب حسب الموضوعات ، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث بمعنى أنه ذكر أبواب الفقه المختلفة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات . الخ ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه المواضيع الفقهية .

قد عرف مالك بشخته في تحرى للصحة في الرواية والاسناد ولذا فكتابه من الكتب الصحيحة ، وعرف عنه سعة الطم وكان محدثا بارعا ، وأماما يعرفه للقاضي والداني ، ويسمى الى تلقى الطم منه ، طلاب الحديث من المشرق والمغرب .

الأمير الحكم الريحى

(١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م)

تجنب هشام بن عبد الرحمن المشكلة التى حدثت بعد وفاة أبيه بسبب ولاية العهد ، والتى أشرنا اليها • لذلك عهد الى ابنه الحكم بالحكم من بعده ، وسمى بالريحى لموقف بينه وبين أهل الريح من نواحي قرطبه •

تختلف شخصية الحكم اختلافا واضحا عن شخصية أبيه فبينما كان أبوه يعتمد على الفقهاء فى إدارة شؤون الدولة رفض الحكم هذه السياسة • وأثبتت الأحداث التاريخية أن رجسا الدين لا يمكن الاعتماد عليهم فى الشؤون السياسية وإدارة أمور الدولة ، حتى أن العباسيين كانوا يرغبون تولية أصحاب الطيالس مناصب الوزارة •

نعود الى الحكم وموقفه من رجال الدين ، فقد أبعدهم عن مناصب الدولة ، ورفع عنهم الامتيازات التى منحها لهم هشام فاتهموه بالكفر والخروج على الدين ، وحرصوا عليه فئات الشعب ، وناصبوه العداء ، ووضعوا العراقيل فى سبيل حكمه • ولكنه لم يأبه بمعارضتهم ، بل تصدى لهم بقوة •

الفن والثورات الداخلية

لم يبدأ سليمان وأخوه عبد الله فى المقر الجديد بالمغرب ، فكان سليمان يقيم فى طنجة ، على حين يقيم عبد الله فى المغرب الأوسط ، وكل من الأخوين يترقب الفرصة المواتية للعودة الى الأندلس ، والمطالبة بالحكم ، وانتفض الأخوان فرصة وفاة أخيهما هشام ، وعبر سليمان الى الأندلس على رأس جموع من البربر والمرتقة ، وحاول الاغارة على قرطبة عدة مرات ، ولكن الحكم هزمه سنة ١٨٢ هـ • وهزمه الحكم فى العام التالى بالقرب من استجة ، ففر فى أصحابه متجها الى ملارده ، فبعث الحكم الجند فى أثره فأرسل الحكم اليه جيشا هزمه ، وقبض عليه ، وسبق هو ورفاقه

الى قرطبة ، وأمر الحكم بأعدامهم ، وطيف برؤوسهم في شوارع قرطبة ، ثم أمر بتشييع جنازة عمه في احتفال مهيب ، ودفعه بالروضة بقصر الامارة بجوار والده عبد الرحمن .

أما عبد الله ، فقد احتفى في بلنسية بعد هزيمه أخيه سليمان ، ولكنه في النهاية لم ير مناصا من طلب العفو والمغف ، فمضى الحكم له أمانا ، على أن يبقى في بلنسية ، وتجري عليه أرزاقه ، وزوج الحكم إحدى بناته لعبيد الله بن عبد الله وركى عبد الله الى اطاعة والسكينة طوال عهد الحكم ، وأظهر عبيد الله بن عبد الله الولاء للحكم ، ودخل في خدمته ، وتدرج في ملك الجيوش وظهر نبوغه في تلك المصوائف التي تسنها على المسجونين في الشمال ، ولذا لقب بصاحب الصوائف .

ثورات المولدين

المولدين — كما علمتم — هم طبقة نشأت في الأندلس من زواج المسلمين بالاسبانيات ، وسكنت هذه الطبقة بمرور الزمن الغالبية العظمى من سكان الأندلس ، فمنهم المزارعون والطلبة والتجار والفهاء والصناع ، وقد نسروا بالنسب من حكومة الأندلس التي كانت تحرمهم من المناصب الكبيرة ، وتقل كاهلهم بالمراتب الطلحة ، فقاموا بثورات تهدف الى تحسين وضعهم السياسي والاجتماعي وأهم هذه الثورات ، ثورة في قرطبة ، وأخرى في طليطلة ولتحدث الآن عن ثورات أهل طليطلة عاصمة القوط للقديم وقاعدة التفر الأحدث ، وكان بين أهلها للخبز من المولدين والمستعمرين الذين يشعرون بضرورة التخلص من سلطان قرطبة الذي سلبهم حقوقهم السياسية والاجتماعية ، ولم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعترفون بروتهم وكثرتهم وحصانة مدينتهم ، ونشبت في طليطلة عدة فتن ، أجهدت جنود الحكم ، ولم يستطع الحكم إعادة البلاد الى الهدوء والطاعة فلجأ الى الحيلة والتخديعة ، وعين عمرو بن موسى من موثق — وهو من المولدين سرياليا مفتي طليطلة — وكان عمرو بن موسى نتيجة الحكم ، وكان الحكم موثقا في هذا

الاختيار ، لأن عمروس شأنه شأن معظم أهل طليطلة من المولدين ، ويطعنون اليه ، لذلك بعلاقته بالحكم من ناحية ، وبالمولدين من ناحية أخرى ، يستطيع أن يلعب دورا ناجحا في إزالة التوتر من المدينة انناثره . وكتب الحكم الى أهل طليطلة يقول : أسي قد اخترت لكم ملانا وهو منكم لتعلمن قلوبكم وأعفيتكم ممن تكرهونه من عمالنا وموالينا ، ولعرفوا جميل رأينا فيكم ، ودخل عمروس طليطلة ، وتظاهر أمام أهلها بيمص بنى أمية حتى استمالهم اليه ، ثم سجد خارج المدينة قلعة جديدة ، منظارا أنه سيهدا ليقم فيها الجند بعيدا عن المدينة ، حتى لا ينفقوا الاهالى .

عزل عمروس التخلص من زعماء الفتنة ، فأقام وليمة في القلعة الجديدة ، ودعا اليها رؤساء وسادة أهل طليطلة المعارضين لحكم الحكم ، وأمر يقتلهم جميعا ، والقاء جثثهم في مكان أعده لهم سنة ١٩١ هـ / ٨٠٧ م وكان لهذه الجريمة النشوء أثرها في ضعف أهل طليطلة ، فكوا عن العصيان ، وعادوا الى الطاعة وانولاء لمكومة قرطبة وأنهت الفتنة والقلاقل في هذه المدينة المتيدة .

وثورة المولدين الثانيه ، كانت أشد خطرا من الأولى ، وأبعد أثرا ، وتعرف هذه الدورة ، بثورة الربضيين ، نسبة الى الربض ، ضاحية من ضواحي قرطبة ، يقيم فيها العمال والزرايع والصناع وأصحاب الحرف المختلفة ، وكانت قرطبة قد ازدحمت بالسكان خصوصا من المهاجرين العرب والبربر ، وقد سجد هشام بن عبد الرحمن الجسر على بحر الوادى الكبير ، ليعيط المدينة بأراضيبها الجنوبية ، قامت الممران الى انفسه الأخرى المواجهة للمدينة ، فنشأ حي الربض — الذى سبقت الاساره اليه — وأمتد الى مدينة شقته ، وهذه العناصر المتعصبية التى أقامت في هذا الحي ، كانت تقع تحت تأثير الفقهاء الذين أغضبهم تحديد الحكم لنفوذهم ، كما أن أهل الربض — ومعظمهم من المولدين — سعروا بالظلم الاجتماعى ، وأنهم كطبقة اجتماعية لم يكن لها حقوق تجعلهم على قدم المساواة مع العرب أو البربر .

وقد حدث حادث بسيط ، ولكن نظرا لجو السخط العام الذى كان مسيطرا على المجتمع حينذاك ، فقد أدى الى ثورة كانت لها نتائج بعيدة فى الشرق والغرب . وملخص هذا الحادث أن جنديا من حرس الأمير ، ذهب الى حداد بحى الربيض ليصلح سيفه ، فتباطأ فى إصلاحه ، وحدث خلاف بينهما لم يلبث أن تطور الى جدال عنيف ، فما كان من الجندى إلا أن قتل الحداد ، الذى كان من طبقة المولدين ، وكان هذا بمثابة الشرارة التى أشعلت الحريق ، فقد انفجر السخط وتجمع الناس على الجندى فقتلوه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل خرجوا جماعات كبيرة مسلحة بالبلط والعصى والسكاكين ، وما وصلت اليه أيديهم من سلاح ، وأندس بينهم الفقهاء وأغلغوا المتاجر والحوانيت ، وأتجهوا الى قصر الامارة عبر الجسر ، وترعمهم الفقهاء ، ومن بينهم يحيى بن يحيى الليثى ، وحاصرت هذه الجموع الثائرة قصر الحكم ، وحاولوا اقتحام القصر وقتل الأمير .

تصدى الحكم بسرعة لهذا الخطر اذ ادهم الذى يهدده ويهدد ملكه ، فأستدعى رئيس حرسه الخاص ، وأمره بالدفاع عن القصر ، كما أستدعى ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسى — صاحب الصوائف — وأمر أن يبذل قصارى جهده ، ويشق طريقه الى حى الربيض ، واشغال النار فيه ، ونجحت الفطنة ، فأحترق جند الحكم النهر على مضاضة ، لأن الجسر كان مزدحما بالثوار ، وأحرق جند الحكم مساكن الثوار ، ولما رأى أهل الربيض مساكنهم تحترق ، أسقط فى أيديهم ، وفزعوا وأسرعوا الى الربيض تاركين قصر الحكم لانتقاذ أولادهم ونسائهم . وعلى الجسر هاجمتهم القوات من خلفهم ومن امامهم ، وأوقعت جند الحكم الثوار بين نارين ، وأحاطت بهم من كل جانب ، وأعملت فيهم السيف ، حتى مزقتهم كل ممزق ، وكانت هذه الواقعة حوالى سنة ٢٠٢ هـ ولم يكتف الحكم بذلك ، بل أمر أهل الربيض بالرحيل من الأندلس ، وأمهلم ثلاثة أيام ، فمن تخلف ، أمر بقتله ثم أمر بالربيض ، وهدمت وحرثت مكانها وزرع ، وأوصى بالآلا يسكن هذا الحى بعد وفاته .

واقترن اسم الحكم بالربيض ، فسمى بالربيضى ، ونفذ خلفاؤه

وصيته ، ولم يمر هذا المكان حتى أواخر القرن الرابع الهجري .

ومن أهم نتائج هذه الثورة ، أثبات مقدرة الحكم وكفاته في اخضاع الثورات ، ودانت له البلاد بالولاء والطاعة ، وتقلص نفوذ الفقهاء ، وحشوا بأسه ، وفر بعضهم خارج الأندلس . وكفوا عن مهاجمة الحكم في الشوارع والأسواق والمساجد والاجتماعات ، وأتهامه بالكفر والالحاد .

أما النتائج الخارجية ، فهي خروج الرهبيين من الأندلس بحثا عن موطن جديد وحياة جديدة ، وأرضا يعاجرون اليها ويستقرون فيها ، بعد أن طردهم الحكم من بلادهم .

عبر الرهبيون مضيق جبل طارق الى العدو المغربي حيث استقروا بين قبائل البربر في الريف شمالي المغرب ، ورحب بهم أديس الثاني — أمير دولة الأدرسة الناسئة — وكان وقتئذ يؤسس مدينة فاس ، وفي حاجة الى صناع وعمال وفنيين يعاونونه في تأسيس المدينة الجديدة ، فرحب بالرهبيين ، ونقلوا الى فاس مظاهر الحضارة الأندلسية لا سيما وأن معظمهم كانوا — كما قلت — من أهل الصناعات والحرف ، فأعطوا المدينة طابعا أندلسيا جميلا سواء في أبنيتها البيضاء ذات الحدائق الداخلية في أحواسها ، ونزل فريق منهم بحى ، جرف بحى الأندلسيين .

أما المدينة العالية التي أسسها أديس الثاني على الضفة المقابلة فقد أسكنها لجماعة من أفريقية من نواحي القيوان ، وبسميت مدينة القرويين ، ويعرور الزمن غلب اسم فاس على المدينتين ، وصار يشتمل عدوة القرويين ، وعدوة الأندلسيين ، وقد اشتغل القرويون بالتجارة ، واشتغل الأندلسيون بالزراعة والصناعة .

أما الفريق الآخر ، فقد سارعوا نحو الشرق برا وبحرا ، وهاجموا الاسكندرية ، وأستولوا عليها بمساعدة بعض العربان ، وأستقروا فيها ، وأقاموا لهم فيها واليا منهم . ولكن والى مصر عبد الله بن طاهر

ابن الحسين ، لم يتنازع عن أهل الريف في الاسكندرية ، وانتزاعها من ولاية مصر ، بل صلب إلى الاسكندرية ، وشدد عليها الحصار ، ودارت غدة معارك بين الفريقين ، انتهت بتسليم أهل الريف الاسكندرية لجد الله بن طاهر ، وعقد معهم صلحا ، بمقتضاه ، ينسحب أهل الريف من الاسكندرية إلى أى أرض غير أرض العباسيين وأعد لهم مراكب لاجلائهم ، فقصدها جزيرة كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأقاموا لهم فيها دولة اسلامية . عرفت بالدولة انكليبه ، وظلت هذه الدولة مصدر تهديد لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، وحاول البيزنطيون لاجلاء هؤلاء المسلمين من جزيرة كريت دون جدوى ، وكان المسلمون في كريت يتلقون المساعدات من مصر وانشام وافريقية إلى هذه الجزيرة المجاهدة التي تنصدي للخطر البيزنطي . واستمرت دولة الكليبيين الصغيرة زاهرة زهاء قرن وثلاث (٢١٢ هـ - ٣٥٠ م) حيث استعاد البيزنطيون الجزيرة .

العلاقات الخارجية

لم تكن دولة الفرنجة المتأخمة لدولة المسلمين في الاندلس من محاولة لغزو هذه الدولة ، والقضاء عليها ، وذلك لتأمين حدودها ، واستطاعت بالحرب والمقتال انشاء ثغر قوطي في أقصى اسبانيا الشمالية الشرقية ، مما يلي جبال البرقات وكان الثغر القوطي يتكون من مدن جيمونه وأوزونه وسولسونه ، ولم يكتف تسارلمان بذلك بل عول على توسيع الثغر القوطي ، وتطلع إلى فتح ثغر برشلونه المنيع ليكون مقلا لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا ، ولتحقيق هذا الغرض عقد تسارلمان تحالفا مع الفونسو الثاني — ملك جليقية — لضمان ولاء البشكس . وفي سنة ١٨٥ هـ أرسل تسارلمان جيشا لتحقيق هذه الغاية بقيادة لويس بن تسارلمان — أمير أكويتين — وكانت الفرصة مواتية ، بسبب انشغال الحكم بمقاومة الدورات التي استتعلت ضده ، وقد واجه سعدون الرعيني — والي برشلونه — الحصار بشجاعه وبساله ، وكانت محكومة قرطبة مشغولة عنه بمساكلها الداخلية ونم تصله أية آمادات ، وشدد الفرنج الحصار على برشلونه حتى هلك معظم سكانها ،

ويجوز سمية أشهر أقتحم العدو المدينة الحصينة • وأتخذ الفرنج برسلونه بدلا من جبرنده قاعده للثغر الفوطى الذى مما فيما بعد • وغد هذا الثغر الفرنجى أمارة نصرانية تسمى قطلونية ، التى اندمجت فيما بعد فى مملكة أراجون • وخسر الاسلام بفقد برسلونه أمنع معورة فى قاصيه أسبانيا ، وأرتكت حدود الأندلس الى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تتجاوز جبال البرقات • ونس الفرنج بقيادة لويس بن شارلمان هجمات على ولاية الثغر الأعلى سنة ١٩٢ هـ عدة مرات ، وحاصروا مدينه طرطونة ولكن المسلمين ردوهم على أعقابهم حاسرين •

كذلك أنتهز الفونسو الثانى — ملك جليقية — سنة ١٩٤ هـ فرصه انفسال المسلمين بالبربات ، وعمر اثنى بلاد المسلمين عدة مرات وعات فى البلاد نهبا وفسادا وتخريبا ، فذهب لحيثه الحكم ، وسد هجماته ، وهزم الفسارى فى عدة وقائع واطمان المسلمون وأمنوا من هذه الغارات المتلاحقة ، وهاجم الحكم برسلونه ، ودارت حروب بين الفرنج والمسلمين بدون طائل ، فلجأ الطرفان الى الصلح ، وعند انحكم وشارلمان صلحا ، استمر حتى وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م

وفى سنة ٢٠٠ هـ شن الحكم عدة هجمات فى جليقية وعلى البشكنس ، أضمدوم ، وأهلك قواهم ، وأمن مكرهم ، واعتصم النصسارى بالوهاد والربى •

كان الحكم حاكما قويا مستتباً ، يصل الى غايته باى وسيلة ، صارما قاسيا ، شغوبا بأبهة الملك ، يترفع عن الرعية ، وهو فى ذلك يختلف عن أبيه وحده ، وكان يحسن اختيار رجال دولته ، ممن عرفوا بالعدل والورع والاستتارة • وهو أول من أظهر قفامة الملك ، وأول من أنشأ بالأندلس بلاطا اسلاميا ملوكيا ، ورتب نظمه ومراسمه ، واستكثر من الموالى ، وجعل منهم حرسه الخاص ، واستكثر من الصقالية وعهد اليهم بمعظم شؤون القصر ، وكانوا من الرقيق الخصيان يؤتى بهم من بلاد الفرنج وهوض الدانوب وبلاد اللومبارد ومختلف نحر البحر المتوسط النصرانية وكان

يؤتى بهم أطفالاً ، ويربون تربية إسلامية ، ثم يدربون على أعمال الفخر ،
وتدرجوا في سلك الوظائف حتى بلغ بعضهم الرياسة والقيادة .

وأستطاع الحكم تنظيم البلاد إدارياً ، فكانت تسير على منظمة ومدرية
على تأدية مهامها على أكمل وجه ، وله عيون وحواسيس يطلعونه على
الأخبار . وعلى الجملة كان للحكم عظيم السلطان والهيبة .

الأمير عبد الرحمن الأوسط

(٢٠٦ - ٢٣٨ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م)

يتميز عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بالنقلة الحضارية التي انتقلت إلى الأندلس في أيامه ، فقبل عهد الأمير عبد الرحمن كانت المؤثرات الحضارية الإسلامية في الأندلس ، مبعثها بلاد الحجاز أو بلاد الشام ، وكان انشباط الحضارة في هذه البلاد محدودا ، وبالتالي فللوقت الحضارية التي انتقلت إلى الأندلس من تلك البلاد كانت محدودة ، ولما ولي الأمير عبد الرحمن الأوسط رأى ضرورة نقل بلاد الأندلس من شظف البداوة إلى رونق الحضارة ، فطلع إلى بلاد العراق ، وهو الأمر الذي حرص أسلافه الأمراء على إغلاق هذا الباب ، نظرا للمعداء الشديد بين الأمويين في الأندلس ، والعباسيين في العراق ، ولكن عبد الرحمن الأوسط أدرك بثاقب نظرة أنه لا يمكن تنمية بلاده حضاريا إلا بفتح الباب على مصراعيه لاهل العراق ، ونقله أهل العراق .

وكانت بلاد العراق بالذات في العصر العباسي قد بلغت شأنا كبيرا في مضمار الحضارة ، وانتقل إلى بغداد الفرس ، وغيرهم من الأجناس الأخرى ، وأبرزوا علومهم ومعارفهم ، وحفظوا بتشجيع الخلفاء ، وانتشرت في بغداد الكتب والمكتبات في كل فرع ، وترجمت الكتب الأجنبية إلى العربية في مختلف العلوم والفنون ، ونبغ في بغداد الشعراء والادباء والعلماء .

وشجع عبد الرحمن الأوسط العلماء على الانتقال والهجرة إلى بلاده ، وساهموا في ازدهار الحركة الثقافية ، كما أرسل إلى العراق يشتري نفائس الكتب والمصنفات ، ولا غرو فقد ورت ملكا ممهدا نابتا ، ودولة أمورها هامة وخزائنها عامرة ، فحرص على أن يجعل الأندلس من حول العالم الكبرى تضبط ودها الدول الكبيرة منسل الدولة البيزنطية . ودولة الفرنجة وانتقلت إلى الأندلس حضارة للعراق ، ومن قبل ذلك حضارة

النساج والحجار ، وبالجملة حضارة الشرق ، وأمتزجت بحضارات العرب . وديرها الأندلسيون ، وأخرجوا منها حضارة مميزة .

هاجر انى الأندلس — كما فنيا — علماء فى مختلف الفنون ، وحدث من لم يبرز بطله فى المشرق ، كان يهاجر الى الأندلس ، حيث يجد التقدير ، ويمس فى بلد بكر فى حاجته الى العلم وأهله ، ونسب الأندلسيون فى شراء تحف قصور السرق وانجوارى من ذوات اللصبت الحسن ، فمرت الأندلس ببرجال العلم وتحف المشرق ، وورث الحضارة ، لذلك تحول هذا المجتمع من البداوة الى حياة مترفة راقية .

ومن أبرز مظاهر هذا الانتقال أيام عبد الرحمن الأوسط هو بروز شخصيات فى عهد هذا الأمير ، بدل على سمة أفق هذا الرجل ، وعلى أناقة الفرص لهؤلاء العلماء لظهور معارفهم عنى مسرح الحياة الأندلسية ، واهتمامه بأفادة بلاده من مواهب هؤلاء الرجال ، وليس — كما يذهب المؤرخ دوزى من أن ظهور هؤلاء الرجال فى بلاد الأندلس ، وتمكنها من الله لطان ، إنما يدل على ضعف هذا الأمير .

ولتأخذوا لى بالحديث عن أبرز هؤلاء الرجال :

يحيى بن يحيى الليثى

وهو الفقيه المشهور الذى لعب دورا رئيسيا فى نشر مذهب مالك فى الأندلس ، وكان من المقربين لمشام بن عبد الرحمن وحظى بمكانة رفيعة عنده ، ولكن نفوذه تضاعف فى عهد الحكم ، وترغم الثورة ضده ، ولكن الأمير عبد الرحمن للأوسط قربه اليه ، وأسند اليه منصب قاضى إيفضاء ، وكان أنسب بوزير العدل فى أيامنا هذه ، يعين القضاة فى النواحي ، ويشرف عليهم ، ويتفقد أعمالهم ، وربما فى بعض الأحيان ، يلى قضاه بعض النواحي ، ويعين من القضاة من ينسب عنه ، وكان نفوذه كبيرا فى الأندلس ، حتى أنه كان يتدخل فى الشؤون السياسية فى الدولة ، ويفرض رأيه على الأمير .

الحسين بن نافع زرياب

وحمل زرياب الى قرطبة في أوائل عهد عبد الرحمن الأوسط وهو مفسى عراقي فارسي الأصل ، ولقب زرياب ، وهي كلمة تطلق على طائر أسود حسن الصوت ، وبسببه زرياب فريدة في بابها ، لا في تاريخ الأندلس فحسب بل في تاريخ الاسلام عموما ، وكان زرياب تلميذ للموسيقى العراقي الكبير اسحاق الموصلي - كبير المغنيين والموسيقين في أيام الرشيد - وقد تبع في من الألمان على يد استاذهم محمد بن عيسى زرياب أمام الخليفة العباسي هارون الرشيد ، فأعجب الخليفة بفنّه وبراعته ، وقد عزف زرياب أمام الرشيد بعود صنعه لنفسه ، ورفض أن يعزف على عود استاذه ، وأعجب الرشيد بزرياب وأنتى عليه ، فأدرك اسحاق أن تلميذه ربما يحتل مكانته في يوم ما ، فهدده ، وطب منه الرحيل عن انحرى الى أي بلد يشاء . فقرر زرياب الهجرة الى الأندلس ، فبلغها في سنة ٢٠٧ هـ في أوائل عهد عبد الرحمن ، فأكرمه ، ورحب بمقدمه ، وأنزله في منزل يليق به ، ومنحه الرواتب والافطاسات وأنسج له المجال لاطهار نبوغه وقد على أوسع نطاق .

أحدث زرياب تطورا كبيرا في الموسيقى الأندلسية ، ونقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنية والاجتماعية ، ونجح في إحلال الموسيقى العراقية محل الموسيقى الحجازية ، وجدد في الألحان تجديدا لم يعرفه أحد من معاصريه ، وجعل مضارب العود من قوائم الفرس بدلا من الخشب ، مما يساعد على نقاوة الصوت وسلامة الوتر ، وكان العود : آلة الطرب الرئيسية ويرمز الى طابع الشر مختلفه ، وطبايع المواد الأولى في نفس الوقت ، والطبايع هي الهادي والعصبي والصفراوي والبارد ، والمواد الأولى هي الماء والهواء والقراب والنار ، فأضاف زرياب للعود وترا خامسا جعله في الوسط ، وهو يقابل النفس من الجسد ومازانت موسيقى زرياب ممثلة في الموسيقى الأندلسية المعروفة حتى اليوم في المغرب والجزائر وتونس . وزرياب أول من غنى في وسط مجموعة من المنتسدين والمنشدات ، ورثب طلابه على تنقية الصوت وتصفيته وظبطه

وتقويته ، والغناء طبقا للقواعد الموسيقية ، والتمشى مع الموسيقى في الغناء . وبذلك أصبحت الموسيقى الأندلسية - بفضل زرياب - أرقى أنواع الموسيقى شرقا وغربا .

وكان لزرياب ذوق رفيع في كل ما يتصل بشؤون الحياة والمجتمع فعلم الأندلسيين طريقة الطهي العراقي ، وضرورة الترتيب في تقديم الأطعمة ، بدلا من وضعها دفعة واحدة ، فبدأ الإنسان بالقبلات ثم بالخضراوات واللحوم ثم بالطوى أو الفاكهة ، وأشار على الأندلسيين ، استعمال الأواني الزجاجية في الطعام بدلا من الذهبية أو الفضية ، وعلم الأندلسيين ، كيف يضعون في الطعام التوابل ، وترتيب المائدة .

وزرياب علم الأندلسيين ، اتخاذ ثياب للصيف ، وثياب للشتاء ، وكان الناس قبله يتخذون الصوف صيفا وشتاء ، أما هو فقد علمهم لبس القطن صيفا ولبس الصوف شتاء ، وكان له ذوق رفيع في اختيار ألوان الثياب وأنواعها .

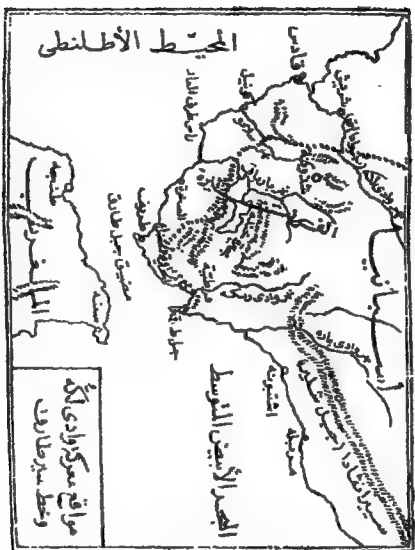
.. كذلك علم زرياب الأندلسيين طريقة تصفيف شعورهم ورفعهم خلف الأذان ، بدلا من تركه مسحولا على جباههم وأعينهم ، وقد تبناه أهل الأندلس في هذا التصفيف ، والجدير بالذكر أن أهل الأندلس كانوا لا يستعملون المعائم ، إنما كانوا يتركون رؤوسهم دون غطاء ، شأنهم في ذلك شأن جيرانهم الذميين . وعرفت هذه المراسم بمراسم زرياب ، وتمثل انتعاش نزعة التجديد والاناقة في ذلك العصر . وقد أثار وجود زرياب وآرائه ، وما أحدثه من تغيرات في المجتمع أثيرة وحقق الوزراء وكبار رجال الدولة مثل يحيى الغزال ، وأنكروا على الأمير عطياه له . ولكن الأمير لم يقبل الاقلال من شأن زرياب وقرب بيته وبين الوزراء . ومن عوامل صعود زرياب أمام منافسية عدم تدخله في السياسة .

عباس بن فرناس

ومن أعلام ذلك العصر عباس بن فرناس ، وهو فليسوف وعلامة رياضى من نوع فريد فى بلبه ، ويرجح أنه من البربر وقد شغف بحراسه الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، حتى برع فيها ، وصار من أكبر علماء عصره ، وهو أول من أستتبط بالأتدلس صناعة الزجاج من الحجارة ، ويرع أيضا فى الموسيقى ووضع آلة فلكية لتحديد الوقت ومعرفته سموها الميقات وله اختراعات كثيرة أخرى ، ورسم فى بيته شكل القبة السماوية ، وقسمها الى بروج ومنازل للشمس وللأفلاك على مدار السنة ، وحاول أن يوضح اختلاف الفصول ، وأوجه القمر بالآلات صنعها لهذا الغرض ، وكان يجرى تجاربه على ملا من المقربين اليه ، والمهتمين بالعلم ، فمنهم من أستفاد ومنهم من رماه بالسكر والشعوذة وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين على شكل ممى ، وحاول الطيران من ناحية الرصافة ، فخلق فى الهواء ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض . وكان هذا سبقا لم يسبقه اليه أحد من رواد الطيران . وأدى كثرة اشتغاله بالكيمياء الى اتهام الناس اياه بالسكر ، فرموه بتهم القتل والضلال ، ورفضوا أمره الى القاضى . ولكن ثبتت براعته ، والخلاصة أن أحد انوزراء قدر لهذا الرجل علمه وفضله ، وأثروه فى الحضارة فقال : أبدع عباس بن فرناس طول أمدته ابداعات لطيفه وأختراعات عجيبه ، وشرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة وكان مع ذلك مجيدا للشعر ، حسن التصرف فى طريقته كثير المحاسن ، جم الفوائد .

يحيى الغزال

وينسب الى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيان ونقب بالغزال لجماله وطرفه وثائقه ، وكان شاعرا جزلا مطبوعا ، ونبغ فى شعر الغزل ، عالما بالفلك والفلسفة وقد أكثر من التعرض للفقه ، وانتقادهم ، حتى سخطوا عليه ، وأتهموه بالكفر والاكحاد ، وعرف عنه أصالة الراى وحسن التصريف للأمور ، وقد رشحته هذه الصفات للقيام بمهام دبلوماسية كبيرة .



ويحيى الغزال ناسر لا يكسب بسمه . انما يقول الشعر للشعر ذاته ، ولا يتردد على الأمراء لحصم واستجداء عطائهم ، بل لا يتردد في هجائهم وهجاء كبار رجال الدولة لذلك كثر خصومه . واضطرت ظروف المعنسة الى تقلد بعض الوظائف الصغيرة ، ولكنه لا يتقيد بواجبات الوظيفة والتراتباتها ، ويسير في عمله وفق هواه ، ويهمل في أداء عمله ، فيفصل من الوظائف ، وتفرغ لأهل قرطبه فكان يهجو كل من لا يحظى باعجابه وتقديره ، فكثر ضده اشكاوى الأمير فطرده من الأندلس ، فلجأ الى بغداد وحضر مجالس الأدب التي ترخر بها العاصمة العباسية ، فتحدثى العلماء والطلاب ، وأصابهم بلسانه ، فكثر أعداؤه في بغداد ، فغادرها ، واستأذن الأمير عبد الرحمن في العودة الى قرطبة ، فأذن له . وعهد إليه بعمل يتناسب مع قدراته ، وهي السفارة الى الملوك .

سعيد بن عديريه

ومن أبرز أدباء ذلك العصر ابن عديريه ، صاحب كتاب العهد العريذ ، وكان على نمط يختلف عن يحيى الغزال ، فكان يتكسب بسمه . ويتقرب الى الأمراء ، ويلود بهم ، ويمثل الأدباء التقليعيين الذين يدرسون انتراب العربي القديم ، وبه يفوه في مجاد كبير ، يستعمل الشعر والتاريخ وأخبار العرب وأيامهم ، ومن يقرأ هذا الكتاب سمر أن المؤلف قد جمع له معلومات متنوعة ، أو أنزله في عدة مسائل ، بحيث يأخذ من كل بستان زهرة . والعقد العريذ كتاب أدب نموذجي ، سماه صاحبه الحق لأنه جعل انفصول جواهر ، أشار فيه - كما هو الحال في كتاب الكامل لأبي العباس المبرد الى أيام العرب وأسواقها والخييل وأصنافها والشرعاء الجاهليين وشرعاء صدر الاسلام والعهد الأموي ، الى غرائب ما قيل في الكرم أو النجاعة أو الفضيلة ، كل ذلك في لغة صحيحة ، تقيد القارىء ، وتوسع مداركه في اللغة .

ويظهر هذا الكتاب في الأندلس بجل دلالة واضحة على أن الأدب في الأندلس استبقى مادته من الشرق وأن الأندلسيين قد دراستهم

الادبية ، تلمسوا النشاط الملحوظ في الشرق ، والمادة العلمية الغزيرة منه وبذلك توطدت الثقافة العربية الاصلية في الاندلس أو بعبارة أخرى عاتى أدباء الاندلس في جو عربي شرقي خالص ، لا يتأثر الا قليلا بالحياة الاندلسية ، بذليل أن من يقرأ كتاب المقد الفريد ، لا يمتد أن صاحبه أندلسي ، لقلة الانسارات فيه عن الاندلس . في حين أن كل ما فيه من معلومات عن الشرق .

الثورات الداخلية

حدثت في الاندلس عدة ثورات داخلية ، تغلب عليها الامير عبد الرحمن الأوسط ، ففي مستهل عهده ، عاد عبد الله البلنسى الى الثورة ، واحتل كورة تدمير سنة ٢٠٧ هـ وانضم اليه الكثير من الانصار والأعوان . وقوى بأسه ، وعول الزحف الى قرطبة على الرغم من شيخوخته ، ولكن المرض هاجمه ، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ ، وأنتهت بذلك آخر فتنة ، كانت تحدث بعد تولية الأمراء الذين أعقبوا عبد الرحمن الداخل .

على أن فشل هذه الثورة لم يؤد الى هدوء تدمير ، بل عادت الى الاضطراب من جديد ، بسبب فتنة بين اليمانية والمضرية سببها أن يمانيا قتله مضرى ، وغفلت حكومة قرطبة في اخضاع المدينة النائرة ، وازداد الأمر اضطرابا بعد أن تغلب أبو الشماخ اليماني على تدمير ، ولم تلبث أن هدأت الفتنة سنة ٢١٣ هـ ، بعد أن تسطت حكومة قرطبة وأرمقتها .

كذلك قضى عبد الرحمن الأوسط على ثورات في قرطبة وفي طليطلة ومارده .

وأستأنف عبد الرحمن سياسة أسلافه في غزو بلاد الفرنجة ، فهاجم سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م البية والفلاح وهزم النصرارى في عدة وقائع ، ودمر مدييه ليون ، ولقن أهلها درسا قاسيا . وفي غضون ذلك صد جيش عبد الرحمن الأوسط جيشا للفرنجة ، أرسله لويس — ملك الفرنج — وتحالفت البنسكتن معه في هزيمة الفرنجة عند بنبلونه ، كذلك أحبط

عبد الرحمن محاولات الفرنجة في النهر القوطى، لتتوسع في أراضي المسلمين .

حرص عبد الرحمن على تسير الصوائف أو حملات الغزو الصيفيه متماقبة في كل عام الى الشمال ، تارة الى أطراف النهر الأعلى ، حيب تشتبك مع الفرنج ، وتغرب أراضيهم وتارة الى ألبه والقلاع ، حيث تغير على أراضي البشكنس أو أطراف ممكة ليون (جليقيه) ، واضطر البشكنس الى طلب الامان والصلح ، ووطد عبد الرحمن من خلال حملاته نفوذه في تلك الأنحاء سنة (٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م) ولم يكن لهذه الغزوات نتائج مستقرة ، وكانت تقصد في الغالب الى إيقاع الرعب في قلوب نصارى الشمال ، وتخريب بلادهم ، وانهاك قواهم ، حتى يلزموا المسكنية ، ويكفوا عن عدوانهم .

غارات النورمان

من المعروف أن شبه الجزيرة الأيبيرية لها سواحل طويلة على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسى شرقا وغربا وجنوبا ، وعرضها هذا لغزوات بحرية كثيرة ، وقد فطن المسلمون الى ذلك ، فأنشأوا دور الصناعة في الموانئ المختلفة ، وتولى اليعنيون حراسة الموانئ ، وحفظ السواحل من الغارات البحرية . واعتمدوا كذلك على جماعات بحرية أندلسية من المولدين والبربر والمستعربين ، وكان لهؤلاء البحريون الأندلسيون مغامرات ومحاولات في المحيط الأطلسى لكشف مجاهله وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجرى ، ولهذه الجماعات البحرية نشاط ملحوظ في البحر المتوسط ، تغل في الغارات التى شنتها على جزر البحر المتوسط المتاخمة للدولة البيزنطية أو الدولة الكارولنجية .

ساهمت القوات البحرية لعبد الرحمن الأوسط في غزو جزيرة صقلية بالتعاون مع دولة الاغالبة في أفريقية ، ولكن عبد الرحمن الأوسط توقف عن هذا الغزو بسبب المعاهدة التى عقدها مع الامبراطور البيزنطى ، وتتضمن عدم مناصرة أى عدوان ضد الدولتين .

لكن موقف الأمويين من الفرنجة ، كان يختلف عن موقفهم من البيزنطيين ، ذلك أن الأعداء التقليديين للأمويين ، كانوا الفرنجة ، المجاورين لأراضيهم ، والطامعين فيها ، ولا أيقن عبد الرحمن الأوسط أن قوته البحرية أقوى من قوت الأمبراطور لويس الثقي أو الحليم — أمبراطور الفرنجة — من غارات بحرية متوالية من ٨٣٩ — ٨٥٠ م على شواطئ دولة الفرنجة في جنوب فرنسا ، حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وغيرها ، وشملت هذه الغارات جزر البليار ، التي كانت في حوزة الفرنجة ، ومازال المسلمون يهاجمونها ، حتى سيطروا عليها ، وخضعت لسيطرة الحكومة ، القرطبية سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن البحرية الأندلسية لم تكن بالقوة اللازمة التي تكفي لصد الغارات البحرية القوية ، خصوصا على السواحل الغربية ، ولهذا لم تستطع البحرية الإسلامية رد هجمات النورمان أو الفايكنج السريعة ، وأسهمها النارية الخاطفة ، وأضرعتها السوداء ، التي جعلت بعض المعاصرين ، يراها وكأنها ملأت البحر طيرا أسود .

وهؤلاء المهاجمون . يسمون النورمان أو سكان الشمال أي سكان الدول الاسكندنافية ، وسماهم العرب بالمجوس أي عباد النار ، لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يحلون به . بل كانوا يحرقون جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم فظن العرب أنهم يعبدون النار كالمجوس . وسعوا كذلك بالفايكنج ، وكان هذا الاسم يطلق على سكان انغلان الاسكندنافية . ولكن المراجع الاسبانية تفسر كلمة فايكنج بمعنى المحاربين .

والشعوب الاسكندنافية — كما هو معروف — تنقسم الى سويديين ونوريجيين ودنماركيين . والدنماركيون هم الذين هاجموا سواحل انجلترا وفرنسا والاندلس والمغرب وترعوا حركة القرصنة في البحار ، والقوا العرب والذعر في نفوس أهل السواحل ، وعانوا فسادا ونهباً في البلاد السواحلية .

ولم تكن تجمع غارات النورمان قيادة واحدة أو خطة مشتركة ، بل كانوا مجموعات متفرقة ، كل مجموعة تعمل لحسابها الخاص . وكثبت هذه الجماعات تتجنب مهاجمة السواحل المحصنة التي بها حراسة ورقابة بحرية ، كالسواحل الشرقية نائما تهاجم السواحل غير الحصينة ، كالسواحل الغربية ، ومن هنا اشتدت هجماتهم على قادس ، واحتلوا وأخترقوا نهر الوادي الكبير من مصبه ، وصعدوا فيه لسفنهم ، واستولوا على مدينة أشبيلية ونواحيها سنة ٢٣٠ هـ ، وأمنوا في السكان قتلا وتكديلا وغلثوا فيها فسادا ، وعسكروا في ظاهرها ، وأرسل عبد الرحمن الأوسط قوات لصدهم ، ودارت بين الفريقين معركة حامية ، هزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف ، والأسرى أكر من أربعمائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وارتد النورمان خاسرين ، بعد أن فقدوا قتلدهم ، ونهضوا بسفنهم ، ثم غادروا السواحل الأندلسية ، والمسلمون من ورائهم يتعقبونهم ، ويفتدون أسراهم ، وانقم النورمان لانفسهم أثناء انسحابهم بالاغارة على بعض البلدان بعد أن قضوا في البلاد أياما عديدة القوا فيها الرعب في نفوس أهلها .

أما الأسرى النورمان ، فقد اعتنق بعضهم الاسلام واختلطوا بالاهالي ، وتكونت منهم جالية نورمانية اشتملت بتربية المواشي وصناعة منتجات الألبان ، نبهت هذه الهجمات الأمير عبد الرحمن الأوسط الى تحصين الموانئ والسواحل ، واعداد العدة لمواجهة أى هجوم في المستقبل ، فاحاط مدينة أشبيلية بأسوار حجرية عالية ، وبنى فيها دار صناعة لبناء السفن الحربية وزودها بالأمثلة الى جانب المتارس والباطات ، وزود هذه التحصينات برجال مدربين على القتال ، وصد الغارات البحرية ، وزود السواحل بالمنارات وبث عيون المراقبة على أماكن عالية ، للكشف عن العدو اذا اقترب ، وقويت البحرية الأندلسية ، التي لم تلبث أن سيطرت على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وكان للأندلسيين أسطولان أسطول البحر المتوسط . وأسطول المحيط الأطلسي ، وكان للأسطول مراكز كثيرة على الساحل الغربى والجنوبى والجنوبى الشرقى

بصفة خاصة ، وكان رجال البحر يمتطيرون سلاحا خاصا من أسلحة الجيش ،
ولهم أجور عالية وينظم خاص في الإندلس .

فتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة

المستعربين هم النصارى الذين بقوا على دينهم ، ودخلوا في ذمة
المسلمين وتعلموا اللغة العربية ، واندمجوا في الحياة الإسلامية ، وتولوا
الوظائف الحكومية ، وتمتعوا بتسامح المسلمين ، فبقوا على دينهم ،
يمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة ، ولكن بعض القساوسة المتعصبين
في قرطبة نفروا من الاسلام ، وحرصوا اخوانهم المستعربين على الثورة
ضد دوة الاسلام وأبرز هؤلاء القساوسة هو الراهب الفارو انقرطبى
وكان شايبا غنيا ، فأعلن الثورة على المسلمين ، واستتكر من اخوانه
النصارى أقبالهم على الثقافة العربية ، ونسيانهم اللغة اللاتينية وكتلجات
آباء الكنيسة وسفراء اللاتين .

أخذت هذه الفتنة طابعا خطيرا باسم الدين ، فكرهوا المسلمين
وسفروا من دينهم ونبيهم وتعاليمه ونسبوا الى الاسلام خرافات
وأباطيل .

ثار المتعصبون في المدن الاسبانية - حصوما قرطبة - وقاتلو
الحكام ، وحاولوا الاستشهاد بطريقة التحدى والاستباك ، وعمد القسوس
والمتعصبون الى تحقيق غايتهم بوسيلة خطيرة ، وهى سب الاسلام ونبي
الاسلام علنا ، وهى جريمة تعرض مرتكبها للقتل ، وقاد زعماء الثورة من
القساوسة الثوار ، وساروا في شوارع قرطبة في سب نبي الاسلام
جهرا ، واذا ما قبض عليهم ، حاول انقضاه انقراع اعتذار منهم على
خطئهم ، ولكنهم كانوا يصرّون على سب نبي الاسلام أمام القاضي ، لذلك
كان جزاؤهم الموت . وأدى اعدام بعض الثوار ، الى زيادة استعجال
الفتنة ، وأضفوا على المقتولين صفة الشهداء ولم يتورع الكثير من الثوار
المتعصبين عن اعلان السب لنبي الاسلام ، ولما للشهادة ارادى أو قد
مواكب .

اعتزم عبد الرحمن الأوسط على معالجة هذا الخطر الداهم بالحوار البناء والتفاهم ، فاستدعى مجلسا من الاساقفة ، عقد في قرطبة برئاسة مطران أشبيلية وبالمجلس ممثل للامير ، وأصدر المجلس بعد مناقشات مستفيضة قراره بعدم جدوى هذه الفتنة الطائفية التي ستؤدي الى الخراب والدمار وازهاق الانفس والاموال ، واستنكر المجلس مسئلة أولئك المتطرفين وتحذير النصارى من السير في طريق الثورة ، ولكن قرار هذا المجلس لم يؤد الى انتهاء الثورة ، بل ظلت مشتعلة واعتقل الكثيرون ومنهم فتيات مسلمات ، وقموا تحت تأثير الثوار ، وتنصروا ، وتمادوا في سب النبي ، ومن بين هؤلاء الفتيات فتاة رائحة الحسن تدعى فلورا نسف بها الأسقف أولوخيو حيا .

كانت فلورا ابنة مسلم من زوجة نصرانية ، وتوفى أبوها وهي صغيرة ، فربتها أمها على مبادئ انصرانيه ، ودخلت في النصرانية ، ولما علم أخوها المسلم شديد التعصب بتتصرما ، حاول اعادتها الى الاسلام بكل الاساليب ولكنه لم يستطع ، فلأخذها الى القاضى ، وأخبر القاضي بأن أخته تنصرت ، وسبب النبي ، واعترفت فلورا وعاقبها القاضى بالضرب ، ولكنها لم تكف عن عصيانها وأشعلت الثورة من جديد ، وتحدث المسممين في كل مكان بسب النبي ، وأظهرت من شروب الشجاعة والبسالة والتفانى في سبيل العقيدة ما جعلها من قديسات الكنيسة الاسبانية ، وحاول انقاض نصحتها ، ولكنها أصرت على الضلال ، عندئذ حكم عليها بالاعدام .

واستمرت هذ الفتنة الخطيرة روحا من الزمن ، ونزعت حكومة قرطبة في قمعا بالحزم والسدة ، وهكذا انتهت هذه الفتنة التي أثقلت حكومة قرطبة ، ولم يجد فيها المتعصبون أملا ، وقد استنكر عامة النصارى ورؤسائهم هذه الحركة عايدوا الحكومة في موقفها من أولئك الماثثرين ، ولم تظهر هذه الفتنة في التاريخ الاندلسى الا في القليل النادر وبشكل طفيف جدا .

العلاقات الدولية في عهد عبد الرحمن الأوسط

مازنت الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، إحدى دوا العالم الكبرى ، والدول الأربع الكبرى في ذلك العصر ، الدولة العباسية في المشرق ، ودولة الفرنجة ، والدولة البيزنطية ، والدولة الأموية في الأندلس . وانقسم العالم إلى مسكرين ، الدولة العباسية ودولة الفرنج في جانب ، والدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية في جانب ، ذلك لأن مصلحة الفرنجة تتحد مع مصلحة العباسيين في الضغط على الدولة الأموية في الأندلس ، واتحدت الدولة البيزنطية مع دولة الأمويين في الأندلس للضغط على دولة الفرنجة ، ولكن اتحاد في كلا الناحيتين يتعد تبادل السفارات والهدايا . ولكننا نلاحظ أن الحروب في ذلك الوقت ، نشبت بين العباسيين والبيزنطيين في عهد الرشيد والمأمون والمتعم ، كما نجد تسارلمان في ذلك الوقت يعبر على أسناننا من الشدة وكذلك ابنه ، مما يدل على أن الدبلوماسية الدولية ، كانت قائمة على التفاهم .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية منذ مطلع القرن الثالث الهجري تقلص من غارات المسلمين على سواحلها وممتلكاتها ، والأغلبية حكم أفريقية ، انتزعوا منها جزيرة صقلية ، وسنوا غارات على سواحل إيطاليا وواصلوا زحفهم في الأراضي الإيطالية حتى طرقتوا أسوار مدينة روم والبيزنطيون — كما علمتم — استولوا على جزيرة كريت ، وسنوا غارات على جزر بحر إيجه وساحل تراقيا ، هذا إلى جانب حملات العباسيين على الأراضي البيزنطية .

وفي سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م ، أرسل ثيوفيل الإمبراطور البيزنطي الأمير عبد الرحمن الأوسط السفير اليوناني فرطيقوس ، بهدايا فاخرة ورسالة ودية .

وفي سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٠ م ، أرسل ثيوفيل الإمبراطور البيزنطي إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط السفير اليوناني فرطيقوس ، بهدايا

فاخرة ، ورسالة ودية ، يسأله عقد محالفة معه ضد أعدائه العباسيين ، الذين قتلوا على ملك أجداده الأمويين في المشرق ، وطلب مساعدته ضد الأغلبة في صقلية ، والربضيين في كريت .

ورحب عبد الرحمن بالسير ، ورد على رسالته ، ورد على الهدايا بمثلها ، وأرسل الى الامبراطور البيزنطى السفير يحيى الخزال ، فقابلته بالترحيب ، وأكرم وفادته ، وسلمه رسالة الامير وتضمن التسخط على العباسيين والربضيين ، ولكن الرسالة لا تضمن وعودا بالانضمام اليه في محاربة المسلمين . وتحدث في الرسالة عن الأغلبة في صقلية ، فوصلهم بأنهم مجاهدون في سبيل الله ، واعتذر عن الوقوف خدمهم ، وعاد الخزال الى قرطبة ، يتحدث عن مشاهداته في القسطنطينية وبلاط الامبراطور ، وأهوال رحلته في البحر .

والخلاصة أن الحاشيات الدبلوماسية اتى قلعت لأول مرة بين قرطبة والقسطنطينية ، توضح لما أن كلا من العالمين المسيحى والاسلامى ، قد بدأ يخرج عن تقاليده القديمة تحت تأثير مصالحه الخاصة التى أصبحت هى المتحكمة فى سياسته لا الاعتبارات الدينية ، كما كان الحال من قبل .

أعماله الادارية والمعرفية

أنظمت الادارة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأعاد ترتيب وتنظيم الجهاز الحكومى ، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة ، ومن أهمها خطة الوزارة ، اذ قسمها الى عدة وزارات مختلفة ، وكان الوزراء يتقدمون على الامير يوميا لمناقشتهم فى أعمالهم ومهامهم وإنجازاتهم ، وكان هناك وزيرا للمالية ووزيرا للمراسلات ووزيرا للادارة . . الخ وأنحصرت الاعمال الوزارية فى بيوت معينة .

وأما أصحاب المناصب الادارية فهم :

صاحب السوق ، وصاحب الشرطة العليا وصاحب الشرطة السفلى وصاحب المدينة ويشرف على المرافق العامة للمدينة ، وكانت الأتدلس حتى

عهد عبد الرحمن الأوسط تعتمد على الدراهم الفضية والعنانير الذهبية من الشرق ، ولم تكن تضرب الا عملة برنزية محدودة ، وكان التعامل بين الناس في كثير من الحالات يتم بطريقة المقايضة . فأنشأ عبد الرحمن الأوسط في قرطبة دار للسكة لضرب عملة أندلسية خاصة بالبلاد .

وعنى عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت العامة ، فزاد في مسجد قرطبة الجامع ومازال هذا الجامع قائما حتى يومنا هذا يعقوده الاسلامية ولؤوسه ومعاربه ، وحول الى كنيسة في القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من ازالة قبابة ومعظم زخارفه الاسلامية لتحل محلها الزخارف النصرانية الا أن مخاربيه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الاسلامية وآياتها القرآنية ، ولا يزال يحمل اسمه الاسلامي القديم (المسجد الجامع) .

كما أنشأ عبد الرحمن مسجد اشبيلية الجامع ، وشيد سورها الكبير عقب غارات النورمان ، وفي عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة ، وقد وصف القديس أولوخيو قرطبة بقوله : ان عبد الرحمن أسبغ على عاصمته مملكة ثوبا خارقا من العظمة ، وأغدق عليها الثروات ، ورفع من شأنها ، وحقق لها الرفاهية والمجد والسؤود ، وسبق انقول أن عبد الرحمن الاوسط اجتذب العلماء والإدباء الى قرطبة ، وكان أدبيا عالما اشترى كثيرا من الكتب والمصنفات من الشرق .

وأمستكر عبد الرحمن الاوسط من الصقلية والموالى واستبدلهم بجندة « ألمجم » وتدرجوا في سلك الوظائف حتى بنح نصر منصبا ساميا في بلاط قرطبة .

والخلاصة أن المدن عمرت في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وزاد الخير في الريف ، وأزدهرت الحياة في المدن الأندلسية وظلت سمة هذه المدن طوال العصور الاسلامية .

مصر - حويلات الطوائف الأولى

(٢٢٨ - ٣٠٠ هـ / ٨٥٢ - ٩١٢ م)

أشتد الاضطراب في الأندلس ، عقب وفاة عبد الرحمن الأوسط ، وقد رأينا كيف نقل عبد الرحمن الأوسط بلاده من البداوة الى الحضارة ، ووجد البلاد ، وقضى على الفتن الداخلية ، الا أن خلفاؤه غتسلوا فيما نجح فيه عبد الرحمن وحكم البلاد في فترة المفوضى والاضطراب ثلاثة أمراء وهم على التوالي :

محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م)

المذرب بن محمد (٢٧٣ - ٢٢٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م)

عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م)

أى أن فترة الاضطراب هذه بدأت منذ نهاية عبد انرحمن الأوسط ، وأنتت بتولية عبد الرحمن الناصر ، وقد ضعفت خلال هذه الفترة حكومة قرطبة ، وعجزت عن القيام بأعباء الحكم في الأندلس الموحدة .

طبيعة بلاد الأندلس الجغرافية تجعل الوحدة بين سكانها أمرا صعبا . كما أن هذه البلاد في ظل الحكم الاسلامى ، همت شعوبا متعددة ، فسكان الأندلس الاصليين ، انقسموا الى نصارى تعلموا اللغة العربية ، وسموا مستعربين ونصارى أسلموا ، واحتكوا بالعرب والبربر ، ونشأ عن التزاوج بين هذه العناصر جيل جديد ، يسمى المولدين ، أما الوافدون على الأندلس ، فانقسموا الى عرب ، والعرب أنقسموا الى قيسية ويمينية ، وبين هذه العناصر عداة شديدة وحروبا مستمرة ، والبربر وهم أكثر من العرب بحكم قرب وطنهم الأصاى (المغرب) من الأندلس وبين العرب خلاف مستمر ، ذلك أن العرب أمتابروا بأجود الاراضى ، واستحوذوا على المناصب الرفيعة ، أما البربر فقد ترك لهم العرب الأرض القاطلة الشحيحة البرودة .

هذه العناصر التي يتركبها المجتمع الاندلسي تجعل من الصعب على
أمرء قرطبة فرض الوحدة فرضاً ، لذلك كلما قويت الحكومة المركزية ،
خضعت هذه العناصر ، وكلما خضعت رفعت هذه العناصر شعار
'الاستقلال' ، وهذا ما حدث بعد عهد عبد الرحمن الأوسط اذا انقسمت
البلاد الى دويلات مستقلة .

ظهرت في الاندلس خلال تلك الفترة دويلات يمنية ، ودويلات
مصرية ، ودويلات من المولدين ، وأخرى من المستعربين ، أى أن وحدة
البلاد تعزقت الأمر الذى أدى الى خطورة الوضع السياسى فى
الاندلس ، وسيؤدى ذلك فى النهاية الى ازدياد نفوذ النصارى فى الشمال ،
وانهيار الحكم الاسلامى ودولة المسلمين فى الاندلس .

ومن أبرز هذه الدول ، دولة قامت فى أشتيبيه ، أقامها بنو انحجاج
البيمانية من قبيلة لخم ، وحرص أمراؤها على اظهار هيبتهم فى البلاط والتنسبه
ببنى أمية فى انترف والفخفحه ، ورمعوا من سان دولتهم ، وسعوا الى
تقويتها ، وبسط نفوذها على البلاد المجاورة ، وقويت هذه الدول بصفة
خاصة فى عهد ابراهيم بن الحجاج الذى كان له بلاط وخدم وحشم وجيش
منظم ، وأضفى على بلاطه هيبة ورونقا ، بعد أن اجتذب اليه رجال الفن
والعلم والشعراء والأدباء ومن أبرز رجال العلم الأديب المؤرخ ابن عبدربه
صاحب كتاب المقد الفريد ، واستقدم الى بلاطه قعر البغدادية وهى أدبية
مغنية ، استقدمها من العراق ، ونشرت فيها فى الاندلس ، ومن جميل
أحاديثها .

(ما فى المغرب من كريم يرتجى الا حليف الجود ابراهيم) (انى
طلت لدية منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم) ، ومن دويلات البربر
المستقلة فى ذلك العصر ، دولة قامت فى الولايات الغربية وجنوب
البرتغال ، وكانت أسرة ذى النسب البربرية من أقوى الدويلات التى
استقلت عن قرطبة ، وقويت فى عهد زعيمها موسى ، وعرف عنه هو
وأولاده الشدة والبش والظلم ، فأغلرت هذه الأسرة على بلاد الاندلس ،

ونشروا الخراب والدمار في كل مكان وأعطت السيف في رقاب الإهلين ،
والقت الذعر والرعب في نفوس الأندلسيين .

على أن أخطر هذه التحولات ، دولة بنى حفصون التي بلغت سلنا
كبيرا في عهد زعيمها عمر بن حفصون - وهو من المولدين - وكان من
أسرة فقيرة وكان يجالس في تنجابه ، المولدين للناقمين على الحكم الأموي .
والذين يقاسون في ظل الحكم الأموي انشدائد ، والمتاعب الاقتصادية ،
وعدم مساواتهم بالعرب الحاكمين ، وتحمس تمصا تحيدا لغضبية
المولدين ، وجمع حوله شباب المولدين ، ثم استولى على حصن روماني
قديم اسم بيشتر في أعلى الجبال الاسبانية الجنوبية ومن هناك أخذ
ييسط نفوذه على البلاد المجاورة حتى أقرب من قرطبة ، ولم يستطع
الأمراء الأمويون الثلاثة محمد بن عبد الرحمن والمنذر بن محمد ،
وعبد الله بن محمد ، القضاء عليه ، لكثرة أنصاره ، وقوة بأسه ، واستقرار
أنصاره ، ووعدهم بأنه يعيد اليهم أموالهم التي أعتصبها العرب ، وظل
ابن حفصون في قوته حتى ارتد عن الاسلام ، ليخزي المستعمرين
بالانضمام اليه ، ولكن خطته هذه ، عجلت بنهايته ، وضعف أمره ، فانفض
من حوله المسلمون ، ولم ينضم اليه النصاري وفقدوا الثقة به ، فلا حصل
مسلموا ولا حصل نصرانيوا .

وظل ابن حفصون يحكم في ولايته انتي انتزعها من قرطبة حتى وفاته
سنة ٣٠٥ هـ ، وحكم أبناءه الولاية من بعده حتى قضى عليها الناصر ،
واستولى على القلعة ببشتر .

هكذا كانت الأندلس خلال تلك الفترة التي نحن بصدد الحديث
عنها ، ممزقة الانسلاء ، ولم يعد لحكومة الأندلس المركزية من النفوذ
والسلطان الا قرطبة الناحية ، وصارت الأندلس دويلات مستقلة عن
بعضها ، كل ولاية تحارب الأخرى ، وتبسط سلطانها على حساب جاراتها ،
وظل الأمر كذلك حتى ولى عبد الرحمن الناصر الأندلس فأعاد للبلاد
حريتها وندوله الأندلس قوتها وهيبتها .

١٠٠- إلا أن ركعة التضخمة لم يتأخر على الرغم من التدهور السياسي
مظهر ابن عدويه الذي تحدثنا عنه والفيلسوف ابن ضباع ، صاحب
كتاب طبقات الأمم ، يتكلم فيه المؤلف عن الأمم من حيث عنايتها بالثقافة
والعلوم والفنون والآداب ويغفل عن العلوم في الأندلس بشيء من
التفصيل ، ويوضح كيف ومتى ظهرت في الأندلس ، ويقول أن أول ظهورها
كان في عهد الأمير محمد ، ثم ذى يميل إلى العلوم والفنون والآداب .

وإذا كانت الحروب والعداوات بين عناصر السكان في الأندلس ،
قد أدت إلى تدهور اقتصادي وانحيار اجتماعي إلا أنها على المدى البعيد ،
مزجت بين عناصر السكان في بوتقة واحدة ، وظهرت الشخصية الأندلسية ،
تحت نتيجة المزج بين هذه العناصر ، ولم تعد الأرستقراطية العربية
متسلطة على العناصر السكانية في الأندلس ، وظهرت في الأندلس لغة
مزوجة العربية والإسبانية القديمة نتيجة لهذا الاختلاط الكبير بين العرب
والإسبان . وكان كبار رجال الدولة العرب يتكلمون مع الإسبان باللغة
الإسبانية إلى جانب اللغة العربية . ومعنى ذلك أن أهل الأندلس عرب
وإسبان ، كانوا يتكلمون اللغتين العربية والإسبانية .

ونشأ عن انتشار اللغتين بين الأندلسيين ، ظهور فن الموشحات وهو
فن شعبي أندلسي .

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة في الشعر العربي ، وحركة من حركات
التجديد فيه ، وإذا كان المشرق قد أعطى المغرب فن القصيدة الشعرية ،
فإن المغرب أعطى المشرق فن الموشحة التي لا تلتزم بنظام
القوافي الموحدة ، كالقصيدة الشعرية وإنما تسير على قوافي متعددة ،
ووحدها المقطوعة الشعرية ، وليس البيت الشعري ، ويدخلها كلمات
إسبانية ، أو عامية أندلسية دارجة .

ولم يلبث هذا الفن الجديد أن انتشر في المغرب والمشرق ،
وأستفهمه الصوفية في مدائحهم وأذكارهم والموشحة تطورت منها الزجل ،
وأثرت في الشعر الشعبي الأوربي المعروف باسم الشعر .

والخلاصة أنه ظهرت طبقه جديدة في المجتمع الأندلسي هي طبقه المستعربين التي أشرنا إليها من قبل تكلمت اللغتين العربية والإسبانية ، وتأثرت بالعادات والتقاليد والثقافة العربية والحياة العربية ، بل اتخذوا أسماء عربية .

وقد قام هؤلاء المستعربين بدور هام في نقل الحضارة الإسلامية إلى الممالك المسيحية في شمال الأندلس ، وأدت إلى نشر الثقافة والتقاليد الإسلامية في تلك الجهات ويظهر ذلك جليا في اللغة الإسبانية ، التي بها أعداد تقدر بالآلاف من الألفاظ العربية .

المملكة النصرانية في الشمال

ترك المسلمون — كما قدمنا — جليقية اعمالا لأمر سكانها المستضعفين الذين لجأوا الى هذه البقعة الجبلية الوعرة المسالك تقهقرا أمام غزوات المسلمين ، ولكن هذا انبند نما وترعرع دون أن يشعر المسلمون ، معتصمة ومتحصنة بالجبال الوعرة والمسالك المقلقة ، وقامت جنبا الى جنب مع مملكة المسلمين في أسبانيا •

لجأت الجماعات المهزومة من انقوط والاسبان الى الجبال الشمالية ، وامتدت في مغلوز جبال استورية ، وقامت امارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتيريا وجليقية وكانت الامارة الاولى التي أسسها البعض بتروس لوفوعها في الطريق الغربي من جبال البرانس في سهول ناهار ويسكونيه عرضة لهجمات المسلمين في حملاتهم على جيوب فرنسا ولكن امارة جليقية كانت تنعم في أعماق جبال أشتورن الوعرة ، بعيدا ، غزوات الفاتحين ، وفي هذه الهضاب اجتمع بلايو وأسماره ، ولجا الى مياور منيعة ، ويسمىها العرب بالصحرة •

وقد تعددت حملات المسلمين على جنيقية ، لما طهر المسلمون موطنهم وتحالف أهلها مع البنكس في عصر الولاة ، ولكن هذه الحملات كانت تواقع بالنصارى الذعر والرعب دون أن تتمكن من القضاء على جليقية نهائيا لوعورة هذا البلد ، وصعوبة مسالكه •

ولكن انسحاب المسلمين قوى من شان بلايو : وعظم بأسه وانضم اليه كثير من النصارى في كانتيريا وسهول جليقية ، ورأوا فيه خير من يعودهم في مواجهة الخطر الاسلامي : والتحصن له ، وانتير الفرصة ليدرس رحمه دولته ، فأغار على بعض البلاد الاسلاميه المجاورة ، منفيزا فرصة انشغال المسلمين بحروبهم الأهلية ، وقمع الفتن والدسائس • ومع ذلك فقد نصدى بلايو للحملات التي أرسلها ولاء المسلمين الى بلاده ،

بل هزم هذه الحملات هزائم منكسرة ، عندئذ ازدادت قسوته ، وعظمت
هيئته ، وتحول من الهجوم الى الدفاع ، فاخترق بسكونية . وشن عدة
غزرات على المسلمين .

ولما انشغل المسلمون بغزواتهم في جنوب مرنسا ، وكفوا عن مهاجمة
جليقية ، تعددت غارات أهل جليقية على البلاد الاسلامية في شمال نهر
دويده ، وفي منطقة استرقة ولم يستطع عقبة بن الحجاج في حملته على
جليقية الانتصار عليهم ، لاعتصامهم في الجبال والمائل .

ولما كثرت الفتن الداخلية في الاندلس في عصر الولاة ازدادت فوه
أهل جليقية ، وكثرت غاراتهم على الاراضي الاسلامية ، وكانت مقاومتهم
قرطبة من الضعف بحيث لم تستطع قهر هؤلاء المغيرين . لذلك قويت هذه
الامارة النصرانية ، ورأى فيها نصارى اسبانيا الحصن الحصين والملاذ
المنيع الذي يبعد اليهم بلادهم التي استولى عليها المسلمون ، فلبسوا
النصارى من أسماء الاندلس الى بلابو يقدمون له العون والتأييد^(١) .

لما توفي بلابو سنة ٧٣٧ م على الأرجح ، خلفه ابنه فاهبلا ، ولكنه
لم يلبث أن توفي سنة ٧٣٩ م ، فخلفه ابنه الفونسو — دوق كانتبريا ،
واتحدت الامارتان في مملكة واحدة ، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة
جليقية ، وتمتد من بلاد البشكس شرقا الى ساطي ، المحيط غربا ، ومن
خليج بسكونية شمالا الى نهر دويده جنوبا^(٢) .

ويعتبر الفونسو الاول المؤسس الحقيقي لمملكة قشتالة الذين خاضوا
معارك متعددة عبر القرون انتصرت باستردادهم اسبانيا من المسلمين
بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة ١٤٩٢ م

وأتت الفرص للفونسو الاول لتوسيع رقعة دولته ، فقد استندت

.. ١١١١ : دولة الاسلام في الاندلس ٢١٦ .

.. (٢) نفس المصدر ٢١٢ .

الفتن الداخلية في الاندلس ، وكان من نتيجتها خراب الاراضى المجاورة لجلقية في شمال غرب الاندلس ، وفي سنة ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م حدث في انبلاد قحط شديد ، حتى هجر الكثير من سكان شمال غرب الاندلس من المسلمين بلادهم اذ لك شن الفونسو غارات على هذه البلاد ، واستولى عليها في غلة المسلمين ، وفي صراعاتهم المريعة مع بعضهم البعض ، واستولى الفونسو على استرقة وعلى كثير من انبلاد والضياع المجاورة وضماها الى هوزته ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م . وبذلك اتسعت رقعة المملكة النصرانية ، واصبح في امكانها التصدى للمسلمين بل وضم المزيد من اراضيهم الى مملكتهم الناشئة .

وعهد الفونسو بامارة كانتيريا - وهي القسم الشرقى من مملكته - الى اخيه فرويلا ، فشدد هجماته على اراضى المسلمين منتزعا الحرب الاهلية في الاندلس في عهد واليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وغزا الفونسو مدينة لك الحصينة ، واستولى عليها ، وهي القصى معاقل المسلمين في الشمال الغربى ، ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م ، وعبر الفونسو نهر دويره اكثر من مرة ، وعاث في اراضى المسلمين هسادا وتخريبا ، وظل يحارب مع اخيه فرويلا المسلمين ويوسع ملكه على حسابهم حتى توفي فرويلا سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م ولم يلبث أن لحق به اخوه الفونسو الاول سنة ٧٦٥ م ، خلفه ابنه فرويلا الاول .

عاصر فرويلا الاول ، عبد الرحمن انداىل ، وكان هذا الامير الاموى مشغولا بالثورات التى قامت ضده في الاندلس ، فانتهز فرويلا الفرصة فغزا لك ويرتقال وشلمنقة وسفوييه وآبله وسجوره وقتلته ، واستولى عليها وانتزعها من المسلمين ، واتساع الخراب والدمار في البلاد المجاورة ، وضماها الى ملكه . وبذلك قويت المملكة النصرانية ، واصبحت تسلك خطرا جسيما على ملك المسلمين في الاندلس .

تتبع عبد الرحمن الداىل الى الخطير الجسيم لهذه المملكة النصرانية . فشن عليها عدة غارات ، منها حملة بقيادة مولاة بدر اغارت

عنى آلبه والقلاع وتقع بين بلاد البشكس وجبال كانتيريا ، وأرغمها على أداء الجزية^(١) ولكن هزم النصارى المسلمين فى غزوات شسوها عليهم وقتلوا منهم الكثير .

وكان فرويلا شديد البطش فنار ضده رعاياه ، ولكنه كان يخمد الثورات بشدة وعنف ، وحدث انقسام فى المملكة النصرانية بعد وفاة فرويلا ، انتهت بعودة الوحدة إليها وحكم سيلو جليقية المتصدده ثلاث سنين وتوفى سنة ٧٨٤ م

انقسمت المملكة بعد موت شيلون وفى بداية عهد خليفته مورقاط (٧٨٣ — ٧٨٩ م) الذى حكم جليقية ، بينما الفونسو المطالب بالعرس تمركز فى الجزء الشرقى من الدولة فى نبره ، وهناك ، واستعان بالفرنجة ، فاستعان مورقاط ضده بالمسلمين الذى يشعر بالقرب منهم ، لأن أمه جارية عربية .

استطاع الفونسو ولد فرويلا أن يسترد عرش أبيه بعد وفاة مورقاط ، ولكن حيث انقسام فى البيت الحاكم انتهى بتولية برمند (٧٨٩ — ٧٩١ م) ومن بعده الفونسو الثانى (٧٩١ — ٨٤٢ م) . وكانت الدولتان المسلمة والنصرانية فى عهد هشام بن عبد الرحمن مشغولتين عن الصراع بينهما بالفتن والثورات داخلها .

انقسمت المملكة النصرانية بين برمند الذى استقل بالجزء الغربى من المملكة بتأييد الأشراف ، واستقل الفونسو بالجزء الشرقى ، لكهما تصالحا واتحدا فى وجه العدو المشترك ، وهو هشام بن عبد الرحمن الذى أعلن الجهاد ضد النصارى . ولم يلبث أن توفى برمند ، وتولى الفونسو حكم مملكة النصارى كلها : وبذلك عادت الى المملكة النصرانية وحدتها .

كان الفونسو يلقب بالعفيف ، وكان ملكا قويا تولى الملك سنة ٧٩١ م ، فأعاد للهوى والسكينة الى البلاد ، وأصلح أحوالها وادارتها ، وحسن

(١) عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ط ١ ص ٢١١ — ٢١٢ .

ثغورها وقواعدها ، واتخذ أويديو Oviedo عاصمة له وكانت مملكة جليقية تمتد من ولاية بسكونية شرقا الى المحيط غربا ، ومن خليج بسكونيه شمالا حتى نهر دويره جنوبا ، واستقلت عنها نافار وبلاد البشكس ، وقامت بها مملكة نصرانية •

طال حكم الفونسو الثاني حتى تجاوز النصف قرن ، عاصر خلالها هشام بن عبد الرحمن ، والحكم بن هشام ، وحفيده عبد الرحمن ، وفي خلال هذه الفترة ، نشبت بين الفريقين حروب متعددة ، ومن أهم هذه الاشتباكات التي هزم فيها النصارى شر هزيمة ، موقعة الصفرة في أقصى بلدان ومواقع جليقية سنة ٧٩٥ م / ١٧٩ م • وفي عهد الحكم بن هشام تجاوز الفونسو نهر دويره سنة ٨١٠ م / ١٩٣ م ، وهاجم الاراضى الاسلامية ، وتوغل فيها حتى قلعيه وأشبونه ، وعث في بلاد المسلمين فسادا فرد عليه الحكم بغزوة في جليقيه ، ضرب فيها المواضع التي اجتازها •

ولما غزا الفونسو الثغر الأعلى في عهد عبد الرحمن الأوسط أرسل هذا الامير حملة بقيادة الحاجب عبد الكريم بن مغيث في سنة ٨٢٣ م / ٢٠٨ م ، فغزت ألبه والقلاع ، وأغلزت على مدينة سالم ، ونكل المسلمون بالنصارى ، وخرّبوا بعض أراضى جليقية ، ودمروا مدينة ليون ، وأجبروا النصارى على صلح مهين •

ولما توفي الفونسو الثاني سنة ٨٤٢ م خلفه ابنه راميرو ، وقد شغل راميرو منذ توليه الحكم بقمع الثورات التي قامت ضده خصوصا ثورات الاشراف ، كذلك شغل عبد الرحمن الأوسط بصد انورمان ، ودرء خطرهم عن المملكة الاسلامية ، ولما انتهى عبد الرحمن الأوسط باصلاح التخريب الذي ألحقه النورمان ببلادهم ، انصرف الى غزو النصارى والجهاد في سبيل الله ، فسير ولده محمد في سنة ٨٤٨ م الى جليقية ، فاخترق بساطها ، وحاصر مدينة ليون ، وأحدث الخراب والدمار في هذه البلاد ، وتوفي راميرو سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام ثمانية أعوام •

ترجع أوردرينو على عرش أبيه ، وحرص في بداية عهده على تحصين بلاده من أخطار وهجمات المسلمين وأصلح القلاع والحصون ، وساعد بعض الثوار ضد حكومة قرطبة في بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، ولكن المسلمين أحبطوا محاولته ، وقضوا على الثورة .

ولما اشتدت الفتن في الدولة الأموية في الأندلس ، انتفض أوردرينو لنفسه ، وغزا مدينة قورية ، ثم غزا شلمنقة وهزم المسلمين ، وعاث فسادا وتفريرا في ديارهم ، فسير الأمير الأموي محمد جيشا الى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فسيطر على آلبه والقلاع ، وألحق عدة هزائم بالنصارى ، وهزم المسلمون النصارى عدة هزائم واعتزم الأمير محمد القضاء نهائيا على مملكة جليقية فسير السفن الى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ولكن الأسطول لم يستطع تحقيق هدفه بسبب الأحوال الجوية .

وفي سنة ٨٩٦ م توفي الفونسو الثاني ، وخلفه ولده الفونسو الثالث . وقد نشبت ضده عدة ثورات في بداية حكمه ، ولكنه أخمدها ، وظل يحكم البلاد قرابة أربعة وأربعين عاما ، اتحدت البلاد في عهده ، وقويت المملكة ، واستطاع خلال حكمه الطويل ان يوصل حدود مملكته الى جبال البرانس شرقا ، وعبر نهر دويره كثيرا الى اراضى المسلمين ، ووصل في غزواته الى ضفاف انتاجه ، وغزا عددا من المدن الاسلامية المتاخمة مثل مارده وقلمريه ويازو وقوريه وشلمنقة وبذلك أصبح في مركز قوى يستطيع به مواجهة المسلمين ومنعهم عن بلاده ، وهزم المسلمين في سموره بعد أن حاولوا مهاجمة ليون واسترقه ، وبلغت غزواته في بلاد المسلمين مارده ووادي آته .

كان امراء البيت الحاكم يعارضون حكم الفونسو ، ودبروا عدة

مؤامرات للتخلص منه ، وقبض على المتآمرين ، ومن بينهم ابنه غرسية ، ودبرت مؤامرة أخرى ضده قادها زوجها خمينا ، واشترك فيها أولاده ، وسيطروا على بعض بلدان المملكة . وخشى الفونسو من مغبة هذا الانقسام ، فتنازل عن العرش لولده الأكبر مرسية ، ولم يلبث أن توفي .

سميت مملكة جليقية بعد وفاة الفونسو مملكة ليون ، وانتقلت عاصمة الدولة من أوبيدو الى ليون المجاورة لأن نافار كانت تخشى من مطامع ليون في أراضيها ، وقد حارب غرسية انيجيز أردونيو ملك ليون الى جانب صهره موسى بن موسى في موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م

وخلف غرسية ولده هرتون ، ثم خلفه ابنه سانتشو غرسية ، وهو أول من تلقب في نافار بلقب ملك وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية . وقد حكم سانتشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض ضد الامير عبد الله عدة حروب وقائع ، ومع الامرات المجاورة كذلك .

ظهرت نبره على المسرح السياسى منذ بداية القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، وكانت قبل ذلك تسير في فلك ملوك جليقية أو مملكة الفرنجة ، واشتركت مع جليقية في الهجوم على منطقة الثغر الأعلى عام ٢٠٠ هـ - ٨٤٥ م ، فخرج اليهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن منيث في عدة معارك .

كانت مملكة نبره تقوم في غربى البرانس في بلاد البشكنس الجبلية وتسمى نافار ، وكانت بلاد البشكنس أو نافار منذ الفتح الاسلامى مسرحا للمعارك الحربية بين المسلمين والفرنجة وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وخسوها الى الملكة النصرانية ، ولما انصرف عنها الجلائقة بصراعاتهم الداخلية ، وبعدت غزوات المسلمين ، هاجمها المسلمون مراراً .

وقد استقل بها أحد الزعماء والقادة سنة ٧٩٩ م ويدعى آزوار ،

وأطعن نفسه أميرا على البلاد ، ولما توفي سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه
سانشو ، ولكن أحد الزعماء البشكنس عزله ، وولى مكانه ، ويسمى
انيجيز أريستا ، وفي عهده اتخذت نافار شكل المملكة المستقلة ، وتماقب
الملوك على الحكم في هذه المملكة .

وقد تحسنت العلاقات بين مملكة نافار النصرانية والمملكة
الاسلامية المجاورة وتسمى امارة بنى قسي ، وأرتبطت الدولتان
الحليفتان بعلاقة المصاهرة ، وقد رأى غرسيه انيجيز أن يتألف مع عمر
ابن حفصون الثائر ضد الحكم الأموي في الأندلس .

المغرب الاسلامي في القرنين الثاني والثالث للهجرة

١ — المغرب من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغلبية :

سقطت الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هـ فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله في طاعة أبي العباس . فلما توفي أبي العباس في سنة ١٣٦ ويومئذ أبو جعفر المنصور بالخلافة ، أقر ابن حبيب على ولاية أفريقية وأرسل اليه خلمة سوداء . وهو أول سواد دخل أفريقية . ثم كتب الى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه الى الطاعة ، فأجابه ودعا له ، ولكنه أرسل اليه رسالة أوضح له فيها سوء الاحوال الاقتصادية في أفريقية ويطلب منه ألا يطالبه بمال . فغضب المنصور وكتب اليه يتوعده وعذته أعلن ابن حبيب خروجه عن طاعته وأحرق خلع المنصور . ثم تعرض عبد الرحمن بن حبيب لمؤامرة دبرها أخوه الياس ، اذ دخل عليه وهو مريض وطعنه بسكين في صدره وقتله في سنة ١٣٧ هـ ، وتولى الامارة مكانه بينما فر حبيب بن عبد الرحمن الى عمه وانتقم مع عمه عمران على معاربه عمه الياس قاتل عبد الرحمن . فأعد جيشا لذلك الغرض ، ولكن الياس بادر ابن اخيه بالهجوم ، واشتبك الفريقان في قتال يسير انتهى في سنة ١٣٨ بالصلح على أن تكون أفريقية كلها لالياس وتكون قفصة وقسطنطينية ونفطة لحبيب وتونس لعمران . ولكن الياس كان يضر السوء بأخيه عمران ، اذ كان يخشى منه على اماره افريقية ، فعمل على التخلص منه أولا ، ثم يتفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب . فلما رحل حبيب الى مقر ولايته ، غدر الياس بعمران فقتله وقتل أنصاره من أشرف العرب وأسترجع تونس وعاد الى حاضرتة القيوان وقد اطمانت نفسه ظنا منه أنه أصبح سيد الموقف ، وبعث بطاعته لأبي جعفر المنصور . لتطهيرها من دنس ورجومة وتحرير أهل القيوان من طغيانها . فتصدى له الصفريه بقيادة عبد الملك الوردجومي في صفر سنة ١٤١ هـ ودارت

الدائرة على عبد الملك وأنهزمت جموعه وسقط صريحا ، وتمكن عبد الأعلى من دخول القيروان • ثم ترك عليها زميله عبد الرحمن بن رستم الفارسي أحد كبار علماء الإباضية وعاد إلى طرابلس استعدادا للملاقاة القوات العباسية التي سيرها أبو جعفر المنصور لمقاتلته •

أما المغرب الأقصى فقد اضطرب أمره بعد انهزام الصفورية في موغتنى القرن والاحتلام على يدي حنظلة بن صفوان ، وتفرقوا في نواحي المغرب الأقصى وانضم معظمهم إلى عسكر برغراطة بزعامة طريف بن شمعون وكان هرطقيا ادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفورية • كذلك انضم فريق آخر من الصفورية إلى أبي القاسم سمعون بن واصل المكتاسي في الموضع الذي أسست فيه سجلماسة ، وأبو القاسم هذا هو جد بني مدرار أصحاب سجلماسة •

وكان أبو جعفر قد بلغه ما ارتكبه قبيلة ورغومة في القيروان من المحرمات والفظائع فولى على مصر وأفريقية محمد بن الأئمت الفزاعي ، وسير من مصر جيشا عباسيا يقوده أبو الأحوص المجلي لاسترجاع أفريقية • فاشتبك العباسيون مع جيش عبد الأعلى في سرت في سنة ١٤٢ هـ فانهزم العباسيون • فعزل المنصور محمد ابن الأئمت عن ولاية مصر وولاه قيادة الجيوش في المغرب • فخرج ابن الأئمت على رأس جيش كبير عنقه خمسون ألف مقاتل ، وكان في جملة عسكره عدد من كبار القادة العباسيين منهم الأغلب بن سالم والمحارب بن هلال وفاجا ابن الأئمت قوات عبد الأعلى على غير استعداد للحرب فوضع العباسيون السيوف في الخوارج وأسفرت الموقعة عن مصرع عبد الأعلى ومعظم أتباعه في سنة ١٤٤ هـ وكان عبد الرحمن بن رستم قد تأهب لتجدة أبي الخطاب فلما وصل إلى قابس بلغه ما انتهى له مصر أبي الخطاب ، فحمل ولده وخرج من القيروان ولحق باباضية المغرب الأوسط ، فالتقوا حوله وبابوءه بالامامة ، فأسس مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ هـ وأستقر بها في سنة ١٤٥ هـ مؤسسا دولة بني رستم أول الدولة الرستمية •

أما ابن الأشعث فقد دخل القيروان في أول جمادى الأولى سنة ١٤٥ ، وأذن له أهل أفريقية بالطاعة وأكفى ببسط نفوذه على أفريقية إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها لتكون سدا منيعا أمام حركات الخوارج وتتابع على ولاية أفريقية من قبل ولكن ذلك لم يمنع حبيبا من أعداد الحدة للاستيلاء على القيروان ، والتف حوله موالى أبيه وأنصاره ثم زحف إلى القيروان وأستولى على الأريس فخرج إليه عمه الياس لمقاظته وأستبك معه اشتباكا خفيفا ، فلما جن الليل وتوقف القتال أوقد حبيب النار في معسكره وأوهم عمه في المعسكر المقابل أنه مقيم في معسكره ثم أسرى وأسرع بدخول القيروان فأستولى عليها ، وأخرج من السجن من كان محبوسا ، فكثرت جموعه ، فلما عاد الياس إليه تصدى له حبيب ثم نازله فقتله . فهرب أخوه الياس بعد قتله إلى قبيلة ورغومة وكانوا من غلاة الخوارج الصفرية ونزلوا في كنف أميرها عاصم بن جميل . فكتب إليه حبيب يلزمه برد أعلامه ولكن عاصم امتنع عن اجابته ، فزحف إليه حبيب وأصطدم معه في موقعة انتهت بهزيمته ، ففوقى أمر ورغومة وتقدموا نحو القيروان وسحقوا من تصدى لهم من أهلها ثم دخلوها في ذي الحجة ١٣٨ هـ فأمستلوا المحارم وأرتكبوا للكبائر . ثم ترك عاصم نائبا عنه في القيروان يسمى عبد الملك بن أبي الجعد وسار لمقاظة حبيب في قابس فأنهزم حبيب وأحتمى ببربر جبل أوراس ، فطارده عاصم وأستبك معه من جديد في قتال عنيف أسفر عن هزيمة عاصم ومقتله . وعندئذ تقدم حبيب إلى القيروان وحاول اقتحامها ، فهزمه عبد الملك وقتله في المحرم سنة ١٤٠ هـ . وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الخوارج على أفريقية والمغرب وفقد العرب كل سلطان لهم في هذه البلاد وأنقرضت بذلك دولة بني حبيب الفهرى .

وفي هذه الأثناء انتفض الخوارج الاباضية بنواحي طرابلس هذه الفرصة وبأياموا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح الملقبى اماما عليهم

في طرابلس سنة ١٤٠ هـ من خليج سرت الى قابس ، وانضم اليه معظم سكان المغرب الأوسط التشيعين بتعاليم الخوارج الاباضية وبايعوه أيضا بالامامة . أما افريقية فقد ظلت خاضعة لقبيلة ورغومة الصفرية المتطرفة وكان أميرهم المقتول عاصم قد ادعى النبوة وللكنانة ولذلك قاست ورغومة من الفساد والظلم والاستهتار بالدين بحيث استحلوا المحرمات واستهانوا بالمساجد وارتكبوا كثيرا من المفلطح في القيروان . وذكروا ان رجلا اباضيا شاهد في القيروان قوما من ورغومة أخذوا امرأة قهرا والناس ينظرون فأدخلوها الجامع ، فغضب الاباضى وقصد أبا الخطاب في طرابلس فأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول : « بيتك النهم بيتك » فاجتمع اليه حشد كبير من الاباضية في طرابلس الغرب وزحف بجموعة نحو القيروان وانتزعها من العباسيين بعد أن خلع ابن الاضمت عن ولايتها في سنة ١٤٨ ووليها عدد من الولاة هم : الأغلب بن سالم التميمي (١٤٨-١٥٠) الذي استشهد في تونس ، وعمر بن حفص الذي قتله الصفرية في ١٥٤ ، ويزيد بن حاتم الذي توفي سنة ١٧٠ وأخوه روح بن حاتم حتى وفاته سنة ١٧٤ ثم الفضل بن روح الذي قتل في سنة ١٧٨ ، ثم هرثمة ابن أعين (١٧٨-١٨١) ثم محمد بن مقاتل العكي (١٨١-١٨٤) الى أن تولى ابراهيم ابن الأغلب على امارة افريقية واستقل بامارته استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية في سنة ١٨٤ هـ .

وبولايه ابراهيم بن الاغلب يبدأ عهد جديد في تاريخ افريقية والمغرب .

٢ — دولة الاغلبة في المغرب الادنى (١٨٤-٢٩٦) :

شهد المغرب الاسلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه : ففى المغرب الادنى (افريقية) قامت دولة الاغلبة ومركزها القيروان ، وفى المغرب الاوسط (الجزائر) قامت

دولة الرستمين ومركزها تاهرت ، وفي المغرب الاقصى قامت أربع دويلات صغيرة هي دولة الأدارسة الحسنيين (نسبة الى أدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) في فاس ودولة بنى الحرار في سجلماسة ودولة بنى صالح في نكور ودولة بنى صالح بنى طريف البرغراطي في شالة وتامسنا . ودولة الاغالبة هي أهم هذه الدويلات جميعا ، والاغالبة أسرة مستتيرة حكمت أفريقية طوال القرن الثالث الهجرى ، أسسها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي الذي ثبته الرشيد في ولاية افريقية في سنة ١٨٤ هـ ، وهي أسرة عربية راقية عملت على نشر بنور الحضارة الاسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذها أى في أفريقية وصقلية وأقام امراؤها المدن والقصور وشيدوا المساجد والحصون وشجعوا الآداب والعلوم والفنون .

وأول أمراء هذه للدولة ابراهيم بن الاغلب (١٨٤-١٩٦ هـ) وكان من أفضل ولادة أفريقية ، فقد كان يجمع الى علمه وتفقهه في الدين وأدبه حسن الرأي والنجدة والبأس والحزم والقيادة ، ولم يل أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ولا أسفق على رغبة ولا أولى بمعهد منه .

وأتخذ ابراهيم مدينة القيروان عاصمة لولايته ، وأخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافة العباسية على تكوين قوة بحرية هائلة مكنت أعقابيه من بعده من غزو جزيرة صقلية وافتتاحها منذ سنة ٢١٢ هـ وغزو مالطة وسولطيا إيطاليا الجنوبية الغربية . ولقد أهتم ابراهيم بن الاغلب بالمعمران اهتماما خاصة ، فشرع في سنة ١٨٥ في بناء مدينة القصر الفديين التي تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان وسماها العباسية تعبيرا عن ولائه للعباسيين . ولم يخل عهده ابن الاغلب من الثورات والفتن ولكنها كانت لا تقاس بالنورث التي كانت تضطرم في أفريقية في العهد الصليبي .

وأعظم انجاز قام به الاغلبية هو فتح صقلية في عهد دولة زيادة الله ابن ابراهيم (٢٠١ — ٢٢٣) أعظم أمراء بني الاغلب وأفضلهم على الاطلاق ولم تتمم البلاد التونسية في عهدهم كما نعمت في عهده ، وكان رجل بناء وتشيد فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع الى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب مقدرة وكفاية حربية ، فقد تمكن من اخماد الثورات التي اشتعلت بمجرد تولية الامارة وعكف على الاصلاح والبناء والتشيد ، وتشهد بذلك آثاره في سوسة والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات . ومن مآثر زيادة الله غلبته بالاسطول الاسلامي وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس . هفى سنة ٢٠٦ بعث أسطوله الى جزيرة سردينية فغزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة وأهم للغزوات البحرية التي تمت في عهده فتح جزيرة صقلية . وترجع أسباب فتح صقلية الى العوامل الآتية :

١ — القضاء على غارات الروم وعودة الى سياسة الجهاد البحري التي جرى عليها ولاية بنى أمية .

٢ — كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية في الوقت الذي أفقرت بلاد المغرب من الخيرات وكانت صقلية لذلك تمثل أراضى جديدة يمكن استغلالها .

٣ — هناك عامل ديني هو الجهاد في سبيل الله ، ولا ننسى أن أهل أفريقية كانوا قد تفهموا الدين وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الروابط على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم .

ومن أسباب الفتح العربي لصقلية سبب مباشر يتلخص في أن رجلا يسمى فيمى عارض حكم قسطنطين — بطريق صقلية وأعلن الثورة ، وشق عصا الطاعة ، ذلك لأن حكومة بيزنطة كانت تشك في نوايا فيمى الانفصالية ، وعرضت بطريق صقلية على التتكيل بفيمى . وأعلن فيمى الثورة في سرقوسة ، ولكنه فشل ، فأعترم التخلص من البطريق ومن حكم بيزنطة ، فاستجد بالعرب .

أذن نوايا فيمى الاستقلالية والانفصالية كانت من أسباب استعائته بالعرب لتخليصه من بطريق صقلية . وتضيف الروايات التاريخية عاملا آخر ، وهو أن فيمى أحب أومونيزا الجميلة ، ولكن صاحب صقلية ، اغتصبها منه ، فأعلن الثورة ، واستجد ببنى الالعب . وهذه الرواية قد تبدو ضعيفة . ولكننا نستطيع أن نقول بأن هذا القائد فيمى كان طامعا في الملك وفي حكم صقلية . وكانت جزيرة صقلية قد تعرضت من قبل لغارات عربية ، فنهبت الروم الى هذا الخطر الداهم ، واتخذوا من صقلية قاعدة لحماية الامبراطورية عند حدودها الجنوبية ، فحصنوها بالقلاع ، ولم يتركوا جبلا الا وبنوا عليه حصنا ومن وقت لآخر كانت تخرج دوريات عسكرية تطوف بالجزيرة لمراقبة ، ما قد يشنه العرب من حملات على سواحل الجزيرة .

كانت بين أفريقية وصقلية هدنة ، ولكن استجداد فيمى بأمر أفريقية — زيادة الله — شجع هذا الأمير على نقضها ، ورأى انه آن الاوان ، وتهيأت الفرص لتحقيق حلم بيته المنشود في فتح صقلية ، وضم أراض جديدة الى دولة الاسلام ، الامر الذي يكسبه تأييدا ومكانة ومهابة في نظر المسلمين عامة والعباسيين خاصة ، كما انه آن الاوان لتأمين حدود بلاده من غزو بيزنطى عن طريق صقلية .

ومهما يكن من أمر جمع زيادة الله كبار رجال أهل القيروان والفقهاء والقضاة ، ومن بينهم اسد بن الفرات ، واستفتاهم في أمر الهدنة ، وتقرير مصر صقلية ، هل يبقيا تابعة للدولة البيزنطية ، أم يضمها الى

الدولة العباسية ودنيا الاسلام ، وانقسم المجتمعون قسمين ، فريق يرى ضرورة الجهاد ، وغزو أراضى صقلية ، وفريق يرى التريث وعدم نقض الهدنة ، ولا يوافق الفريق الأول في نقض الهدنة ، ولكن في النهاية تغلب رأى أسد بن الفرات بنقض الهدنة ، وقال لهم : ولا تنهوا وتدعو الى السلم وأنتم الاعلون .

وأنتصر رأى اسد حينما تأكد للامير زيادة الله وجود اسرى مسلمين في جزيرة صقلية ، فلا بد من فداء اسرى المسلمين ، والجهاد فريضة على المسلم . وأسند زيادة الله لاسد بن الفرات بقيادة جيش لغزو جزيرة صقلية ، وأقنع الاسطول الاغلبى الاسلامى من مدينة سوسة في منتصف ربيع الاول سنة ٢١٢ هـ في نحو مائة مركب ، وانضم الى هذا الاسطول مراكب فيمى .

وتعرض المسلمون لخطر داهم ومشقات وأهوال ، فانتشر بينهم الوباء وأهلكهم الجوع ، فمات الكثير من جند المسلمين ، وكل ذلك وزيادة الله في انشغال عنهم يفتن داخليه ، ومتاعب خارجية ، ولما انتهى من مشاكله ، أرسل نجدة للمسلمين مكنتهم من فتح بلرم — عاصمة صقلية — وكان فتح بلرم خطوة كبيرة وهامة في فتح باقى بلدان صقلية ، ذلك ان بلرم تقع على البحر ، ومن خلال البحر يستطيع المسلمون تلقى الامدادات من أفريقية ، كما أن بلرم صارت قاعدة عسكرية للمسلمين ، يتفدّها المسلمون لشحن الغارات على باقى بلدان صقلية وفتح مدنها وقرائها ، بدلا من القلاع التى كانوا يمسكون فيها من قبل ، ثم ان المنطقة حول بلرم خصبة ، ويكفيها ان تزود عسكرهم بما يحتاجون اليه من مسيرة وعولفه ، ومن بلرم كانت السرايا تخرج كل يوم فتشن الغارات في انحاء الجزيرة ، وتعود محملة بالغنائم والاسلاب وخاصة الرقيق . وأدت هذه الغارات المتكررة في أنحاء الجزيرة ، الى ضعف المقاومة الوطنية فاستسلموا للمسلمين ، وطلبوا منهم الامان ، ودخلوا في طاعتهم .

واجه المسلمون مقاومة عنيدة ومبررة من بطريق صقلية من ناحية ، وجيوش الدولة البيزنطية من ناحية أخرى وكانت أقوى مراكز المقاومة ، وأكثرها ثباتا قصر يانة وسرقوسة وطبرمين ومنطقة حمنش .

واجه المسلمون كل هذه الاخطار ، وحاولوا جاهدين اضعاف مراكز المقاومة ، واستولى المسلمون على مسينة فأنفتح أمامهم الطريق الى جنوب ايطاليا ، وقد صرفتهم هذه الجهود نحو جنوب ايطاليا عن تثبيت أقدامهم في صقلية ، وعن اتمام فتحها ، وأتاحت لحد صقلية فرصة لاسترداد قوتها ، وتقوية وسائل الدفاع عن استقلالها ، واعداد العدة لشن الهجوم على المسلمين ، ورغم ذلك ظلت السرايا الاسلامية تشن هجماتها صيفا وشتاء ، ونتيجة لاصرار المسلمين على مواصلة الفتح ، سقطت قصر يانة بيد العرب ، ذلك ان العباس بن الفضل حاصرها ثلاثة أشهر متوالية ، قاسى خلالها أهل المدينة الجوع والعطش والحرمان ، وفي فصل الشتاء غطى الدبح البقاع ، واعتقد أهل قصر يانة انهم آمنون من هجمات المسلمين ، وجعلهم البرد غير مستعدين للقاء العدو ، ولكن أحد البيزنطيين اتصل بالعباس ، ووعدته بتيسير مهمة المسلمين في فتح قصر يانة ، فأمدّه العباس ببعض فرسانه وقاد الرومى الفرسان الى مدخل المدينة ، ودخل المسلمون قصر يانة ، وشيد العباس بها مسجدا ، وأسر من فيها من بنات البطارقة ، وغنموا منها مغنم كثيرة . وبسقوط قصر يانة أصبح المسلمون أكبر قوة في صقلية يعمل لها كل حساب . وبات واضحا أن الحكم البيزنطى بصقلية على وشك الزوال . لذلك أرسلت بيزنطة الأساطيل لطرد المسلمين ولكن المسلمين قهروا كل مقاومة بيزنطية .

وحصن المسلمون قصر يانة ، حتى يتحصن المسلمون فيها من العدو ، وأتخذ الروم من سرقوسة مركزا للمقاومة وشنن الهجمات على المسلمين ، وكان القسم الشرقى من صقلية لا يزال مستقلا عن العرب ، ولما كان هذا القسم أقرب الى القسطنطينية ، فقد أتخذة أهل صقلية

مركزاً للمقاومة ، مستعينا بالامدادات البيزنطية ، وعادت القلاع التي استسلمت للمسلمين الى الثورة من جديد سنة ٢٤٦ هـ ومات القائد المسلم العباس بن الفضل في ساحة القتال ولكن ظل المسلمون يئسسون للغارات على سرقوسة وغيرها ، وكادت طيرمين تسقط في أيديهم .

ولى جعفر بن محمد أمر صقلية ، وظل يقاوم الاخطار التي واجهته في صقلية ، ويعمل على اتمام فتح البلاد ، وظلت سرقوسة تقاوم منذ أيام أسد بن الفرات حوالي نصف قرن ، وصعدت في مواجهة هجمات المسلمين القوية ، ولكن اهلها ضعفوا ووهنوا في عهد جعفر ، حينما استولى على بعض أرباض المدينة ، ودمر المسلمون مراكب الروم التي جاءت لنجدة سرقوسة ، وحاصر المسلمون البلدة تسعة أشهر قاسى فيها الأهليون اليأس والجوع والحرمان واعد المسلمون معدات كثيرة لحصار البلدة ، وضعف الأهليون بسبب نفاذ المؤن والمعدات ، واضطرب أهل البلدة وعم فيها الاضطراب بسبب البحث عن القوات ، ونهب الناس بعضهم بعضاً ، وضعف اهلها ووهنوا ، وكان جيش صقلية ضعيفاً ، اختلطت فيه جنود من جنسيات تسمى . بينما يسود الجيش المسلم النظام والطاعة لوامر قائدهم الأعلى . وخربت المحينة ، وتمكن المسلمون من أسر الكثير من أهل البلدة ، والحصول على الغنائم ، ونقل العرب غنائمهم واسراهم الى بلرم ، ونارت في نفوس هؤلاء الاسرى عواطف الوطنية ، وتطلعوا الى مقاومة العرب .

ويحدثنا صاحب كتاب العرب في صقلية بأن شيود وسيوس نقل مع الاساقفة ورئيسهم صوفرنئوس بعد خمسة أيام الى الامير الاعلى ، ويعنى به والى صقلية ، فوجدوه «جالسا في رواق وقد احتجب عن الاعين خيلاء وجبروتا» وتحدث الأمير الى رئيس الاساقفة والمترجم بوجه الحديث بينهما في جدل ديني قصير ، ثم أذن لهم فأنصرفوا^(١) .

(١) انظر : احسان عباس « العرب في صقلية » .

كان مسقوط سرقوسة نهاية محاولات طال مداها ، وقد بقى القسم الشرقى غير خاضع للمسلمين ، وظل الروم يجددون محاولاتهم لاسترداد ما فقدوه ، وظلت قطنانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة في جنب الدولة الاسلامية ، وكانت الروح الدينية في هذه المنطقة ذات أثر في اخلاء روح المقاومة ، وظل والى بلرم يفرج بجيشه أو يبيت سراياه ، ويفسد الزروع والثمار ، ويحرق الكروم ، ولا قرر ابراهيم بن الأغلب الخروج للجهاد سنة ٢٨٩ هـ ، استطاع فتح طبرمين وكان وقع الخبر على سماع الامبراطور مؤلا ، وارترك عمل ابراهيم في منطقة دمنش ، ولكن منيته لم تمهله ليتم فتح هذه المنطقة وأخذت الفتن المحلية تشعل بال المسلمين ، ووافق ذلك ظهور المبيدين وسقوط الأغالبة ، وكانت مهمة أول والى عبيدى على صقلية أن يحارب دمنش ، ولكن استمرار الفتن مدة طويلة أراح شبه الجزيرة من الحاح الجيش الاسلامى ، حتى طبرمين التى فتحتها ابراهيم عمرت من جديد ، واضطر أحد ولاة الكلبين على الجزيرة أن يعاود فتحها سنة ٣٥١ هـ ويدمرها ، وبقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماما بسلطان المسلمين الى آخر أيامهم بالجزيرة ، وقنع منها الولاة بالجزية ، ووجهوا جهودهم الى الفتح جنوبى ايطاليا •

وخضع أهل صقلية للأنظمة المالية الاسلامية المتعارف عليها في افريقية ، وازدهرت أحوالهم الاقتصادية على الرغم من كثرة الحروب وتميزت الاحوال الاجتماعية ، باختفاء العنصر البيزنطى صاحب السيادة على الجزيرة ، وتحضر العبيد بدخولهم في الاسلام ، وظهرت عناصر جديدة في المجتمع من العرب والبربر والفرس والفراسانيين ، كما نهضت صقلية لزهارة في الثقافة الاسلامية ، وأصبحت المساجد بمثابة مدارس لتعليم الفقه المالكي ، وألف سالم بن سليمان الكندى قاضى صقلية كتابه في الفقه المعروف بالسليمانية •

وانتشر علما القراءات والتصوف ، ووعت الرباطات مولحها
ومن أبرز نتائج الفتح الأعظم لصقلية لتتسفال الجند بحركة الجهاد
في الجزيرة بدلا من انصرافهم الى الخلافات والمشاحنات فيما بينهم ،
الأمر الذي جنب دولة الأغالبة ويلاتهم .

يضاف الى ذلك انتعاش الأحوال الاقتصادية في افريقية بعد
حصول العرب الفاتحين على الكثير من الخنائم وتحف الكتائس ولم يعد
البيزنطيون أصحاب السيادة الحقيقية في حوض البحر المتوسط ، وفقدوا
موردا ماليا هاما بانفصال صقلية عنهم وأدى اللقاء بين البيزنطيين
والأغالبة ، الى استفادة الأغالبة من الفن البيزنطى ويتجلى ذلك بوضوح
في القلاع والحصون والمعائر التي شيئت في افريقية في عصر الاغالبة .

الأغالبة والفرنجة :

بدأ العداء بين الاغالبة ودولة للفرنجة سنة ٢٠٦ ٨٢١ م وشنت
الفسن الاغلبية عدة غارات على سردينية عادت محملة بالغانائم وشن
الفرنجة بحورهم غارات على افريقية ، واشتدت غاراتهم حتى بلغت
أبواب القيروان ، ولم ينسحبوا الا بعد جهود مضنية قادها محمد بن
سحنون ، واشتد العداء بين الاغالبة والفرنجة بعد حملة الاغالبة على
صقلية ، وعبورهم مضيق مسينا الى شبه الجزيرة الايطالية ، التي كان
يخضع معظمها للكلروانجية .

تسجعت العناصر المناوئة لنظام الحكم في ايطاليا الاغالبة على غزو
الجزيرة ، فقد نشب نزاع بين دوقية نابلى ودوقية بنيفنت اللومباردية
وانتهى هذا النزاع بمقد هدنة بين البلدين بمقتضاها وافقت نابلى على
أداء جزية للادوق سيكر للومباردى ، ولم يوافق لويس التتقى اميراطور
الفرنجة على مساعدة نابلى في نزاعها ضد اللومبارد . اذلك لم ير دوق
نابلى أندريه بدا من الاستمانة بالأمر الأعظمى في بلرم بصقلية ، واستطاع
أسطول الأغالبة أن يرفع الحصار عن اللومباردى الذي كان مفروضا على

نابلي ، لذلك أضطر سيكر على عقد صلح مع دوق نابلي ١٢٢١/٨٣٧ ،
ومن ثم بدأ التحالف بين نابلي والاغالبية .

ورأى الاغالبية في وجودها في جنوب ايطاليا تأمينا لجزيرة صقلية
من غارات البيزنطيين عليها ، لذلك رأى الاغالبية ضرورة ضرب معاقلهم
في الطرف الآخر من مضيق مسينا ، وبصفة خاصة أسطول البندقية
الذي كان يهدد شمال صقلية . وتوفي سيكر سنة ١٢٢٥ وانقسمت مملكة
اللوينبارد الى امارتين متنازعتين هما بتيقنت وسالرن ، وشجع ذلك
الاغالبية على العبور الى شبه الجزيرة مرة أخرى ، واتجهوا الى الفتنة
المنظمة وقد اتت لهم المدن والمعاقل في أرض قلورية وأنكبورده ، وانتصرو
فيها بصفة دائمة ، ومن أهم هذه المدن مدينة تارنت الشهيرة كما ضربوا
كابوا في غزوة خاطفة ، وأحرق الاسطول الاغلبى سفن البندقية التي
حاولت استعادة تارنت سنة ١٢٢٦ / ٨٤٠ م .

وواصل الاغالبية زحفهم حتى وصلوا نهر البو ، واستولوا على
باري ، واتخذ الاغالبية من باري قاعدة عسكرية تفرج منها السرايا لشب
الغارات على سائر أنحاء شبه الجزيرة .

وأثبت دوق نابلي حسن نواياه من الاغالبية ففي سنة ١٢٢٨ - ٨٤٢
وقف الى جانب الاغالبية أثناء حصارهم مدينة مسينا في صقلية ولك
نابلي عادت عن موقفها الودى من الاغالبية ، ونامصب دوقها العد
للاغالبية ، وواصل الاغالبية غاراتهم على شبه الجزيرة الايطالية حت
استولوا على أربعة وعشرين حصنا .

وتعرضت روما نفسها لغزو الاغالبية بعد أن استطاع المسلمون ا
صقلية الاستيلاء على مسينا ، ويبدو أن هدف الاغالبية في ذلك الوقت
فتح جنوب ايطاليا ، وقد باغت الاغالبية مدينة أوسنتي عا
التتير ، ووصلوا الى أسوار روما سنة ١٢٣٣ ، وهاجموا الجانب الغربي
لأنه لم يكن محصنا وغنموا غنائم كثيرة ، واستولوا على كنوز القديس

بطرس والقديس بول ، وعادت الحملة الاغلبية الى أفريقيا ، حين تعرض لها قيصر بين الدوق سرجيوس حاكم نابلي .

وانتسفل الملك الكارولنجي عن الاغلبية بغزواته خارج ايطاليا وازداد الخطر الاغلبى على جنوب ايطاليا بتخريب بنيفنت وحصار جاثيه حول منتصف عام ٧٧٣ / ٨٤٦ ، لذلك ظهر لويس الثانى فى جنوب ايطاليا على جيش قوى لمقاومة الاغلبية ولكن الاعالية انتصروا عليه ، ولم يستطع الملك أن يجمع شمل الامراء الايطاليين لدفع خطر الاغلبية عن ايطاليا .

وانتهز الاغلبية الفرصة فأغاروا على سواحل الكارولنجية فى ايطاليا وخارجها ففى سنة ٧٣٥ / ٨٤٩ سقطت مدينة آرل فى ايديهم كما عاودوا غزو روما وجهازوا لذلك أسطولا كبيرا فى جزيرة سردينية ، وأبحروا تجاه مدينة أوستى ، ولم يستطع المسلمون اقتحام مصب للتير لحصانته ومناعته ، ودمرت عاصفة عاتية الاسطول الاغلبى .

وأظهرت تهديدات الاغلبية ضعف البابوية وعدم قدرتها على مواجهة الغزو ، لذلك لم يجد البابا مناصا من التسليم للويس الثانى بتبنى الدفاع ضد المسلمين فى الغرب ، خصوصا وأن الامارات الايطالية لا تستطيع الاضطلاع بهذا العبء بسبب ما بينها من خلافات . ولم يستطع لويس الثانى مواجهة الاعالية فى جنوب ايطاليا ، لذلك تمكن الاغلبية من الاستقرار فى جنوب ايطاليا ، وعسكر الجند الاغلبية فى المنطقة . فتدخل البيزنطيون لطرد العرب من ايطاليا ، واستولى الامبراطور الميزنطى على بارى ، لذلك ضعف شأن الاغلبية فى جنوب ايطاليا وشنوا الغارات على السواحل الغربية لشبه الجزيرة .

ويتولى شارل الاصلح حكم الامبراطورية ويتفليه عن أمور ايطاليا ازداد نفوذ الاعالية فى جنوب ايطاليا من جديد ونجح الاغلبية فى مصنعة بعض الامراء اللومبارد الصغار فى الجنوب ،

بل ظهروا في حقبة نابلي ، وحددوا روما نفسها ، وتولوا معهم بعض موظفي البلاط البابوي على تسليم المحينة اليهم عام ٨٧٦/٨٧٣ م ، ولما ضعف البابا عن صد الاغالبية ولم يجد عوناً من الامراء والملوك ، دفع للاغالبية اتاوة مالية كبيرة مقابل الكف عن روما . وفي نفس الوقت اتجه البابا لبيزنطة لتخليص بلاده من الاغالبية .

وكان في امكان الاغالبية الاستيلاء على ايطاليا كلها لولا ضعف الاغالبية بعد موت ابراهيم بن أحمد ، واضطربت دولة الاغالبية في افريقية في عهد ابنه أبي العباس عبد الله ، وانشغال خليفته بزيادة الله الثالث بمقاومة الخطر الشيعي ، وأدى ذلك الى انصراف الاغالبية عن أعمال الفتح في ايطاليا ، وكان سقوط الدولة الاغالبية على يد الفاطميين الشيعية خلاصاً لايطالياً من الخطر الايطالي ومع ذلك فقد احتفظ الاغالبية حتى سقوط دولتهم بعدة قواعد حصينة في ايطاليا مثل سابينو شمال بنيفنت وجنوب بسطوم .



كان عصر الاغالبية عصر ازدهار في تاريخ افريقية ، فلم تعرف هذه البلاد منذ العصر الروماني ازدهاراً اقتصادياً كما عرفت أيام الاغالبية ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حتى أولخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاة على افريقية وقيام البربر بالثورات على حكامهم ، والفتن الموكبة لغازات سكان الجبال والبدو على المدن والسهول . وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الافريقية تعرف الامن اللازم لقيام الزراعة واتصال عبور القوافل التجارية . وكان البناء الاقتصادي في افريقية عند بداية الفتح العربي للمغرب في غلبة التصدع وعجلت ثورة كسيلة والكاهنة على هذا التصدع وأتى عليه تشدد أمراء بني أمية في جبالية الضرائ ومنايع ذلك من حركات بين حضود البربر الفوارج المتسادين بالمساواة . ولما قامت أسرة الاغالبية بأماة افريقية أحض المزارعون بنوع من الاستقرار النسبي كانوا يفتقدونه منذ عهود طويلة وفي ظل هذا الامن الذي ساد

في معظم عهود الاغالبية زاحت المحاصيل الزراعية ولم تتعرض أفريقية للقطع . وقد أبدى البيهقي الجرافى دهشة لظهور الخضرة وكثافة الأشجار في المنطقة الممتدة من قعودة الى الساحل ، حيث تسود زراعة الزيتون والنخيل والكروم أما المنطقة الواقعة شمال قعودة فكانت مزارع الحبوب . ومن حيث ثروة أفريقية المعدنية فقد اشتهرت بمجانة بمعادنها الكثيرة لا سيما الفضة والحديد والرصاص . ويفضل توفر المعادن ازدهرت الصناعات في عصر الاغالبية ومنها صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن والسيوف والسروج ولجم الخيل وصناعة التحف الخزاجية وكان في القيوان حى خاص بالزجاجين مما يدل على شهرة القيوان بهذا النوع من الصناعات . أما صناعة الخزف فقد تأثرت في أفريقية بالتقاليد العراقية حيث كانت ترد على القيوان القراميد المذهبة البغدادية لترين قصور الأمراء . كذلك اشتهرت أفريقية بصناعة السجاد والمنسوجات وأهمها الثياب السوسية للرقيقة ناصعة البياض .

وأزدهرت الحياة التجارية في القيوان أزدهارا عظيما وكثرت في أيدي أهلها الاموال بسبب التجارة وكانت القوافل التجارية تسير في الطرق المؤدية الى أفريقية والمغرب آمنة مما يدل على الرخاء الاقتصادي والاستقرار .

تطور المجتمع الاسلامى في أفريقية في العصر الأغلبى ، واستقرت البلاد ، وانتعشت الحياة الاقتصادية فنمت المدن ، واتخذت طابعا اسلاميا مثل القيوان وتونس وموسه ، فازدانت بالمساجد والمنشآت العامة كصهاريج الماء ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار رجال الدولة .

ومن أبرز سمات المجتمع الاسلامى في أفريقية في العصر الأغلبى تماسك هذا المجتمع في عقيدة واحدة ومذهب واحد ، هو مذهب أهل السنة ، أما الخوارج فكانوا قلة في هذا المجتمع لا تأثير لهم في تطور شؤونه .

واهتم الولاة المالبة بتطوير جامع القيروان وانشاء أسواق في
القيروان وتونس ، وانشاء الدور للمرابطين والزهاد ، والمحارس على
السلحل .

ولكن د . حسن مؤنس^(١) يقول بأن بنى الاغلب هم الذين أدخلوا
الحضارة الاسلامية في افريقية والمغرب الاوسط ، وجددوا مسجدي
القيروان وتونس الجامعين ، وهما مسجد عقبة ، ومسجد الزيتونة ، وقد
أنفق زيادة الله بن الاغلب الاموال الطائلة في تجديد مئذنته ، واعطائه
الصورة الرائعة التي هو عليها الآن ، وكان يقول : ما أبلى ما قدمت عليه
يوم القيامة وفي صحبتي أربع حسنات : بنائي المسجد الجامع بالقيروان
وبنياني قنطرة أم الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة وتولييتي أحمد بن
أبي حمزة قضاء افريقية . وهذا يدل على اهتمام زيادة الله بتمعيم بلاده ،
واصلاح أحوالها ، ونشر العدل بين ربوعها . واهتم ذلك باصلاح جامع
تونس فأمر ببناء قبابه المضلعة ، ووضع فيه أعمدة الرخام ، وزينه
بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، كما أمر ببناء القبة
الكبيرة في جامع القيروان التي تعتبر من أجمل القباب في تاريخ المساجد .

ومن الآثار المعمارية الرائعة التي خلفها الأغلبية ، جامع سوسة
الذي جدد بناؤه خامس الأمراء الأغلبية ، أبو العباس محمد بن الأغلب .

كذلك اهتم أمراء الأغلبية بالمنشآت العسكرية مثلما اهتموا
بالمنشآت الدينية ، فلقاموا دار صناعة في تونس وسوسة ، كما شيد
الأغلبية الرباطات ، وهي بيوت يقيم فيها المجاهدون في سبيل الله ، سواء
رجال تطوعوا للجهاد أو جند في جيش الدولة ، وقد تضخم الرباط بمرور
الزمن حتى تحول من معسكر للمجاهدين الى مدينة كبيرة تتضمن
معسكرات ومساكن وأماكن للحراسة وأخرى للعبادة ، ويرعى هذا الرباط
ويديره شيخ من رجال الدين والتقوى والجهاد ، ينظم شؤونه ، ويقود

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٦ .

رجالہ ، ویصمرہم بشؤون دینہم ، ویحدد واجباتہم نحو الله والوطن .
كان الشيوخ والفقهاء والزهاد رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم
أمام الحكام ، لأن بنى الاغلب لم يختلطوا بالبربر ، وانزلوا في مدنهم
الموكية ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بالعامّة
الا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وكان الفقهاء في الغالب يكرهون
التردد على الحكام ومجالستهم ، لأنهم في نظرهم أهل ظلم ، ولا يتقون
الله في القول والعمل ، لذلك كرهوا منصب القضاء ، وإن كانت للمسلطات
ترغهم عليه أحيانا .

ومن أبرز الفقهاء في ذلك العصر سحنون وهو أبو سعيد عبد السلام
ابن سعيد بن حبيب النخعي ، كان يجلس في جامع القيروان يعلم الطلاب
الفقه ويفتي ، ويعلم طلاب العلم علوم الدين وآداب السلوك ، وقد عاصر
الأمراء الاغالبية الاربعه ، وكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وينوم
المكتم على ظلمه ، وينصحه ، ويصبره من معصية الله ، لذلك تعرض
للإضطهاد من قبل زيادة الله الاول ، وفي عصره أصحرت الدولة العباسية
أوامرها بامتحان الفقهاء والقضاة في قضية خلق القرآن ، وكان سحنون
هو وكثير من فقهاء المغرب يرفضون القول بخلق القرآن ، وقبل أن يتعرض
سحنون للمعذب انتهت المحنة ، وتوقف تعذيب المعارضين للقول بخلق
القرآن .

والى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف للسمعاع عن مالك بن أنس ،
وهو المعروف بالمدونة ، وهي كتاب فقه على المذهب المالكي ، يمرض لمساائل
الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضا بليغا وموجزا ، وتعتبر
المدونة من أشمل كتب الفقه الاسلامي (١) .

ويعتبر حكم الاغالبية فترة انتقال في تاريخ افريقية ، فقد تحولت
البلاد من مجتمع مضطرب الى مجتمع له سماته وخصائصه من البربر

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٩ .

والعرب الوافدين والخراسانيين والاندلسيين يعملون جميعا بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويندمجون مع بعضهم البعض ، ليظهر من هذا الاندماج مجتمع جديد ، يضم خلاصة هذه العناصر ، وخصائصها وميزاتها ، ويبرز شخصية هذا المجتمع المتميزة .

وفي أفريقية ظهرت المدن بكل امكاناتها بها المساجد الفخمة والقلاع الحصينة والاسوار والقصور النفيسة ، وظهرت هذه البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي شعبا اسلاميا عربيا مكتمل التكوين ، وله مكانته الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الاسلامي في عصره الذهبي (١) .

٣ - دولة الادارسة في فاس

استطاع العلويون بعد ثورات متعددة في العهد الاموي وفي العصر العباسي الاول تحقيق هدفهم الرامي الى اقامة دولة يحكمها امام من ال بيت رسول الله ، ذلك هو ادريس بن عبد الله وهو الاخ الرابع لابناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، واستشهد اخوته الثلاثة في ثورتهم ضد الخلافة العباسية ، وأولهم هو محمد ذو النفس الزكية ، وثانيهم ابراهيم شهيد باخري ، وثالثهم يحيى بن عبد الله ، ورأى ادريس البعد بثووته عن مركز الخلافة العباسية ، فلهجة الحو المغرب الاقصى وأيده البربر . وأقام دولة الادارسة .

ودولة الادارسة هي دولة طويلة العمر ، قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، واستمرت حتى أواخر القرن الرابع الهجري أي أنها استمرت قرنين ونصف قرن أي ضعف ما عمرته دولتا الاغالمة والرمثيين ، واستطاعت أن تصعد في وجه دعاة الفاطمية ، وحافظت على استقلالها من دولة الامويين في الاندلس ولكنها رغم صغرها أخذت دورا حضاريا بارزا في تاريخ المغرب سواء في نشر الاسلام أو في تحرير

(١) المصدر السابق . ص ١٠٠ .

البلاد وفد ادريس الى الغرب الاقصى ومعه مولاة راشد يقال
لته من أصل بربري ، وكان راشد يقرى بالتجارة ويظهر بأنه السيد
وادريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره ، ذلك ليخفى شخصيته
أمام الناس وفي خلال سنة ١٧١/٧٨٨ ظهر الاثنان في طنجة وأخذ
راشد يدعو لأمير علوي يحمل راية الاسلام ، ويظلم الناس من الظلم
والزندقة .

وقد التفت الناس حول راشد حيث جذبهم الدعوة لرجل من آل
بيت رسول الله ، وواصل راشد الدعوة بين أفراد قبيلة أوربه ، وكثر
أنصاره ومؤيدوه في بلده ولبلى ، وهي أصلح ما تكون كمبرك لدعوة
سياسية ، لانها مركزا تجاريا ممتازا وسوقا عظيما للقبائل ، وتشهد
تجمعات كثيرة من البربر ، ونزل ادريس مدينة ولبلى حوالي ١٧٢ ،
وبدا يدعو لنفسه ، وأيده شيوخ أوربه وراوا فيه خير منتقد لهم من
سلطان برغواطه ، وتطلخوا الى أن يقيم بهم دولة مستقلة مثل
دولة بني رستم في تاهرت خصوصا أن هذا الداعي من آل البيت ،
وبعد جهد ليس باليسير عهد شيوخ القبائل الى ادريس بحكم ولبلى
وزعيم الجناح الغربي من قبيلة أوربه ، وتبعه بعض أفراد القبائل
المقيمة في تلك النواحي ، وكانت ناقمة على برغواطه ، وواصل
ادريس بث سلطاته في تلك النواحي سلما أو حربا حتى امتد سلطانه
في أقل من عام الى بقعة كبيرة في الشرق الاقصى .

وقد استاء الرشيد من اقامة دولة الادارسة ، فقد اقتطع ادريس
جزءا من دولته ، ورأى الرشيد أنه من الصعب ارسال جيش للقضاء
على هذه الدولة لبعد المسافة ، ولأن ادريس يتمتع بتأييد البربر ،
وينسب المؤرخون الى اعرشيد بأنه لجأ الى التآمر للتفليس من غريمه ،
فأرسل طبيبا يقال له الشماخ ، قدم لادريس دواء فيه مادة سامة
قضى عليه ، وتوفي ادريس بعد حكم دام ثلاث سنوات مسنة
١٧٥ / ٧٩١ م .

حافظ راشد على استقرار حكم الدولة الجديدة في آل ادريس ،

وقد ترك ادريس جارية له حاملا ، فاتفق ادريس مع شيوخ القبائل على الانتظار حتى تلد الجارية ، وأنجبت ولدا ، فظل ادريس وصيا عليه حتى بلغ العاشرة من عمره وولاه سنة ١٨٦ م حكم الدولة للجديدة •

ولى ادريس الثانى الحكم خلفا لابيه — وهو طفل — فكفله راشد ، وأحفظه القرآن في طفولته وعلمه الحديث وعلوم اللغة وسير الملك وأخبار الماضين وأيلم للناس وركوب الخيل والرمي ، والخلاصة أعده للملك غير أعداد •

ولما تهيأ ادريس للملك ، أخذ راشد له البيعة من سائر القبائل سنة ١٨٦ هـ ، ولكن ابراهيم بن الاغلب خشى على ملكه من دولة الادارسة ، وكان يرى أن راشد هو المدير الحقيقي لهذه الدولة ، لذلك دبر مؤامرة للتخلص منه ، على أن هذا العمل لم يؤثر ولم يضعف دولة الادارسة ، بل تولى أبو خالدة يزيد بن الياس العبدى الاشراف على المملكة واستقرت الامور ، وقويت الدولة •

ازدادت قوة ادريس بتولده للعرب عليه ، وقربهم ورفع منازلهم ، وجعل منهم بطانته دون البربر • وبذلك خرج ادريس من سيطرة البربر على الحكم •

قرر ادريس الثانى بناء مدينة ليقيم فيها هو وخاصته وجيشه ووجوه مملكته ، واشترى أرضا في موضع مناسب لبناء مدينته ، وشرع العمال في البناء في موقع يقع بين جبلين صغيرين ، على ضفتى نهر صغير وهو نهر فاس ، وبدأ البناء في سنة ١٩٢ هـ بمحوة الاندلس ، وقد سمي هذا الشق من المدينة فيما بعد باسم المهاجرين الذين أجلهم الحكم ابن هشام عقب الفتنة الرضوية ، وشيد ادريس سور المدينة ، والمسجد الجامع ، وأما عدوة القرويين فانها أسست سنة ١٩٣ هـ ، وأذن ادريس للناس ببناء الدور وغرس الأشجار والبساتين حولها ، وبنى جامعا

متصلا بمقره ، وهو المعروف بجامع الشرفاء ، وعقب اتمام أسوار شقى المدينة والجامعين ، أنزل ادريس الثانى الولفين عليه من الاندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت عدوة الاندلس وأنزل الولفين من القيروان الذين كانوا معه بالعدوة الغربية ، وسميت عدوة القرويين ، ثم أمر بزيادة البناء والخرس والدور والمساجد والحواليت ، وعمرت الارض وكثرت خيراتها ، وقصدها الناس من مختلف المناطق للإقامة والتملك ، وسكنها الطماء والادباء والتجار والصناع . وهكذا كانت مدينة فاس عبارة عن مدينتين منفصلتين مسورتين ، كلتاهما فى سفح جبل ، ويفصل بينهما نهر ، تمتد عليه جسور ، ويستمد مياهه من عين غزيرة ، وقد احتفظت كلتا العدوتين بكيانها على النمط الذى خطه ادريس الثانى حتى عهد ملوك زنانه فى أواخر القرن الرابع الهجرى . فكان لكل من المدينتين مساجدها وأسواقها وولاتها .

حاول ابراهيم بن الاغلب التخلص من ادريس الثانى ، وذلك باحداث الفرقة بين أصحابه وحملهم على مبيعة الرشيد ولكن هذه المؤامرات باءت بالفشل ، ثم خرج ادريس سنة ١٩٧ هـ لنزو من بقى من الكفار بنفيس ، ودخل هذه المدينة ثم اتجه الى الجنوب ، واستولى على مدينة أغمات ، وبعدها أخضع البلاد بين المنطقتين ، ثم دخل تلمسان صلحا وقضى فى تلمسان ثلاث سنوات نظم أمورها ، وأضعف الفوارج ، وبعدها عقد هدنة مع الاغلبية ، أمن بها من بطش الاغلبية وتوفى ادريس الثانى سنة ٢١٣ هـ .

ويعتبر ادريس الثانى بحق المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة وهى أول دولة كبيرة فى المغرب منذ الفتح الاسلامى — فقد تمكن من حرق خطر الاغلبية ، وسيطر على البربر سيطرة كاملة وحد حدود مملكته — التى كانت تضم أوربه — عبر جبال الاطلس الاعلى فى جنوب مراكش حتى درعة ولذلك ضمن لنفسه الاستفادة من موانئ المحيط الاطلس والسيطرة على مضيق جبل طارق من طنجه وسبته قاعدتا الزحف الى الاندلس .

ومن أهم انجازات ادريس الثانى التوغّل عبر الجبال المنيمة ومواجهة القبائل شبه المتوحشة المتمصمة بهذه الجبال ، والتي ظلت في معزل عن الدنيا ، واجتاز ادريس الثانى هذه الصعاب ، ونشر الاسلام بين أهل هذه الجبال الذى امتد منها الى الصمّارئ الواسعة التى تمتد وراءها . ومن أهم انجازات ادريس القضاء على الخوارج الصفرية الذين أضعفوا بلاد المغرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا أما خوارج بنى مدرار والدولة الرستمية فقد تمّ ايش ادريس معها سلميا .

بلغت دولة الادارسة — كما قلت — أوج عظمتها في عهد ادريس الثانى ، وأما عهد ابنه معد بن ادريس ، فهو يمثل استقرارا للامور ، والمحافظة على المكاسب التى حققها أبوه ، وأعقبه عهد تدهور كبير بقيام الدولة الفاطمية بالمغرب ، والتنافس بينهم وبين الامويين في الاندلس .

تأسيس مدينة فاس

في الواقع نشأة مدينة فاس ، هو نشأة مدينتين احدهما قروية جدا من الاخرى ، وان بقيتا مستقلتين برغم هذا سنة واحدة ويستمرى الانتباه كيف استطاع ادريس الثانى القيام بهذا العمل الضخم على الرغم من صغر سنه ، تأسيس مدينتين متباينتين في مكان واحد ، وجعل لكل منهما سورا بدلا من احاطتهما بما يسور واحد ، وحقيقة الامر أن مدينة فاس قد بنيت في سنة ١٧٣ هـ عندما دخل المغرب ادريس بن عبدالله هاويا من تعقب أبى جعفر المنصور له حيث التفت حوله البربر عند ذلك ، وجعلوه على رأسهم وبنوا له مدينة فاس على مستنقع عشبى ، وعندما حضرت الاسس — استكشفت فاس في الأرض ، وهكذا تسميت بمدينة فاس ، وضربت بها النقود ابتداء من تاريخ غير محدد ، ولكنه يرجع على الاقل لسنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م ، ويقضى ادريس الثانى ولايته في المدينة الجديدة ولا كان ولما بالتجديد ، بنى هو الآخر في الجزء الواقع الى الغرب من نفس الموقع ، والذي وجده الافضل مدينة جديدة على

الطراز الشرقي ، أو على الطراز الافريقي ، هذه المدينة أطلق عليها رسميا اسم العاليه ، ولعلهم سموها أيضا فيا ذكر اليعقوبي اسم أفريقية وهو اسم له علاقة واضحة بالاسم الذي انتهى به الامر الى أن صار شائعا على ألسنة الناس ، فقللوا مدينة القرويين أو مدينة القيروانية ، وبعد ذلك بتسع سنين سنة ٢٠٢ هـ كان حضور القرطبيين المروفيين باسم ثوار الربيض الى ادريس الثاني مؤيدا الى اضعاف الصفة التي اتسمت به مؤسسة أبيه الواقعة على الضفة اليمنى من وادى فاس ، حين استقروا فيها ، وقد انشأوا مدينة فاس على النمط الاندلسي ، وما لبثوا أن أعطوها طابعا جديدا لمدينة منظمة لم يكن لها من قبل ، وهكذا لم يلبث اسم مدينة الاندلسيين أن حل محل الاسم القديم ، وهو مدينة فاس فصار يطلق بعد ذلك على كل الاقليم والمدينتين القائمتين فيه .

كانت مدينة فاس في عصر ادريس الاول لا تبدو أكثر من أنها مدينة بربرية صغيرة ولم يزل بهراكتش أمثلة عدة لهذا النوع من المدن مما يجعل طابع القرى الرغوية خاصة وهي غالبا كتكتلات قليلة الكثافة الى حد ما تنشأ في طريق جبلي أو في الجبل نفسه ، وتكون محصنة تحصينا بدائيا ، حيث نجدها مترامية بوجه عام على سطح ينحدر الى بطن أحد الأودية ، وفيها سوق أسبوعي . أما في الدافل بيوت متواضعة ومراع للماشية ومخازن الحلال وجامع متواضع .

وفي عهد ادريس الثاني عاشت فاس في رخاء وضررت فيها عملة سنة ١٨٥ هـ ، واستقبل فيها ادريس الثاني المهاجرين العرب الذين لجأوا اليه من الاندلس ومن أفريقية الاغلبية وكان وجودهم في فاس حثيبا كبيرا لادريس الذي كان يشعر أنه في عزلة وسط البربر ، وأخذ يستعد لاستغلال هذا العنصر المهم من العرب للتفخلص من البربر ، وأخذ يستعد واتخذ بلاطا عربيا له وزير وكاتم سر وقاض من أهل البربر العرب .

والظاهر أن الوزير عمر الذي تزوج عائكة — ابنة ادريس الثاني —

قام بحور مهم حاسم في تأسيس مدينة عدوة القروانيين ولا شك أنه أقنع سيده الشاب بالآل يقيم مقره في مؤسسة أبيه بمدينة فاس وأنه يستقر بقربها على الجزء الأكثر ماء من هذا الموقع ، وأن يحسن انشاءها الدنى الحقيقي الجدير بالمدن السورية والانجليزية الزاهرة في ذلك الوقت ، فأنشأ في المدينة الجديدة قصرا للامارة ، كما بنى مسجدا اسمه مسجد الاشراف وكان لأبد للمدينة الجديدة من أن تنمو سريعا ، وكان أحد أحيائها خاص بيهود استقروا فيه ، وترعموا النشاط التجارى ، على أن العرب والموالي كثفوا في الغالب من الفارين القروانيين ممن ولغوا لخدمة الحكومة الاغلبية بالبربرية . أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، إذ كانت لهم مدينتهم الخاصة ذات الطابع الذى يميز حياتهم ، وكانت قرية من منازلهم .

ومن هنا نرى أن ادريس الثانى قد احتفظ بمدينة فاس لكي تكون سكنا لجندة البربر ولضباطهم .

وكل الدلائل تدل في النهاية على أنه بينما كانت مدينة ادريس الثانى تنمو وتزدهر اذا بمدينة فاس القديمة تظل متأخرة في مضمار المدن العربية بل وتزداد اضطرابا لدرجة أنها بعد ذلك بمدة سنين عندما سمح الأمير المرطبيين من أهل الريض بالاقامة فيها - لم تكن بلا شك أكثر من مجرد تربة كبيرة تقوم عليها بيوت متواضعة من اللبن مغطاة بفروع الأشجار ، وكان على الاندلسيين أن يحسنوا مدينتهم سريعا ومع هذا فقد تركوا في أحيائها المتطرفة طباما ريفيا قويا .

حركات الخوارج في المغرب

الاباضية فرقة من الخوارج ، وقبل أن نشير الى حركتهم في بلاد المغرب في أواخر العهد الاموي ، يجب أن نتكلم بإيجاز عن الخوارج .

الخوارج مفردا خارجي ، وهم أتباع أقدم فرقة في الاسلام ، وقد نشطوا في أواخر عهد علي بن أبي طالب ، وتولية معاوية النخالة ، وأحدثوا اضطرابات كثيرة في الدولتين الاموية والعباسية ، وقد لبعض حركاتهم النجاح فترة من الزمن^(١) .

نشأت فرقة الخوارج أثناء معركة صفين بين علي بن أبي طالب ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وطلب جند معاوية تحكيم كتاب الله في النزاع بين الفريقين ، وعارض فريق من جيش علي التحكيم على اعتبار أن الرجال لا يصح أن يحتكم اليهم في حكم الله . وهذا الفريق قوامه قبيلة تميم بالذات ، وهجروا جيش علي قائلين لا حكم الا لله ، ثم تركوا الجيش ، وانسحبوا الى قرية حروراء غير بعيد عن الكوفة ، وارتصوا بمعد الله بن وهب الراسبي قائدا عليهم^(٢) .

وسمى هؤلاء الخوارج الأوائل بالحرورية^(٣) ، وانتعشت هذه الفرقة ، وانضم اليها القراء في جيش علي . بعد ما شعروا بالخذلان وخيبة الأمل من نتيجة التحكيم التي كانت في صالح معاوية وفي غير صالح علي وأظهر الخوارج مذهبهم وقالوا بعدم أحقية علي في الخلافة ، وأصبحوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون ، ومن ليس على عقيدتهم كافر^(٤) ، وعليهم رد هؤلاء الكفار الى حظيرة الدين ، وطعنوا في مسلك عثمان ، وأبوا الثأر لمقتله ، وقوى أمر الخوارج شيئا فشيئا بترديد

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٨ - ٦٠ .

(٤) ابن قتيبة : الاملة والميلسة ج ١ ص ٣٣٤ .

المساواة بين الشعوب في الاعتقاد وهو المبدأ الذي قال به الخوارج^(١) .

وكان علي بن أبي طالب قد غول على الزحف الى الشام لمحاربة معاوية ، وإعادة الوحدة الى دولته ، بعد أن رفض قرار الحكمين لكنه علم أن الخوارج تجمعوا في النهروان ، وقوى أمرهم واشتد خطرهم ، وقتلوا مخالفينهم ، وأشاعوا الذعر بين الناس ، وسبوا النساء وأشاعوا الخراب والدمار ، فتحول علي الى النهروان ، والحق بهم الهزيمة سنة ٣٨ هـ^(٢) ، ونكل بهم ، لكنه مع ذلك لم يتيسر له القضاء عليهم وعلى أرائهم ، فظل بعضهم يقيم معه بالكوفة ، كما أقامت جماعة منهم بالبصرة ، وقتل علي بن أبي طالب بيد أحد الخوارج سنة ٤٠ هـ .
ولما قامت الدولة الاموية قوى شأن الخوارج ، واعترضوا على تولية معاوية الخلافة ، لانه لم ينلها بالجماع كلمة المسلمين ، وخالف مسيرة الخلفاء الراشدين باتخاذهم الحرس والحجاب وتشييده قصر الخضراء مقرا له ، وقوى أمرهم في البصرة والكوفة^(٣) .

استمد ولاية بني أمية في العراق في قمع الخوارج ، وتمقبوهم ، ونكلوا به ملكتهم لم يهنوا ولم يضعفوا ، وظلوا يعارضون الحكم الاموي ، ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في مكة ، انضم اليه فريق من الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وذهبوا الى مكة ليواجهوا مع ابن الزبير ضد الحكم الاموي ، ويخودوا عن البيت الحرام^(٤) .

على أن الخوارج اختلفوا مع ابن الزبير حول رأيه في عثمان فقال لهم : اني ولي لابن عفان في الدنيا والاخرة ، وولي أوليائه وعدو أعدائه ، فقتلوا له : برىء الله منك يا عجو الله . ثم أنصرفوا عنه .

(١) نشوان الحميري : الحور العين ص ١٧٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٣٨ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكلب في التاريخ حوادث سنة ٤٠ هـ .

(٤) محمد جمال الدين مرور : الحياة الميليسية ص ١٠٠ .

فسار جماعة منهم الى البصرة وفيهم نافع بن الازرق الحنفي وعبد الله ابن صفار السعدي ، وعبد الله بن اباض^(١) .

ساد الاضطراب بلاد العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وعجز ولايته عن مقاومة الخوارج ، فأعادوا تنظيم صفوفهم ، وأعلن نافع بن الازرق نفسه أمير المؤمنين في الاهواز ، وبابيه أنصاره ، وعارض بيعته عبد الله بن صفار وعبد الله بن اباض ، وأتباعهما من الخوارج .

واصل الخوارج شن غاراتهم في شرق الدولة الاسلامية . وكانت غاراتهم أشبه بحرب المصابات . ويرجع الفضل في معظم انتصاراتهم الى سرعة حركة فرسانهم فكانوا يتحركون فجأة لا يتوقعهم أحد ، ويكتسحون البلاد ، ويباغتون المدن غير الحصينة ، ثم ينسحبون مسرعين تفلحاً من مطاردة جيش الدولة لهم^(٢) .

وكان على ولاية بنى أمية بعد القضاء على ابن الزبير أن يخوضوا حرباً لا هوادة فيها على الخوارج الذين كانوا أعداء لابن الزبير والامويين على السواء . وانقسم الخوارج الى أزارقة وصفورية واباضية وتحدثت فتنتهم في شرق الدولة الاسلامية وازداد خطرهم نتيجة لاعمالهم التخريبية . وانتفاضاتهم التي اتسمت بطابع العنف والقسوة بل والوحشية ، ولم تفت في عضدهم ، ولم يفسحوا ولم يهنا من بطش الامويين وتكليفهم بهم . على أن المهلب بن أبي صفرة . والحجاج بن يوسف الثقفي . قد تمكنا بعد جهد جهيد وعناء شديد دام عدة سنوات من هزيمة جموع الخوارج^(٣) .

وكانت جزيرة العرب مسرحاً لحركات الخوارج وبالأذات بين عامي

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٢٣ .

(٢) ناهوزن : الخوارج والشيعة ص ٩٦ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٠ .

٦٥ — ٧٣ هـ حيث استولوا على اليعامنة • وامتد نفوذهم الى حضر موت واليمن ومدينة الطائف ولم يمنهم من الاستيلاء على مكة والمدينة الا خوفهم من اثاره الشكوك في دينهم • حقيقة نكل بهم الحجاج بن يوسف ولكنه لم يكن قضاء مبرما • فقد بقى أفراد من الفوارج في بلاد اليمن يتهيئون للثورة ضد الحكم الاموى حينما تتاح لهم الفرصة • فيذكر الخزرجي^(١) أن الفوارج قدموا الى صنعاء سنة ٧٢ هـ • فجمع وهب بن منبه الناس لقتلهم • فقال له الناس : لا طاقة لنا بهم ، ونحن نخشى أن يستحلوا دماءنا فنفترق الناس • وصالحوا الفوارج على مائة ألف دينار • فاستعان أهل صنعاء بأهل المخالف على المال • فلمدوهم بالمال • وتفرق الفوارج •

اضطربت الأمور في الدولة الأموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ وتولية الوليد بن يزيد الخلافة — الذي قضى معظم أيام خلافته في البادية • وبقي في الخلافة سنة وشهرين • ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هـ • وخلفه يزيد بن الوليد الذي توفى بعد خمسة أشهر وبويع أخوه إبراهيم ، وفي عهده تجلّى الاضطراب في البيت الأموى فلم يكن هناك أجماع على توليته • فكان ثاس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة • وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما • وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد^(٢) • ولما ولي مروان بن محمد الخلافة تمصب للقيسية وطلب اليمنيين بدم الوليد بن يزيد • فنار عليه يزيد بن خالد القسرى بدمشق^(٣) وانضمت اليه اليمنية فأرسل مروان الى دمشق جيشاً أخمد الثورة كما قضى على ثورات أخرى في بلاد الشام قام بها اليمانية^(٤) •

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك • ودعا أهلها الى خلعه • وانضمت

(١) الكلبية والاعلام من ٦٨ -

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء من ١١٦ •

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ، في الاداب السلطانية من ١٢٣ •

(٤) الداينورى : الاخبار الطوال من ٣٢٤ •

اليه اليمانية • فسار اليه مروان • وأوقع به^(١) الهزيمة ولما كانت أكثر عرب الشام من العنصر اليمني فقد أكر مروان بن محمد أن يتخذ حران طافرة لدولته بدلا من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته^(٢) •

وكان مروان بن محمد من أقدر خلفاء بني أمية في الإدارة والحرب والسياسة ، ولكنه ولى في وقت كثرت فيه الفلاكل والاضطرابات في الدولة ، وتمددت الثورات ، وانقسم البيت الحاكم على نفسه ، وانتشرت الدعوة العلوية في الكثير من أرجاء الدولة الإسلامية ، ونجحت الدولة العباسية في إقليم خراسان نجاحا كبيرا • وازداد نشاط الخوارج •

قيام الدولة العباسية

قام نزاع بين حبيب بن عبد الرحمن والى العباسيين على أفريقية مع ورغومة وما انضم اليها من الخوارج واضطربت الأمور في أفريقية حيث دخلوا القيوان وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وقتلوا كل من كان من قريش وسامت أهل القيوان سوء المذاب ، وندم الذين دعواهم أعتقواهم أشد ندامة في هذا الوقت • رأى الأبلسية في منطقة طرابلس وجبل نفوسة الوقت قد حان ليكونوا لهم إمارة مستقلة ينظمون فيها شؤونهم وفق تعاليمهم ومبادئهم ، ويكون على رأسها امام تتوافر فيه الشروط التي يجب أن تكون في الامام كما يرى ذلك علماءهم ويقول المؤرخون أن الأبلسية في منطقة طرابلس صاروا في دور (الكتمان) بعدما اقتتل الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس الهواري من طرف عبد الرحمن بن حبيب ، وظلوا كذلك حتى قدم أبو الخطاب وأصحابه من المشرق ، فقتلوا الى الخروج من هذا الدور الى دور (الظهور) وخاصة بعدما قدروا قواتهم • وقدروا مكان مدافعة عدوهم ورأوا أنهم قادرون على الدفاع عن كياناتهم بعد ظهورهم •

(١) ابن الأثير : الكليل في التاريخ ج ٥ ص ١٥٦ •

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٧ •

وقد تطلب أمر الظهور منهم تعيين أمام يقود حركتهم • وكان الامام الذى انتفقوا عليه هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعفرى الذى أنصار له بالامامة من قبل أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، وقد اشترط الأباضية عليه أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله وأثر الصالحين ، أما هو فقد اشترط عليهم — حتى يقبل الامامة — ألا يثيروا مسألة الحارث وعبد الجبار التى أحدثت الفرقة بين صفوفهم وقبلوا منه ذلك غبايموه على القيام بحقوق الله ، وعلى ما فى الكتاب والسنة وأتباع أئمة المهتدين ، وكان ذلك على رأس ١٤٠ هـ • وأتاه أهل القيوان داخلين فى حماء وطالعه بما ارتكبه الوريثيون من ضروب البطش والظلم والفساد ، واستباحة الأعراض وتدنيس المساجد • فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سلوكها فتمركت فى نفسه عوامل الغيرة على الاسلام • فاستنفر أتباعه من الأباضية وشياخة بربر طرابلس وفى مقدمتهم هواره وزحف بجموعه يريد القيوان لقتال ورفجومة ، فالتقى معهم وقايلهم ، ثم هزمهم وتبعهم يقتلهم ، ثم أنصرف الى القيوان •

ترجم أبو عبيدة حركة الأباضية السرية ، وأوجد مجتمعا متعاونيا متماسكا ، وكون جماعة تعمل فى سرية وكتمان على نشر المذهب الأباضى وأنشأ مدارس سرية لتعليم الدعاة وتوجيههم ، وهؤلاء الدعاة الذين عرفوا بحملة العلم ، انتشروا فى بقاع العالم الاسلامى لنشر المذهب الأباضى ، وعرفوا بحملة العلم ، وقد وفقوا فى نشر المذهب الأباضى فى كثير من البلاد ، ومن بينها المغرب ، التى عرفت أفكار الفسوارج منذ نشأتها • وأول من دعا للأباضية فى المغرب ، سلمة بن سعد الحضرمى فى أواخر القرن الأول الهجرى •

استقر سلمة بن سعد الحضرمى فى جبل نفوسة فى منطقة طرابلس وأخذ يدعو لمذهبه بين قبائل هواره البربرية التى كانت تسكن فى تلك المنطقة ، وكان سلمة شجيد الحماس ، متفانيا فى نشر مذهبه ، مضحيا

في سبيل ذلك بالنفس والنفيس ، وقد استطاع هذا الداعي اقتناع بعض مؤيديه المتحمسين للمذهب بالذهاب الى البصرة للتفقه بأصول الدعوة الإباضية على يد زعيم الحركة في البصرة الامام أبي عبيد مسلم بن أبي كريمة التميمي (١) .

وبعد أن انتشرت الدعوة الإباضية في المغرب ، تواجد الطلاب على البصرة لتلقى الدروس عن فلسفة المذهب ، ومن أبرز هؤلاء الطلاب عبد الرحمن بن رستم من القيروان ، ومكثوا في البصرة عدة سنوات يتعلمون علوم المذهب الإباضي في المدرسة السرية للإباضية هناك ، وعادوا الى بلادهم لنشر المذهب ، ودعاهم الامام بالرجوع اليه في كل ما أشكل عليهم من أصول المذهب وقد نشط هؤلاء الدعاة في نشر مذهبهم بين أهلهم من سكان المغرب ، وقاموا بتأسيس المدارس السرية على غرار مدرسة البصرة ، وتفرج على أيديهم عدد من الدعاة الإباضية المغاربة يسمون تلاميذ حملة العلم ، وأخلص الأساتذة والتلاميذ في نشر دعوتهم ، واستطاعوا بعد اشتباكات ومعارك متعقدة مع الولاة العباسيين في المغرب ، أن يظفروا امامة الظهور سنة ١٤٠ هـ ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اماما عليهم ، وتمكن الإباضية بقلادة أبي الخطاب من الاستيلاء على طرابلس ، ومعظم بلاد المغرب الأدنى ، والقيروان خاصة أفريقية .

تصدى الولاة العباسيون للحركة الإباضية الناشئة ، ورأوا ضرورة القضاء عليها في مهدها ، فحاربهم والي العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ هـ ، فقتل الامام الإباضي أبا الخطاب المعافري في معركة تلورغا سنة ١٤٤ هـ .

ويرى المؤرخون من الإباضية ما أن أبا الخطاب بعد انتصاره على وزغومة وأهل القيروان الذين ناصروه طبق مبدأ الإباضية الذي

(١) عوض محمد خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال افريقية ج ١٧ .

ينص على أن أموال المخالفين ودماعهم حرام أخذاً ، ولا يحمل السلاح ، ومحاربة السلطان وجنده فقط ، لأن المخالفين ليسوا مشركين ولكنهم كفار نعمة .

وأكثر أبو الخطاب أن يرجع إلى طرابلس ، ويتخذها عاصمة له ، ففساد القيروان بعد أن عين عليها ومن الأما من المدين عبد الرحمن ابن رستم الذي تلقى العلم معه في مدرسة أبي عبيدة بالبصرة والذي سيصبح له شأن كبير فيما بعد عندما يؤسس دولة أباضية بالمغرب هو وأولاده قرابة المائة والخمسين سنة . ومن القيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كُتب ، وأن يغذي المذهب الأباضي بالكثير من الأنصار والأتباع ، إذ رأى في المغرب الأوسط امتداد يحمي الدولة الناشئة من طرابلس ويؤكد نظرية عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بين عبد الرحمن بن رستم وقبيلة الملية البترية التي كانت تسكن في هذا الاقليم .

لكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلاً في القيروان ، وذلك لظهور الأحداث السياسية من جديد في إقليم طرابلس . فبعد أن هزم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح ورفجومة وفد جماعة من رجالات العرب بها على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج ، وشكوا إليه تسلمهم على كرسى الإمارة بالقيروان .

فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي على مصر وأفريقية . وسير من مصر جيشاً من المسودة بقيادة أبي الأحوص عمر بن الأحوص المجبلى لاسترجاع المغرب وكان ذلك سنة ١٤٢ هـ فخرج إليه أبو الخطاب ، فالتقوا بمقداس على شاطئ البحر ، فانهزم أبو الأحوص وأصحابه ، وأحتوى أبو الخطاب على عسكرهم . ورجع أبو الأحوص إلى مصر ، وأنصرف أبو الخطاب إلى طرابلس . وكانت أفريقية كلها في يديه .

ولم ينعم أبو الخطاب بالنصر الذي أحرزه ، إذ مالبت أن رأى

جيوش العباسيين قادمة الى المغرب لاستعادة نفوذها وسيطرتها عليه ،
ففى سنة ١٤٣ هـ اتصل بابى الخطاب أن محمد بن الأئمت وألى مصر
والذى عينه أبو جعفر المنصور كقائد للجيش الى المغرب عازم على
مصاربته فخرج اليه أبو الخطاب فى زهاء مائتى ألف فمسك بهم فى
أرض سرت ، واتصل ذلك بمحمد بن الأئمت . فسلر اليه فى أربعين
ألفا ومعه الأغلب بن سالم التميمى ، فالتقوا بابى الخطاب ، وكان قد
جمع أصحابه من كل ناحية ، ومضوا فى عدد عظيم ، فضاق ابن الأئمت
خزعا بقاء ابن الخطاب لا بلثته من كثرة جيوشه . وانهمز أبو الخطاب
ومن أسباب انهزامه حدوث انقسام فى جيشه ، حيث تنازعت زناتة
وهوارة بسبب قتل من زناتة ، فأتعت الأخيرة أبا الخطاب بأنه يعمل
الى هوارة ولتفرقت جماعة من المعسكر بسبب ذلك .

ويقول المؤرخون أن أبا الخطاب عندما وصل الى (تاورغا) من
أرض سرت وهى على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس هو وعسكره ثالث
نفسهم الى الجهاد فى سبيل الله ، والتقى بابن الأئمت
وأستد القتال ، فكانت الرجال فى الميدان تتهدم كالحيطان ، ولم يبرح
أبو الخطاب وأصحابه حتى استشهدوا جميعا وكانوا فى أربعة عشر ألفا
أو اثنى عشر ألفا .

وكان مقتل أبى الخطاب وعامة من معه فى صفر : كما يروى ابن
الأثير أو ربيع الأول كما يروى النويرى سنة أربعة وأربعين ومائة .
فاجتاز ابن الأئمت رأس أبى الخطاب وبعث به الى المنصور ببغداد .

- وعندما علم الأباضية بقتله هربوا الى الجبال ، ولجأوا الى
الحصون المنيعة والقلاع العالية ، ورجع عبد الرحمن بن رستم عامل
القيروان . عندما علم بالهزيمة بعدما انتهى الى مدينة قابس ، وكان فى
طريقه الى أبى الخطاب مع المدد الذى طلبه منه . وقبل أن يدخل
القيروان ، علم أن أهلها أوتقوا عاملها فى الحديد ، وولوا عليهم عمر بن
عثمان القرشى من الموالين للخلافة فأتجه الى تاهرت بالمغرب الأوسط
حيث جمع حوله الأباضية ، وأسس دولة هناك .

على كل حال — أثمرت اتصالات ابن رستم بأباضية المغرب الأوسط ، فأزروه في حصار عمر بن حفص بطينه ١٥١ هـ / ٧٦٨ م وكانت هزيمتهم في تهوده في نفس العام سببا في اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تجمع شمل أباضية المغرب وانتشاء مدينة تكون قسبة للدولة ومركزا للمذهب ، وكانت هذه الدولة اسلامية في قضائها ، عربية في معارفها ، بيرية في عصبيتها ، فارسية في ادارتها •

وأقام عبد الرحمن بن رستم بين قبائل لاية ، واستقر رأى الأباضية على تنصيب عبد الرحمن بن رستم لما رأوا فيه من جميع الخصال ومجد الأعمال وقالوا (يا عبد الرحمن رضيك الامام أبو الخطاب في ابتدائنا ونحن الآن نرضى بك ونقتدك على أنفسنا ، فقد علمنا أنه لا يصلح أمرنا الا امام نلجأ اليه في أمورنا ونتحكم اليه في قضايانا فقال لهم ان اعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطبقه قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثلما شرط عليهم ، وقدموه على أنفسهم وألقوا اليه بأيديهم • ثم قالوا له لا بد لنا من امامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو وتكون مأوى ومقر لامامتنا وملجأ لنا في حربنا وسلمنا فأجابهم عبد الرحمن الى ذلك واستحسن رأيهم • فاختاروا من أهل السلم والمغبرة بالأرض جصاعة أميرادوا مكانا جيد الهواء كثير الحياة خصص الأرض ، قابلا للمعارة • مأمونا من العدو كما طلقوا أقطار تلك الجهات الى أن عثروا على المكان الذي بنيت فيه وهي في سفح جبل يقال له جزول • ولما أروادا بقاء المدينة أى تاهرت كانوا يبنون النهار كله ، فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة وتبعد عن تاهرت القديمة بخمسة أميال • وكانت تاهرت القديمة موجودة قبل ذلك التاريخ فالمدينة القديمة ترجع الى العصر الروماني ثم البيزنطي ولقد جاء فكرها أيام الفتوح الاولى سنة ٦٦٢ هـ / ٦٨١ — ٦٨٢ م •

دخول عبد الرحمن بن رستم المغرب الأوسط وبناء مدينة تاهرت :

لما علم عبد الرحمن بن رستم بمقتل أبي الخطاب عبد الأعلى عبد السمح ، وجد أن من الأسلم له ولاتباعه النجاة الى المغرب الأوسط حيث يستطيع بفضل أنصاره هناك أن يعيد انشاء دولة على المذهب الإباضي على نسق دولة أبي الخطاب في طرابلس .

فخرج مستخفيا هو وابنه عبد الوهاب وعبد لهما متوجهين الى أرض المغرب وليس معهم حمولة ولا مركوب غير فرس واحد فمات للفرس في بعض الطريق فخذفوه مخافة أن يقتل أثرهم أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيقطع فيهم ، فسمى ذلك الموضع قبر الفرس ، ولما كانت المسافة الى ملية طويلة والتي توجه اليها عبد الرحمن بن رستم لحلف قديم بينه وبينهم فقد كان من الطبيعي أن يحس عبد الرحمن ابن رستم بالثعب ، لكبر سنه وشيخوخته تعاون معه ابنه يحمله تارة ويحمله العبد تارة أخرى .

وأخترق شمال وادي سوف ، وسار الى سونغيج غاية المنعة والحصانة لصعوبة مرقاه .

وبهذا الجبل لحقه من طرابلس مستون شيخا من شيوخ الاباضية ، من أكابر العلماء وأهل الرأي ، وتنازعت قبائل هواره ولواته ، ولساية بالانضمام اليه ، والالتصاف حوله . ولما علم ابن الأئمت في القيروان يتمكن ابن رستم من الفرار الى المغرب الأوسط أقبل مجدا في طلبه فأخبر بلانه في جبل منيع فقصده حتى وصله فحاصر عبد الرحمن بن رستم بعد أن خندق على عسكره مخافة أن يأتيه ابن رستم وأصحابه ، فأطال المكث تحته ، وسئم جنده بعد أن فشي بينهم وباء الطاعون ، فهلك منهم عدد كبير ، وقد اضطر الى فك الحصار والعودة الى القيروان ، وعبر عن صعوبة فتح الجبل بقوله أن سونغيج لا يحفظها الا دارع ومدجج .

فانتقلوا بذلك الى تاهرت الحديثة وبقيلتها لواته وهوارة
وينعربها زواغة ويجوفها مطصامة وزناته ومكناسة وكانت الأرض
التي بنيت تكتنفها غابة ملتفة بالأشجار ، يسكنها أنواع من الوحوش
فاستأنسوا فاتفق على بنائها وكانت أرضا صالحة للزراعة
حيث تنبع فيها العيون الطبيعية ويجرى فيها نهر لا ينقطع ماؤه أسمه
نهر مينة وهو في قبليها ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع تسمى تاتش
ومن تاتش شرب أهلها وكانت هذه الأرض ملكا لقبوم
مبتضعين من مراسة وصنهاجة فساومهم عبد الرحمن على البيع فأبوا
فوافقهم على أن يؤدوا الضراج من الأسواق ويقول النفوس في
روايته أنهم أمروا مناديا فنادى بأعلى صوته يا من بها من الوحوش
والسباع أن اخرجوا وارتطوا فانا نريد عمارتها ونازلون بها ولكم أجل
ثلاثة أيام ولم تمر الاجل ولم يبق من تلك الوحوش شيء فاقعدوا
شجرها نارا ، ولما خمدت النار وتمت تنقية الأشجار ، وصارت
صالحة للسارة • شيدوا مسجدها الجامع ، وكان يتألف من أربع
بلاطات وكان لهذا الجامع مصلى الجنائز • وبديهي أن يهتموا بتمصين
المدينة وجماعتها فأقاموا سورا حولها وجعلوا لها أبواب أربعة وهي باب
الصفاء وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وأصبحت المدينة
الجديدة في مأمن من اعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها معسكر
عبد الرحمن وقيل معسكر المبارك •

ولقد أعجب بهذه المدينة جميع المؤرخين • النعماني الذي كان
معاصرا لائمة بنى رستم يصفها بقوله : والمدينة العظمى مدينة تاهرت
جليلة المقدار عظيمة الامر تسمى عرق الغرب ، بها أخلاط من الناس
تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب
ابن عبد الرحمن بن رستم الفارسي •

املة الامم عبد الرحمن بن رستم (١٦٠ — ١٦٨ هـ / ٧٧٦ — ٧٨٣ م) :

كان تأخير اعلان الدولة ومبايعة اهلها دهاء كبير من عبد الرحمن ابن رستم وصحبه ، أنهم لو أعلنوها قبل أن ترسخ عروقتها ، ويستند جذعها ، وتتخذ في شبابها ، لجعلها العباسيون نصب أعينهم . فلربما حشدوا لها من الجيوش الكثيفة ما حشدوا لدولة أبي الخطاب فينقضون عليها ، ولكنهم تمهلوا ، فنظموا كل أمورهم في الداخل وحلوا كل المشاكل ، ووجدوا صفوفهم ، وبنوا عاصمتهم ، فبرزت شخصية الدولة وبحث ساقية في الوجود ، وأصبح في استطاعتها الوقوف في وجه العباسيين .

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته في العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياساتها الخارجية أو الداخلية وأكثر بسياسة المهادنة في الخارج ، فقد حرص على موادة عمال بنى العباس وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة أهدى وسبعين ومائة في موادة صاحب القيوان روح بن قبيصة بن الهلب فوادعه وانكسرت شوكة البربر واستكانوا وتمكن الاسلام من قلوبهم ، وغرض على البربر للضرائب الشرعية ، وصاهر بنى مدرار .

ولما أطمأن الى سلامة دولته من الاخطار الخارجية شرع في ارساء دعائمها . وكان عليه أن ييسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى دعائمها . وييسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى نظمها في الحكم والادارة .

وعكف عبد الرحمن على تنظيم وتوطيد سلطانه ، ولا شك أنه استفاد من عبقرية الفرس في الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غلب الطابع الديني المذهبي على ما اتخذته من اجراءات في هذا الصدد فكانت دولته مستقرة

وسيرته حسنة وقضائه مختارة ، ويبسوت أمواله معتقة وأصحاب شرطته وعماله ، قائمون بما يجب ، ويفضل قدرته على ايلاف العناصر والمصيبات المختلفة داخل الدولة (لم ينقم عليه أحد في خصومة ولا حكومة ولم يكن على يديه لغتراق .

وفي سنة ١٦٠ بويغ ابن رستم بالامامة بعد أن أرسى قواعد الدولة ووطد أركانها بحيث أصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وهاجر الى تاهرت كثير من المصارفة والمغاربة والانجليسين وقصدها التجار والكتاب ورجال الصناعة والفن من سائر أنحاء العالم الاسلامي وكان لذلك أعظم الاثر في اتساع عمرانها ونمو تجارتها واتساع مواردها الاقتصادية .

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بقرب دنو أجله أقتدى بعمد بن الخطاب فاختار سبعا من خيرة رجال دولته ممن يتوسم فيهم الزهد والصلاح منهم مسعود الاندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وعمران بن مروان الاندلسي ويزيد بن غندين ثم توفي عبد الرحمن في سنة ١٧١ . ثم اجتمع المرشحون للامامة شهرا وانتهوا الى اختيار عبد الوهاب ، وتمت مبايعته بالامامة . ولكن ابن غندين أحد المرشحين للامامة عارض في امامته وأخذ يعمل على اشغال نار الفتنة وأنكر امامة عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن في المسلمين من هو أعلم منه ، وأدى ذلك الى حدوث انقسام مذهبي عند الاباضية الى نكارية ووهابية ، ثم دبر ابن غندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقامت المعارك في المدينة بين أنصار كل من الفرقتين وانتهت بهزيمة النكارية ومصرع رئيسها ابن غندين .

ولما توفي الامام عبد الوهاب في سنة ٢١١ خلفه ابنه الامام أفلع . وفي عهد أفلع ساد الامن في البلاد ووصلت حضارة الرستميين الى ذروتها ، وتوالى على الامامة بعده ولده أبو بكر ، ثم أبو اليقظان محمد ثم أبو حاتم يوسف بن محمد وأخبرهم الامام اليقظان بن أبي اليقظان مجتهد ، الذي انتزعت الدولة الرستمية على عهده .

وكان من الطبيعي أن تتوتر العلاقات السياسية بين الأغلبية
والرستمين ، إذ أن أمراء بنى الاغلب كانوا يمثلون الدولة العباسية كما
أنهم كانوا يمتازون الرستمين أملاكهم بطر ابلس الغرب ، وفي مقابل
ذلك قامت بين الرستمين والامويين في الاندلس علاقات ودية ، لأن
العباسيين الذين كانوا يحاربون بنى أمية في الاندلس ، كانوا أيضا أعداء
للإباضية في تاهرت ، فقامت بين قرطبة وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت
السفن تتردد بين وهران والمرية . وكانت تاهرت تضم جالية كبيرة من
أهل الاندلس . وكان لافلح بن عبد الوهاب مع أمراء بنى أمية في
الاندلس مواصلة وأرتباط ومودة بها يودونه بالهدايا النفسية ويهديهم
بمثالها ، وظلت العلاقات الودية مع الاندلس قائمة في عهد ابنه أبى اليفظان
محمد ، وكان أبو اليفظان لا يتخذ قرار الا بموافقة محمد بن عبد الرحمن
الأوسط .

وازدهرت الحياة العلمية في تاهرت ازدهارا كبيرا ، فقد كان
أئمة الدولة الرستمية علماء كرسوا حيلتهم للعلوم ونشرها وشاركوا
مشاركة فعالة في الحركة العلمية فكانوا يتولون التدريس في جامع
تاهرت ، وكان عبد الرحمن من كبار علماء عصره برع في علوم الدين
واللغة والفلك وأقبل على التأليف ، وكان ابنه عبد الوهاب توالفا للملم
محبا له وكان ييتم الأموال التي العراق لشراء الكتب ولا يمل قراءتها .
واشتهرت تاهرت بمكتبتها التي كانت تضم نصوا من ٣٠٠ ألف
مجلد وقد حرققت هذه المكتبة على أيدي الفاطميين ومن حيث الحياة
الاقتصادية توسع للرستميون في الانتاج الزراعى يتولم المياة وخصوصية
الارض وغزارة الامطار . والى جانب الثروة الزراعية اعتمد الرستميون
على التجارة البحرية مع الاندلس والبرية مع السودان وعانة وسجلعاسة
والغرب الأقصى . وقد جنت الدولة الرستمية بسبب التجارة مكاسب
هائلة فازدهر المعمران واشرفت الحياة وتألفت ، وتعمدحت
المباني والمنشآت وقد تبقى بعض آثار العملئ الرستمية في
الصحراء الجزائرية . حيث استقرت حتى اليوم بعض الاسرات
الإباضية .

ومن نظم الاباضية مجلس العزابة ، ويؤسس في كل مدينة أو منطقة ، يدين معظم سكانها بالمذهب الاباضى ، ولهذه الجماعة رئيس ينتخبونه من بين أعضائها ، ممن اشتهر بالسيرة الحسنة والعدل والعفة على المذهب الاباضى ، وشؤون أفرادهم ، ومن بين هؤلاء الجماعة قضاة يحكمون في المنازعات التى قد تقع بين أفراد المذهب ، ومن بين هؤلاء شيوخ لتعليم أبناء المذهب ، فكانت^(١) مجالس العزابة تتمتع في مقر سرى ، وكان أعضاء مجلس العزابة يستعملون في قراراتهم السرية الفاظا غير معروفة للاحتفاظ بسرية المذهب .

ولمجلس العزابة مهام دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية مثل الاشراف على المساجد والجوامع ، وضمان تطبيق المذهب الاباضى وتعيين القضاة ، وتاليف الكتب ، وارسال الوعاظ الى تجمعات الاباضية لتلقيه الناس بأصول المذهب ، ومن مهام المجلس تنظيم العلاقات بين الاباضية في المدينة والاباضية في المناطق الأخرى سواء كانوا في شمال افريقية أو في زنجبار أو عمان ، وإبرام الاتفاقيات مع الدول الاسلامية سواء في شمال افريقية أو في الدول الأخرى ، ويحرص المجلس على تكوين مجتمع اباضى يسوده المحبة والوثام ، وذلك عن طريقلقاء الخطب والمواعظ واسداء النصائح والارشادات التى تدعو الناس الى التضامن والتمسك بالمذهب ، وكذلك مساعدة الاغنياء للفقراء حتى يخلو المجتمع الاباضى من الحقد والحسد ، ويحترم الاباضيون بعضهم بعضا ، وكان مشايخ الاباضية يراغبون الاسواق ، وينهون الناس عن الخس والربا وأنواع المعاملات التى لا يقرها الاسلام .

أنشأت مجالس العزابة في المناطق التى يدين فيها الناس بالمذهب الاباضى مدارس للتعليم داخلية خاصة بالتلاميذ الاباضية ، وذلك للمحافظة على المذهب .

ويرأس المدرسة الاباضية الشيخ ، وهو المسؤول الاول في المدرسة ،

(١) المصدر السابق .

ومن مهامه قبول الطلاب وتحديد المناهج وتعليم الطلاب ، والنظر في إدارة المدرسة وميزانيتها •

وقد حافظ نظام العزابة على وحدة الجماعة الاباضية وساهم في نشر اللغة العربية بين بعض القيسائل البربرية وكان علماء الاباضية يرتحلون الى الحواضر العريقة لتعلم فنون اللغة العربية واتقانها ، وقد حرص مشايخ العزابة على نصح طلابهم بالتزود بعلوم العربية واتقانها وذلك لفهم القرآن الكريم وعلوم التفسير والحديث وساهم شرط حفظ القرآن الكريم في مدارس العزابة على تعلم اللغة العربية •

وساهم شيوخ الطلقة وتلاميذهم الى جانب التجار الاباضية في نشر الاسلام في بعض البلاد الافريقية جنوب الصحراء ، ونشر الاسلام طبقا للمذهب الاباضى في بعض بلدان البربر ، كما ساهم هذا النظام في نشر التعليم بين أبناء المذهب الاباضى^(١) •

وقام شيوخ العزابة بنشاط كبير في تأليف الكتب التي تبصت في العلوم الاسلامية على المذهب الاباضى ونظام العزابة فيه من القسوة بحيث لا يترك للطلاب فراغا ، كما عزل أتباع المذهب عن بقية اخوانهم من أصحاب المذاهب الاخرى بدعوى السرية والمحافظة على تراثهم وعدم كشف أسرارهم لمخالفينهم خوفا من تعرضهم للاذى والعدوان ، بل كان شيوخ العزابة يمنعون طلابهم من قراءة كتب بقية المسلمين^(٢) حتى لا يضلوا •

حالة بقى مدرار

كان أهل مسجلمانسة من مكناسه يعتقدون مذهب الصوفية ، وتعلموه من مشايخ وفقهاء الخوارج الذين وفدوا على بلادهم ، وولوا عليهم سودانيا يسمى عيسى بن يزيد — من موالى العرب — ويلاحظ

(١) المصدر السابق ص ٦٣

(٢) المصدر السابق ص ٦٤

أن الصفرية والاباضية كلنوا من أكثر المذاهب الخارجية انتشارا في المغرب عقب الفتح العربي ، كما كانوا أكثر المذاهب تسامحا واعتدالا مع المخالفين لأذهابهم .

ومؤسس الدولة الدرارية سوداني أسود اللون يسمى عيسى بن يزيد ، ولأخذ يستأثر بالاموال في أواخر أيامه ، مما أثار معارضة مواطنيه ، وتصدى له زعيم المعارضة ويسمى أبو الخطاب الصفرى ، وقال لأصحابه في مجلس عيسى بن يزيد : « السودان كلهم سراق حتى هذا » وأشار الى عيسى ، فأخذه وشده وثاقا الى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلاه بالصل ، وتركوه حتى قتله البعوض والنمل في سنة ١٥٥ هـ

ويشعر الأستاذ الدكتور محمود اسماعيل الى أن تكليد عيسى ابن يزيد الأسود ، امامة الصفرية ، كان مرتبطا بتفريق عنصر السودان على سائر العناصر الاخرى القيمة والمستقرة في هذا الاقليم ، كما كانت هجرة مكثسة الى هذا الاقليم سببا في سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها للامامة وتفوقها على سائر العناصر والقبائل الاخرى التي اختلج صوتها تماما فيما حدث من صراع على الامامة بين أفراد بنى مدرار الكتاسيين ، ويأبوا كبيرهم أبا القاسم سمكو بن واسول بن مصلان ابن أبى نزول ، وكان من أنصار عيسى بن يزيد ، وهو الذى دعا أهله الى طاعته ، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته سنة ١٦٧ هـ ثم خلفه ابنه الياس ، ولكنهم خلعوا طاعته ، وعزلوه سنة ١٩٤ هـ ، وولوا مكانه اليسع بن أبى القاسم فلم يزل أميرا عليهم ، وشيد سور مسجلماسه ، وفي عهده قويت دولته الصفرية ، وأكمل بناء مسجلماسه واختط القصور ، والحدود ، والاسواق .

ولقد حرص الصفرية على انشاء هذه العاصمة في مكان حصين ، فأقاموها في موسطة الصحراء جنوبي تلمسان بعشرة مراحل ، وأسس الصفرية حصنا في وسط المدينة أسموه العسكر ، كما أسسوا المسجد الجامع ودار الامارة ثم أقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن .

فانتصع العمران حتى جاوزت المحينة فرعى نهر ملوية ، وشيد لها مسور
وأربعة أبواب •

ومما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية في سجلماسة توفر الماء
فيها الصادر من نهر ملوية ، وشقت فيها الترع وغرست أشجار النخيل
والفلكمة ، فتحوّلت الحياة من الرعى والبدواة الى الزراعة والاستقرار ،
وقد أغرى الازدهار الاقتصادي لسجلماسة الصفرية في أنحاء بلاد المغرب
الى الرحيل اليها ، والاستقرار بها •

وتحسنّت العلاقات بين الصفرية وبين الدولة الرستمية المجاورة
ويزواج ابنه مدرار من ابنة عبد الرحمن بن رستم — أمير تاهرت — •

ولى مدرار حكم سجلماسة خلفا لأبيه سنة ٢٠٨ ولقبه المنتصر ،
وطال أمر ولايته ، وكان لها ولدان يدعى كل منهما مأمونا ، أحدهما من
زوجته الرستمية والآخر من زوجة أخرى تدعى بقيقة ، فعرف ابنها
بميمون بن بقيقة وكان المنتصر يفضل ابن الرستمية على أخيه حتى أنه
عهد اليه بولاية المهد ، وكان ذلك انتصارا للأباضية سجلماسية ، ودخل
الآخوان في صراع مرير ، استمر ثلاث سنين ، ولم يستطع المنتصر
إنهاء هذا الصراع لذلك خلع نفسه ، وعهد الى ابن الرستمية بعد طرده
ابن بقيقة من سجلماسة ، وأغضب هذا التصرف شيوخ الصفرية في
سجلماسة ، لانتهاك تعاليم المذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد
تحت سيطرة الأباضية من ناحية أخرى ، فخلعوا ابن الرستمية ، وإن كان
قد رفض الامامة ، لذلك أعادوا أباه مدرارا الى الامامة •

لكن المنتصر أرسل الى ابنه ابن الرستمية يطلب منه العودة الى
الحكم ، فظلمه شيوخ الصفرية ، وولوا ابنه ميمون ابن بقيقة سنة ٢٢٩ هـ ،
ولقبوه بالأمر ، وظل يحكم البلاد حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ ، وكان قد نفى

الى قرية سجلماسه ، وخلفه ابنه محمد ، وكان أباضيا وتوفى سنة
٢٧٠ هـ ، خلفه اليسع بن المنتصر ، ووغد عليه عبيد الله المهدي وابنه ،
فزجهما في السجن ، الى أن سار أبو عبد الله الشيعي ، فأخرج عنهما ،
ودخل مع أبي عبد الله الشيعي في معركة قتل فيها سنة ٢٩٦ هـ ودخلت
سجلماسه في حوزة الدولة الفاطمية للنائمة وبذلك سقطت الدولة المدرلية
سنة ٢٩٧ هـ .

الدولة الاسماعيلية الاولى

في اليمن

ترغم جعفر الصادق العلوي في أواخر العهد الأموي ، وهو الامام السادس عند طائفة الامامية ، وترى هذه الطائفة أن الامامة يجب أن تنحصر في أبناء علي الحسينيين ، وأنها لا تنتقل من أخ الى أخ بعد أن انتقلت من الحسن الى الحسين ، ولا تكون الا في الاعقاب ، وقد انقسمت الامامية الى فرقتين بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ ، الامامية الموسوية والامامية الاسماعيلية . وسبب هذا الانقسام ما قيل من أن جعفر الصادق ، عزل ابنه الأكبر اسماعيل — صاحب الحق في الامامة من بعده — لأنه نسب إليه أموراً تتنافى مع الدين ، وعهد الى ابنه موسى فرفض فريق من الامامية نقل الخلافة من اسماعيل الى موسى . وبذلك ظهرت فرقتان : الاسماعيلية والموسوية .

بايع الاسماعيلية محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بالامامة ، بعد وفاة اسماعيل في حياة أبيه ، ووفاته جعفر ، وظلت الامامة الاسماعيلية ، التي ترى أن الامامة لا تنتقل من أخ الى أخ ، وأصبح محمد بن اسماعيل الامام السادس عندهم .

حرص الأئمة الاسماعيلية على نشر دعوتهم سرا ، خوفاً من بطش بنو العباس فكان محمد بن اسماعيل ينتقل في البلاد الاسلامية النائية ، خوفاً من أن تلاحقه عيون بنو العباس ، حتى استقر به المقام في قرية تدعى سهيلاً بالقرب من جبل دماوند . . وأطلق عليها فيما بعد — محمد آباد — .

استقر الامام عبد الله الرضي في سلمية — من أعمال حمص — وأصبحت دار هجرة للأئمة الاسماعيلية ، ولما توفي عبد الله ، تولى ابنه امامة الاسماعيلية .

وكان الدعاء ينيثون في أرجاء العالم الاسلامي يدعون الى المهدي المنتظر في سالميه وينتسرون بقرب ظهوره ، ولما ولي الحسين بن أحمد الامامة خلفا لأبيه ، بذل كل جهد لنشر الدعوة الاسماعيلية في البلاد الاسلامية .

بث الاسماعيليون دعائهم في سائر أنحاء العالم الاسلامي لتحقيق حلمهم المنشود وهو إقامة دولة اسماعيلية ، ولجأوا الى الستر ، ورأى الدعاة في بلاد اليمن أرضا صالحة لنشر دعوتهم وإقامه الدولة الفاطمية فيها ، نظرا لطبيعة البلاد الجبلية الوعرة وتضاريسها المعقدة ، وصعوبة سيطرة العباسيين عليها .

وكان الدعاء يلتقون بالشيعة المتحمسين في الكوفة ، ويقربون اليهم من يلتصقون فيه الكفاءة والمقدرة وقوة الشكينة ونفاذ البصيرة . ومن قربوه اليهم ، أبو القاسم الحسن بن هرج بن حوسب بن زادان الكوفي ، وهو من ولد عقيل ابن أبي طالب ، وكان متعمقا في دراسة علوم القرآن الكريم ، والفقه والحديث مخلصا لمعتقداته الشيعية ، على مذهب الانبياء عشية (١) .

وقد التقى بالامام الفاطمي الحسين بن أحمد الذي تعرف على فضله وطعمه ، ولا يمكن قبول ما ذكره بعض المؤرخين مثل الحمادي اليعاني والجندي من أنه التقى بمبيد الله بن هيمون السداح أو بميمون السداح نفسه ، لأنهما قد توفيا قبل مولد ابن حوشب بكثير ، كما أن ابن حوشب ، لم يذكر أنه اتصل بأحد منهما ، وقال ان الامام الحسين بن أحمد كان يفضي ويقربنى ، ويرمز بقرب الأمر ودنو العصر (٢) .

(١) اثنا عشرية يقولون ان الامامة بعد موسى الكلثم ، تنتقل الى ابيه على الرضا م الى ائمة من بعده حتى الامام الثاني عشر ، وهو محمد المنتظر ابن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا ، وعرفت هذه الطائفة باسم الاثنا عشرية ، لانتظارهم امامهم الثاني عشر ، ويقال ان امامهم الثاني عشر دخل سردابا في مدينة سامرا سنة ٢٦٠ هـ واختفى على اثر ذلك اثنا عشرية ينتظرون عودته ليلا الدنيا عدلا بعد ان ملئت ظلما وجورا .

(٢) النونجي : فرق الشيعة ص ٥٧ وما بعدها)

ومهما يكن من أمر فإن الامام الفاطمي لقن ابن حوشب^(١) أسرار الدعوة الفاطمية ووجهه الى بلاد اليمن ، وقال له : يا أبا قاسم • البيت يمانى والركن يمانى والدين يمانى ، والكعبة يمانيه ، وعهد اليه بأمر بت الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن وأن يقتبأ للناس بأن سمس الدولة الفاطمية ستظهر في اليمن^(٢) •

وفي نفس الوقت تعرف الدعاة الفاطميون على ، على بن الفضل الجيشاني — وهو يعنى من بنى جيسان — وكان تسميها اثنى عشرى ، وقد أدى غريضة الحج^(٣) • وسار في ركب حبيج العراق لزيارة قبر الحسين بن على ، وتأكد الدعاة من أحلامه في التسريح ، فقبوه اليهم ، وأقنعوه بالدخول في المذهب الاسماعيلي^(٤) • واتصل بالامام الاسماعيلي المستور — الحسين بن أحمد الذى اقتنع به ، ورأى ضرورة ضمه الى ابن حوشب والدعوة في بلاد اليمن ، لأنه يعنى يتعرف على طبيعة بلاده وأهلها^(٥) وجمع بينه وبين ابن حوشب ، ودعاهما الى التماون والتضامن في نشر الدعوة ، وقال لابن حوشب : « الى عدن عليها فاقصة ، وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا وفيها تزد دولتنا ، ومنها تفرق دعائنا » وأمره أن يخلص للمذهب ، ويتخذ التأويل الذى هو من فلسفة التسريح ، ويقول بالظاهر والباطن^(٦) • « فما خلق الله من ظاهر الا وله باطن » ، ودعاء

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٠ •

(٢) الحبادى البهقى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٢ •

(٣) الجندى : أخبار القرامطة المخوذ من كتب السلوك ص ٦٣ •

(٤) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٧ •

(٥) ادريس عماد الدين : نزهة الأكارج ج ٢ ص ٢٧ •

(٦) استدلوا على ما ذهبوا اليه بقوله تعالى : (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) — (وقال إنما حرم رضى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) • فالظاهر ما يظنه الناس وعرفه الخاص والعلم • ولما الباطن ما يعرفه الا الاثليل • من ذلك قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) وجميع ما عليه الناس أمثال مضروبة أمثولات وحجوبة • فأعرض للصلاة وما فيها وقف على باطنها ومعانيها ، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به سلجه فمثلا (اتقوا الصلاة وآتوا الزكاة) • • فالزكاة مفروضة في كل علم مرة وكذلك الصلاة •

الى العمل بالظاهر ، واخفاء الباطن ، ودعو الى ظهور المهدي من اليمن ، وأن يجند الرجال ويجمع الأموال ، ويظهر الصوم والصلاة والزهد ، ثم أوصاه خيرا بعلي بن الفضل ، وأوصى علي بن الفضل بأن يتف الى جانب أبي القاسم بن حوشب ، ويحسن صحبته .

وفي نهاية سنة ٣٦٧ هـ غادر الداعيان الاسماعيليان الكوفة ، وتوجها الى مكة المكرمة ، وأتيا خريضة الحج ، وبعدوا عادرا بلاد الحجاز منوجهين الى اليمن ، ويلغا غلافقة في مستهل عام ٣٦٨ هـ ، وكانت ينحدر مدينة زبيد ، تقع على ساحل البحر الأحمر ، ثم افترق الداعيان ، بعد أن اتفقا على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ، ليتعرف أحواله ^(١) .

سان ابن حوشب في صحبة التجار قاصدا عن لاه ، ورحل معهم وقال أنا رجل من أهل العلم ، رغبت في الخروج معكم الى بلادكم ، ففرحوا به وقدروه وأكرموه ، وقالوا : نحن أحوج الى من ييسرنا بأمور ديننا ، ونحن نكفيك المونة ، وكان في الرحلة يساهمهم ، ويروي لهم عريب الأخبار ، فأحبوه وأصفوا اليه وأكرموه حتى قدموا لاه ، فادعى مذهب السنة وأجماعة فتسامع به الناس ، وأقبلوا اليه من كل ناحية ، وهو يظهر الزهد واللورع ^(٢) .

وانتشر أمره ، وطار ذكره في البلاد ، حتى أيدته مغارب اليمن ، والتفوا حوله ، وولوه أمرهم ، وعهد الى الثقة المدول منهم بجمع الزكاة عن أموالهم طبقا للشريعة الاسلامية ^(٣) ، ولما استقر أمره في مغارب اليمن ، وأطاعه الناس ، وأظفوا له ، ولم يعد يخشى من القوى المحلية في بلاد اليمن — وخصوصا بعد مقتل محمد بن جعفر ، واختلاف الحوالتين فيما بينهم — وطلب من أتباعه وأنصاره بناء حصن يدع فيه

(١) ابن نمير الله الهمداني . الصليحون والحركة الفاطمية في اليمن

(٢) الحمادي التيمي : كشف اسرار الباطنية في اليمن ص ٣٥ .

(٣) النسياني : قرة العيون ص ١٨٢ .

الأموال التي تجمعت لديه ^(١) . ويتخذ معصما يعتصم به إذا حاجبه عدو ، وقاعدة لشن الهجمات على أعدائه ، فبنوا له موصما يقال له عز محرم ، وهو جبل تحت مسور ، وأقام في الحصن بعد بنائه هو وأصحابه ونسأؤهم وأولادهم ^(٢) .

استطاع حوشب من محقه التصدى لكل التمديات التي واجهته وحزم صاحب صنعاء من بنى يعفر — وبذلك ازدادت هيئته ، وقوى بأسه وعظم أمره ، ودخل في طاعته من كان حوله طوعا أو كرها ، واتخذ الطبول والرايات ^(٣) وهنا تخلى عن ادعائه المذهب المسمى ، وكشف للناس عن حقيقة أمره ، وأظهر أنه داع اسماعيلي يدعو إلى المهدي المنتظر من آل محمد ، فبايعه عامة الناس على المذهب الاسماعيلي ، وسيطر على جميع مخاليف مغارب اليمن وعهد إلى ولاية من قبله بحكم البلاد التي سيطر عليها وقمع كل المؤامرات التي تعرض لها ، واستولى على صنعاء ، وضخم مغانم كثيرة من أموال بنى يعفر ^(٤) ، وكتب إلى عبيد الله المهدي سنة ٢٩٠ هـ يخبره بالنتصارات وحفول الكثير من البلدان اليمنية الاسماعيلية ، وأوصى له بالهدايا النفيسة ^(٥) .

أما علي بن الفضل ، فبعد أن فارق ابن حوشب بخلافته ، قصد صرو يافع ، ورأى أن أهلها سريعو التأثير بمذهبه ، فطلع رأس الجبل ، وبنى فيه مسجدا ، وأظهر العبادة والورع والتقوى والزهد ، فكان نهاره صائما وليله قائما ، فاجتذب بذلك قلوب الناس إليه ، وولوه أمرهم . وسألوه أن ينزل عن ذلك الجبل ، ويمسكن بينهم ، ولكنه رفض وقال : لا أفعل هذا ولا أسكن بين قوم جهال ضلال ، إلا أن يعطوني السهوء والمواثيق باتباع تمالييم الدين ، ونبذ ما نهى عنه الاسلام التحنيف ،

(١) الشيباني : فترة المعون ص ١٨٤ .

(٢) الحادي اليهقي : كشف لسرار الباطنية ص ٢٦ .

(٣) الشيباني : فترة المعون ص ١٨٩ .

(٤) الحادي اليهقي : كشف لسرار الباطنية ص ٢٧ .

(٥) المقرئى : لتعاط الحنفا : ص ٦٨ — ٦٩ .

وينكرون النكر ، ويأمرون بالمعروف ^(١) .

فاستجيب لعلى ، وأمرهم ببناء حصن سرو يافع ^(٢) وشن عدة حملات على لمحج وأبين ، وهزم سلطانها أبا العلاء ، وأخلص له الجند لأنه أظهر لهم أنه يجاهد أعداء الدين ، ورغبوا كذلك في الحصول على غنائم الحرب ، وما زال يواصل انتصاراته حتى دخلت قبيلة مذحج وغيرها في طاعته ، ودخل الخيفرة سنة ٨٢٩٤ واستولى على حصن التمر وعلى يحصب ، ودخل بنكت ، ودمرها ، ثم زحف الى صنعاء فلما بلغ عنس ، رأى ابن يعفر أن لا طاقه له بابين الفضل وجنده ، فخرج من صنعاء هاربا الى الجوف ^(٣) ، فدخل ابن الفضل صنعاء ، وسيطر عليها ^(٤) . وبذلك استطاع ابن حوشب وابن الفضل اخضاع معظم بلاد اليمن لسيطرتهم .

وقد أبدى الرجلان من التعاون وانتسيق ، ما جعلهما ينجحان في نشر الدعوة ، وكانت سياستهما واحدة ، فاتخذ كل منهما حصنا لحفظ المال والاحتواء به ، واتخاذ قاعدة للهجوم على أعدائه .

وقد نال ابن حوشب تقدير الامام الفاطمي ، ولقبه المنصور ، وبلغ من ثقته به أنه كلفه بنشر الدعوة في أرجاء بلاد الاسلام ، فكان يرسل الدعاة من قبله الى مصر واليهامة والبحرين والهند والمغرب ، فضلا عن بلاد اليمن .

لم يكتف الامام محمد الحبيب بنشر الدعوة في بلاد اليمن ، بل عول على بشا في بلاد المغرب ، ذلك أن بلاد المغرب أرض صالحة لنشر المذاهب الاسماعيلية لأن أهلها عرفوا بمعارضتهم لبني العباس ، وعبروا عن ذلك بانضمامهم الى الأحزاب المعارضة كالخوارج والشيعة . لذلك أرسل

(١) الشيبلى : فترة العيون من ١٨٧ .

(٢) الصلادى اليملى : كشف اسرار البلطنية من ٢٨ .

(٣) الحيدادى اليملى : كشف اسرار البلطنية من ٢٧ - ٢٨ .

(٤) الشيبلى : فترة للعيون من ١٨٧ .

الامام الفاطمي أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا المعروف بالسيدي الى ابن حوشب وأمره بالدخول في طاعته ، وان يأخذ عنه تعاليم ومبادئ المذهب الاسماعيلي ، ويستفيد من تجاربه ، وبعدها يتوجه الى المغرب لنشر الدعوة على غرار ابن حوشب في اليمن ، وهذا يدل على أن ابن حوشب أصبح من أكبر الدعاة الفاطميين في دار الاسلام .

ظل أبو عبد الله التميمي في اليمن عند ابن حوشب يتلقى منه تعاليم الدعوة حتى توفي الداعيان الفاطميان في المغرب ، أبو سفيان والطلوأي ، فآذن ابن حوشب لأبى عبد الله التميمي بالتوجه الى المغرب ونشر الدعوة فيها (١) .

بذل أبو عبد الله التميمي جهدا كبيرا في نشر المذهب الاسماعيلي في المغرب ، وبشر أهلها بقرب ظهور المهدي ، وظل على اتصال بالامام محمد الحبيب ، لما توفي خلفه ابنه عبيد الله المهدي أظهر له الطاعة والولاء ، وأرسل يشره بنجاح الدعوة في المغرب ، بل أرسل اليه وغدا من كتابه يدعو الى القدوم الى بلاد المغرب (٢) .

على أنه في نفس الوقت الذي كان يعتقد فيه رؤساء الدعوة الفاطمية في اليمن ، أن المهدي سيطهر في اليمن ، كان دعاة الاسماعيلية في المغرب يسعون أيضا الى ظهور الدولة الفاطمية في المغرب ، وأرسل رؤساء الدعوة في اليمن ، كما أرسل رؤساء الدعوة في المغرب الى عبيد الله يطلبون قدومه الى بلادهم (٣) .

لما علم الخليفة المكتفي بازدياد نشاط عبيد الله المهدي ودعائه ، بث عيونه في سلمية حتى يتمكن من المهدي ، فغادر المهدي سلمية

(١) المقرئزي : اتماع الحفا ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) المقرئزي : المواعظ والاعتقار ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) ابن الأمير : الكامل ج ٨ ص ٩٥ .

هو وحاشيته وأمرته ومواليه ^(١) ، وأظهر للمقرئين إليه أنه يريد اليمن،
ولما بلغ مصر ، غير وجهته ، وسار إلى المغرب بدلا من اليمن في وقت قد
منصور اليمن ، ابن حوشب — يستعد لاستقباله في اليمن •

تختلف الروايات التاريخية حول أسباب تغيير عبيد الله المهدي
وجهته إلى المغرب بدلا من اليمن • فبعض البعض ^(٢) أن المهدي علم
بخروج ابن الفضل على ابن حوشب ، فكره أن يستقر في بلد منقسم
على نفسه بين الدعاة وغير موحد وتسوده القلاقل والاضطرابات •
ولكن هذا الكلام بعيد عن الحقيقة ، لأن ابن الفضل لم ينتقض على ابن
حوشب ، إلا بعد أن علم بتغيير وجهته نظر المهدي من اليمن إلى المغرب
فغلق طاعة المهدي وداعيته ، وارتد عن المذهب ، واستقل بالبلاد
التي في حوزته •

ولا يبعد أن عبيد الله المهدي اعترم بعد خروجه من سلمية الذهاب
إلى المغرب بدلا من اليمن ، وقد أغراه بذلك أبو عبد الله الشيعي وزين
له أمر المقام فيها • أما اعلانه لخاصته ومواليه حين منادته سلمية
بأنه ذاهب إلى اليمن ، وغير وجهته من مصر إلى المغرب ، فيتمشى مع
ما جيل عليه الاسماعيليون من اظهار غير ما يبطنون ، كما حرص
الامام الفاطمي على ألا يتسرب الخبر إلى بني العباس فيتعقبونه
وينكلون به •

غضب الداعي فيروز — الذي كان في صحبة المهدي في رحلته من
سلمية إلى مصر — من تغيير المهدي وجهته إلى المغرب بدلا من اليمن ،
فتخلى عن مصحبته ، ورحل مغاضبا إلى اليمن ، وأكرم ابن حوشب
وفادته ^(٣) ولا علم لابن حوشب ففروج فيروز على الامام، شرع في قتله ، فلجأ

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ قس ٩٦ •

(٢) المتريزي : تاملت الضفا ص ٩٠ •

(٣) ابن المؤيد البيني : أبناء الزين في اخبار اليمن ص ٢١ •

فيموز الى علي بن الفضل ، الذي ثارت ثائثرته عندما علم بتغيير المهدي وجهته^(١) وخلع طاعته ، وارتد عن المذهب الاسماعيلي ، وكون لنفسه ملكا عريضا في ربوع اليمن ، حكمه بالقوة والعنف مستقلا عن الدولة الفاطمية ، واتخذ المذخيرة سنة ٢٩٤ هـ عاصمة لدولته^(٢) .

حاول منصور اليمن أن يعيد علي بن الفضل الى سابق طاعته للامام عبيد الله المهدي ، لكن بن الفضل أكد لابن حوشب أنه يحذو حذو أبي سعيد الجنابي الذي استقل بالبحرين ، وكتب اليه يقول : « ان لي بابي سعيد الجنابي أسوة . وأنت ان لم تنزل وتحط في طاعتي نابذتك الحرب » فكتب اليه منصور اليمن يماثبه ، ويذكره باليهود والمواثق التي أخذها عليه الالهام ، كما حذره عاقبة الانقسام ، الأمر الذي سيكون له اثره في اضعاف الدعوة . وقل في كتابه : كيف تخلع طاعة من لم تر خيرا الا ببركة الدعاء اليه . وقد أعطينا من اليهود ماقد علمته^(٣) . فأجابه ابن الفضل بقوله : « انما هذه الدنيا تساة ، ومن ظفر بها افترسها »^(٤) . وبذلك فشلت جهود ابن حوشب في إعادة ابن الفضل الى المذهب الاسماعيلي ، ونشأ العداء بين الرجلين .

قاد ابن الفضل عشرة آلاف رجل لحرب ابن حوشب والتعلم منه ، حتى تصفو له اليمن ، فدخل قرية شهبام ، وخرج المنصور للقائه ، وحاصره المنصور ، وشدد عليه الحصار في جبل الصميعة ثمانية أشهر^(٥) ، حتى مل المقام ، وأرسل اليه المنصور ابنه ، فأكرمه ابن الفضل ، وبقي عنده مدة ، ثم أطلق سراحه^(٦) . وبذلك لم يستطع

(١) الحادي الهادي : أسرار الباطنية ص ٢٢ .

(٢) البهائي : سيرة جعفر الحليج ص ١١٥ .

(٣) الحادي الهادي : كشف أسرار الباطنية ص ٣٢ .

(٤) الشيبلي : قرء العيون ص ٢٠٢ .

(٥) المصدر السابق : ص ٢٠٥ .

(٦) زيلر : آفة الدين ص ٣٣ .

المصور النيل من ابن الفصل ، وظل يحكم دولة كبيرة في اليمن • وكان جبلا عاشما •

وأول من دعا الى المذهب الاسماعيلي بأفريقيه الحلواني وأبو سفيل ، أنفذهما جعفر الصادق ، وقال لهما بالمغرب أرض بور فاذهبا واهرثاها حتى يجيىء صاحب البذر ، فنزل الرجلان ببعض بلدان كتامة ، وبذلا جهودا مفضية في نشر الدعوة الاسماعيلية ، وكان الامام الاسماعيلي محمد الحبيب ينزل بسلامية من أرض حمص ، ويمع هذا الامام محمد الحبيب — كما قلنا — على بن الفضل وابن حوشب الى اليمن لنشر الدعوة ، وفي غضون ذلك اتصل أبو عبد الله الشيعي بالامام الاسماعيلي ، فلاحظ فيه مواهب الداعي ، فأرسله الى ابن حوشب في اليمن ، ليتعلم منه أصول المذهب ، وعلوم الظاهر والباطن ، ولإجابات الدعاة وأسرار الدعوة ، وبعد أن يتيقن ابن حوشب من تعلمه وتفقهه في الدعوة ، يرسله الى المغرب ، ويقصد بلاد كتامة فيظهر بينهم الدعوة •

لزم أبو عبد الله الشيعي جانب ابن حوشب ، وشهد مجالسه واستفاد من علمه ، ثم خرج مع حاج اليمن الى مكة ، فلقى رجالا من كتامة ورؤساءهم ، وجلس اليهم وسمعوا منه ، وألقى عليهم دروسا في الدين والأدب ، وأعجبوا به خصوصا لما رأوا ما هو عليه من الزهد والعبادة ، فأحبوه وأخلصوا له ، وتعلقوا به ، وصار يتعهدهم في رحالهم ، فاعتقبوا به ، واعتبط بهم ، ولما أرادوا الرحلة الى بلادهم ، سأله الصيحة ، فوافقهم ، وحرص على أن يخفى حقيقة مذهبه عنهم • واستطاع في رحلته معهم أن يعرف أحوال بلادهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولما بلغوا مصر تظاهر برغبته في الانصراف عنهم بولكلهم ألحوا عليه ، وأصرروا على أن يصحبهم الى بلادهم •

وفي سنة ٢٨٨ هـ وصل وفد كتامة الى بلادهم في صحبة الداعي أبي عبد الله الشيعي ، وأكرم أهل كتامة وفادة الداعي الاسماعيلي ، وكانت

الدعوة الاسماعيلية قد انتشرت بينهم من قبل بفضل الطواني وأبو سفيان ، وكانا قد حرثا هذه البلاد ، كما انتشر التشيع من قبل في بلاد المغرب على يد الامام ادريس بن عبد الله الذي أقام أول دولة نيعية في بلاد المغرب الأقصى بعد موقعة فنج ، التي قادها الناصر الطوى الحسين ابن على بن الحسن بن على ، وكان معروفا بالعلم والتقوى والكمال ، ولكن العباسيين تصدوا له في ذى طوى بالقرب من مكة ، وقتل في مكان يقال له فنج على بعد ستة أميال من مكة •

ومما أدى الى سهولة مهمة أبى عبد الله الشيعي في المغرب انتشار التشيع بينهم ، بل اعتنق بعض وزراء الأغلبية في تونس المذهب الاسماعيلي •

تنافس أهالي كتامه على اكرام وفادة أبى عبد الله الشيعي وبشرهم بقرب ظهور المهدي الذي سيصلح الدنيا ويعيد العدل ويمنع الظلم ويطمئنهم على حاضرم ومستقبلهم ، ولم يلبث أن كتف أبى عبد الله الشيعي عن نواياه لأهل كتامه ، فقال لهم : أنا صاحب للبذر الذي أخبر به أبو سفيان والطواني •

انتشرت وراجت الدعوة لآل البيت بين أهل كتامه وناظر أبو عبد الله الشيعي علماءهم ، ودعا للرضا من آل محمد ، وكانوا يسمونه بالشيعي أو المشرقي •

استخدم أبو عبد الله الشيعي التنبؤ والسحر والتبشير كوسيلة من وسائل الدعاية التي تلائم عقلية البربر في هذه البلاد ، ويرى المؤرخون أن الشيعي لما نزل افريقية سأل أين فنج الأخيار ؟ وهو جبل من جبال كتامه ولم يكونوا قد ذكروه له ، فدهشوا من سؤاله ، ودلوه عليه ، فقال ما سمى الا بكم • ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبؤ عن

الأوطان ، تنصره فيها الأخيـار قوم اسمهم مستق من الكنعان
أى كتلمه) •

كذلك استخدم الداعى السحر ، وصنع من الحيل والطلاسم والرقى
والأحجية ما أذهل العقول •

لما علم ابراهيم بن الأغلب — أمير افريقية — بأمر أبى عبد الله
الشيعى ، أنكر ذلك ، ورأى أن وجوده فى المغرب يشكل خطرا على
ملكه ، فبعث اليه بالتهديد والوعيد ، وتتبعه عمال الأغالبة ، فخشى رؤساء
كتلمه عليه ، وأخفوه عن أعين الأغالبة •

أظهر الداعى أبو عبد الله الشيعى الولاء والطاعة للإمام الاسماعيلى
— المستور — محمد الحبيب ، وكان يرسل اليه الهدايا وأخبار الدعوة فى
بلاد المغرب •

لم يكف أبو عبد الله الشيعى بنشر الدعوة فى بلاد المغرب ، بل
حرص على بسط سيطرته ونفوذه على افريقية ، فأرسل رجاله الموالين
له الى بلدان افريقية ، فسقطت فى أيديهم الكثير من بلدان افريقية ،
وكانت دولة الأغالبة ، قد اعتراها الضعف والوهن ، وانتشر التشيع بين
كبار رجال الدولة ، وانقسم أفراد البيت على أنفسهم ، وفى خلال ذلك
هلك ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وقتل ابنه أبو العباس ، وقام
بالأمر ابنه زيادة الله ، وانتقل من تونس الى رقادة ، وانهمك فى
ملاذاته ، وانتشرت جيوش أبى عبد الله الشيعى فى البلاد ، وعلا أمره ،
وطار ذكره فى الآفاق ، وبشر الناس بقرب ظهور المهدي ، « فكان
كما قال » •

لم تقطع الحرب بين زيادة الله الثالث والشيعة على الرغم من أن
وزراءه أيدوا دعوة الداعى الشيعى • وفى سنة ٢٩٦ هـ دارت واقعة
الاريس التى أدت الى زوال دولة الأغالبة بافريقية ، وامتد نفوذ
الفاطميين فى ذلك الوقت الى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا
مسيطرين تماما على أكثر بلدان المغرب الواقعة الى الغرب من مدينة
القيروان •

ولما توفي محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن اسماعيل الامام عهد الى ابنه عبيد الله ، وقال له : أنت المهدي ، وتهاجر بعدي هجرة بعيدة ، وتلقى منا شديدة . واتصل خبره بسائر دعاته في افريقيه واليمن ، وبعث اليه أبو عبد الله رجالا من كتامه يخبرونه بما فتح الله عليهم ، وأنهم في انتظاره وشاع خبره ، واتصل بالعباسيين ، فتتبعه الخليفة العباسي المكتفي ، وبعث عيونه للملاحقة والقبض عليه وعلى أنصاره واحباط الدعوة الاسماعيليه ، واستطاعت الخلافة الكثف عن الموضوع الذي يختفي فيه الامام ، لذلك رأى الامام الخروج من سلمية ، وفر هو وأنصاره ومواليه وأهله من أرض الشام ، الى العراق ، ثم لحق بمصر ، ومعه ابنه أبا القاسم غلاما حديثا معتزما للخلق بأبي عبد الله الشيعي ، والفرزول بأرض المغرب ، وارتحل من المفسطاط الى الاسكندرية ، ثم خرج من الاسكندرية في زى التجار ، وجاء كتائب الخليفة المكتفي الى عامله على مصر عيسى النوشري يأمره بملاحقة عبدالله المهدي والقبض عليه وعلى أنصاره واستطاع عيسى النوشري تتبع المهدي والقبض عليه ، لكن المهدي أغراه بالمال ، فأخلى سبيله ، وزعم للوالي للخليفة بأن الرجل الذي قبض عليه ليس المهدي ، ولكنه أحد التجار ، وبذلك استطاع المهدي الفرار من أعين العباسيين .

واصل عبيد الله المهدي زحفه الى بلاد المغرب ، فبلغ برقة ، ومنها الى طرابلس ، وتعرضت قافلته لهجمات قطاع الطرق ، ونهب اللصوص فيما نهبوا كتبها في الملاحم منقولة عن آباءه .

لما وصل عبيد الله المهدي الى طرابلس ، أرسل رسلا الى داعيه أبي عبد الله الشيعي ، يبلغه أنه في الطريق اليه ، ومن هؤلاء الرسل أبو العباس أخو أبو عبد الله الشيعي وجماعة من الكتامين ، ولكن خبر هؤلاء الرسل بلغ زيادة الله وهو يسأل عنهم ، فقبض على أبي العباس ، ولم يستطع أن يعرف منه خبر عبيد الله المهدي ، والموضع الذي يقيم

فيه ، وطلب زيادة الله من عمله على طرابلس القبض على المهدي وعلى رفاقه ، ولكن المهدي كان قد غادر طرابلس متجها الى قسطنطينية ، ثم عدل عنها خشية على أبي العباس أخى الشيعي المعتقل في القيوان ، فذهب الى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار ، فأكرم وفادته ، وأنزله في ضيافته غير أن زيادة الله أرسل الى اليسع يبلغه بأن الرجل الذي قدم اليه هو المهدي . لذلك قبض عليه اليسع ، وزجه في السجن .

واصل أبو عبد الله الشيعي انتصاراته في بلاد المغرب وسقطت في يده البلاد ، الواحدة تلو الأخرى ، وشاع عن الشيعي وفائده بالأمان ، فأمنه الناس ، وسار يريد رقادة فرأى زيادة الله أنه لا قبل له بالشيعي ، ففر من رقادة الى المشرق ونهبت قصوره ، ولجأ أهل رقادة الى القيولون وغيرها ودخل أبو عبد الله الشيعي رقادة ، وأعطى للناس أمانا على أموالهم وأنفسهم ، وأكرمهم ، ورحب به أهل رقادة والقيوان ، ودخل رقادة في رجب سنة ٢٩٦ هـ ، ونزل في قصرها ، وأطلق سراح أخيه أبي العباس ، ونودي في الناس بالأمان ، وقسم الشيعي الحدود في رقادة على أهل كتامة واستولى على أموال وأسلحة زيادة الله ، وحذف اسم الخليفة العباسي عن الخطبة وعن العملة .

كان لابد لأبي عبد الله الشيعي بعد أن أسقط دولة الأغلبية واستولى على عاصمتهم رقادة ، أن يطلق سراح الامام عبيد الله المهدي المعتقل في سجلماسة ، فاستخلف على افريقية أخاه أبا العباس ، احتز المغرب لخروجه ، وفرت زناته من طريقه ، ثم دخلوا في طاعته ، وأرسل الى اليسع بن مدرار - صاحب سجلماسة - يخطب وده ، لكن اليسع قتل الرسل ، ولم يقبل صداقته ، بل خرج لحاربته ، ولكنه لم يقو أبا عبد الله الشيعي ، وكثرة جنده ، وقوة بأسه ، فهرب هو وأصحابه ، وخرج أهل البلاد للقاء للشيعي ، وساروا في صحبته الى سجن المهدي وابنه ، وأفرجوا عنهما وبايع للمهدي ومضى مع رؤسائه

القبائل بين أيديهما ، وهو ييكنى من الفرخ ، ويقول : هذا مولاكم .
ولنزل المهدي في مقيم ريثما يتخلص من اليمسج بن مدرار ، وفعل
قطه ، وسار في صحبة المهدي الى رقادة سنة ٢٩٧ هـ ويبيع المهدي
اليعة العلة ، واستقام أمره ويث دعاته في الناس ، فرضوا الا قليلا ،
وقسم الأموال والجوارى في رجال كتامه ، وأقطعهم الأعمال ، ودون
الحوارين ، وجبى الأموال ، ويث العمال على البلاد .

اتخذ عبيد الله المهدي رقادة حاضرة لحولته سنة ٢٩٧ هـ وأمر بذكر
اسمه في الخطبة من منابر البلاد ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، وبذلك
قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ، وتطورت بذلك نظرية الخلافة ،
فبعد أن كانت الخلافة وحدة واحدة لا تتجزأ ، صارت هناك خلافة
جديدة ثانية ، لا تعترف بفسلاقة بنى العباس ، وتدعى أنها أحق
لانتسابها الى آل بيت رسول الله .

أرسل عبيد الله المهدي بعد اعلان خلافته ، عمالا الى الولايات
المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة ، وغيرهم من أهل المغرب الذين
أظهروا الولاء والطاعة للامام ، وأمر أبو عبد الله الشيعي بتوحيد
بلاد المغرب تحت سلطانه ، واستطاع أبو عبد الله الشيعي اخضاع
بعض بلدان المغرب الأوسط والأقصى ، وفي سنة ٢٩٨ هـ أخضع قبائل
زناطة جنوبي بلاد كتامة ، فدانوا له بالولاء والطاعة .

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية محينة بوجودها وقيامها
لجهود أبي عبد الله الشيعي ، الا أن المهدي تخلص منه ، ذلك لأنه
استاء من استبداد أبي عبد الله وأخيه أبي العباس بالأمر دونه ، ذلك
أن المهدي لما شعر بتحكم الشيعي في أمره ، نهاء عن مباشرة الناس ،
وقال : انه مفسد للهيبة ، وساعات العلاقات بين الأخوين من ناحية
والمهدي من ناحية أخرى ، حتى أن أبا عبد الله الشيعي أوهم الناس
أن عبيد الله ليس هو الامام المعصوم ، حتى أن رجلا من كتامه ، يعرف
بشيوخ المشايخ ، ذهب الى المهدي وقال له : جئنا بأية على أمرك ،

فقد شبكتنا فيه ، فقتله المهدي ، وحامت الشكوك حول اقامة المهدي وانتفى الكشايون على قتله ، ولكن المهدي استقطب زعماءهم ، وانجراهم بالمال والخصب ، وارسل المهدي رجلا لقتل ابي عبد الله الشيعي واخيه ابي العباس ، وحينما هم الرجل بقتل الشيعي ، قال له : لا تفعل . فقال : الذي امرتنا بطاعته ، امرنا بقتلك ، ثم قتلها في سنة ٢٩٨ هـ .

استاء الكشايون من مقتل ابي عبد الله الشيعي ، وثاروا على عبيد الله المهدي ، ولكن المهدي اخمد الفتنة ، ثم اشتبك الكشايون مع اهل القميون في معارك متعددة .

ولما استسلم الامر للمهدي بعد مقتل الشيعي ، وهذأت البلاد ، وتولفت الفتن ، عهد عبيد الله المهدي بولاية المهدي لابنه ابي القاسم نزار ، وولى على برقة وما اليها حباسة بن يوسف ، وعهد الى اخيه هرويه بولاية المغرب ، وفتح تاهرت .

لكن الكشايين لم ينسوا حادث مقتل ابي عبد الله الشيعي ونصبوا. طغلا لقبوه المهدي ، وزعموا أنه المهدي ، وأن ابا عبد الله الشيعي لم يموت ، فارسل عبيد الله المهدي ابنه ابا القاسم اليهم ، فصار بهم وقاثلهم ، وهزمهم ، وقتل الطفل ، وبذلك هدأت هذه الفتنة .

وفي سنة ٣٠٠ هـ ثار اهالي طرابلس على الحكم الجديد ، والدولة الجديدة ، ولكن ابا القاسم اخضعهم وفرض عليهم غرامة مالية كبيرة .

تطلع عبيد الله المهدي لفتح مصر لأنها قلب العالم الاسلامي ، ولقربها من الحرمين الشريفين ، ولوفرة خيراتها ، ولعدم ثقته باستمرار ولاء اهل المغرب له ، فارسل حملة من اهل كتامة ، بقيادة ابي القاسم سنة ٣٠١ ، يدعمها اسطول في البحر بقيادة حباسة بن يوسف ، وامتلكت الحملة برقة ثم الاسكندرية والفيوم ، ولكن جيوش بني العباس تصدت لهذه الحملة ، واجلته عن مصر .

استاء المهدي من هزيمة حباسة ، فقتله ، وانتفض لذلك أخوه عروبه في المغرب ، واجتمع اليه خلق كثير من كتامة والبربر ، ولكن المهدي أخمد الفتنة ، كما قضى على فتنة في صقلية .

اعترم المهدي بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها ممصما لأهل بيته ، لما كان يتوقعه على الديلة من الخوارج ، وخرج بنفسه يرتاد موضعا لبنائها ، ومر بتونس وقرطاجنة حتى وقف على مكانها ، جزيرة متصلة بالبر ، وتقع على بعد ستين ميلا جنوبي القيروان ، واختط المهدي هذه المدينة ، وأسماها المهديّة ، وجعلها دار ملكه ، وحاضرة دولته ، وأدار بها سورا محكما ، وجعل لها أبوابا من الحديد ، وابتدأ ببنائها أواخر سنة ٣٠٣ هـ ، وجعل زنة كل باب ألف قنطار ، وطوله ثلاثون شبرا ، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات ، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجاً ، عدا ما كان يجري فيها من القنوات ، وبنى المهدي في المدينة داراً للصناعة ، تسع أكثر من مائتي مركب ، وشيد فيها الأسواق والقصور والدور ومخازن الطعام والمسلح وصهاريج المياه ، ولما أتم بناء حاضرة دولته سنة ٣٠٦ هـ ، قال : اليوم آمنت على الفاطميات ، يعنى بناته ، وفي سنة ٣٠٨ هـ رحل إليها ، وأقام فيها ، وراحت فيها التجارة ، وكان لكل طائفة من التجار سوق يمارسون فيها نشاطهم التجاري ، ولأرباب الحرف شوارع معلومة ، يقيم فيها أهل كل حرفة ، وقد انتقل الناس الى هذه المدينة الجديدة ، وأقاموا فيها ، وشيدوا بها الدور والبيوت ، فعمرت ، وانتشئت فيها التجارة .

أقام المهدي مدينة أخرى الى جوار حاضرتة ، يفصل عنها ميدانا نسيما ، وأحاطها بسور وأبواب ، وسماها زويلة ، نسبة الى لهدى قبائل بلاد المغرب .

وفي سنة ٣٠٧ هـ أرسل المهدي ابنه أبا القاسم الى مصر لفتحها فملك الاسكندرية ، والجيزة والاسمنين ، وكثيما من بلدان الصعيد ،

وكتب الى أهل مكة يطلب منهم الدخول في طاعته ، ولكنهم أبوا ، وكان مصير الحملة الفاطمية على مصر ، نفس مصير سابقتها ، حيث الحق جند بنى العباس بها الهزيمة .

وفي سنة ٣٠٨ هـ أخضع عبيد الله المهدي الأدارسة في المغرب الأقصى بسططانه ، وضم فاس الى حوزته ، وزالت دولة الأدارسة ، وأخضع قواد عبيد الله المهدي بنى مدرار حكام سجلماسة ، وقتلوا أميرها المدراري المكتاسي ، وتعددت الثورات في بلاد المغرب ضد الحكم الفاطمي ، فأرسل عبيد الله المهدي قادته لاختضاع الثورات خصوصا الحركات المناوئة من قبل الخوارج الإباضية والصفرية . والفتالة أن عبيد الله المهدي قضى سنين حكمه في اختضاع الثورات المتعددة والمتفرقة في بلاد المغرب .

وفي سنة ٣٣٢ هـ توفي عبيد الله المهدي ، وولى ابنه أبو القاسم محمد ، ولقب القاسم بأمر الله ، وكثر عليه الثوار وثار عليه بنواحي طرابلس ، ابن طالوت القوشى ، وزعم أنه ابن المهدي ، وحاصر طرابلس ، ولما ظهر للبربر كذبه قتلوه وأخضع ثورة في فاس وفي الريف ، حتى خضعت هذه البلاد للدولة الفاطمية ، وشن عدة غزوات على بعض جزر البحر المتوسط وأرسل حملة الى مصر باعث بالفشك .

وفي عهد هذا الخليفة شهدت بلاد المغرب ثورة كبيرة ، أشعلها ضد الحكم الفاطمي ، أبو يزيد مخلد بن كيداد ، وهذه الثورة دافعها قومى ، ذلك أن أبا يزيد عبّر عن مواطنيه البربر الذين أقاموا ملكا اسلاميا في الأندلس ، وفتحوا هذه البلاد بسيفهم ودمائهم ، واستأثروا العرب بالثروات والنفوذ دونهم ، ولم يجنوا ثمار كفاحهم ، وكذلك الحال في المغرب فقد رأى أبو يزيد مواطنيه البربر أقاموا الدولة الفاطمية في المغرب ، ولم يحصلوا على مكاسب من جهودهم ، فرأى ضرورة الثورة من أجل إقامة حكم وبنى من البربر ، وازالة كل حكم تخيل عن بلاد المغرب .

اعتنق أبو يزيد مذهب الخوارج الصفرية ، وسافر الى تاهرت وأقام بها يعلم الصبيان ، ولما صار الشيخى الى مسجلماسه في طلب المهدي ، انتقل أبو يزيد الى نقيوس يعلم فيها وكان يدعو الى ما يدعو اليه الخوارج الصفرية من استباحة الأموال والنساء والخروج على السلطان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر سنة ٣١٠ هـ ، فكثر أتباعه ، ولما توفي المهدي خرج بناحية جبل أوراس ، وتلقب بشيخ المؤمنين ودعا للناصر الخليفة الأموي بالاندلس ، فانضم اليه جمع غفير من البربر ، وهزم عامل باغايه الفاطمي ، واستولى عليها ، ولكنه لم يلبث أن ارتد عنها ، ثم ملك اربس ، وأحرقها ونهبها ، ودخلت في حوزته بعض البلدان التي يحتلها الفاطميون ، ولم يلبث أن اقترب من المحمية ، وشن عليها عدة غارات ، حتى هجرها أهلها الى البلاد المجاورة . وسار عسكره الى القيروان ، وامتلكها سنة ٣٣٣ هـ ، وخرج اليه شيوخ القيروان فأمنهم ، ورمع الذهب عنهم .

شاع الخراب والدمار في بلاد إفريقية من غارات أبي يزيد فبعث الفائم الى رؤساء كتامه والقبائل والى زيري بن مناد - ملك صنهاجة - بالمسير الى المحمية لاختصاص الثوار .

ولم يلبث أن ضعف نفوذ أبي يزيد بسبب انضمام عدد كبير من البربر الى جيوش الفاطميين ، الأمر الذي اضطره الى متاعده المحمية تاركا حلقه المؤن والعتاد ثم تقدم الى القيروان ، وواقع بأهلها الهزيمة سنة ٣٣٤ هـ .

وفي هذه السنة توفي الخليفة القائم ، بعد أن عهد الى ابنه اسماعيل بالحكم من بعده ، وولى اسماعيل الخلافة ، وتلقب بالنصور ، وكتب موت أبيه بسبب اضطراب البلاد من جراء ثورة أبي يزيد ، فلم يلقب نفسه خليفة ، ولم ينقش اسمه على السكة ولم يذكر اسمه في الخطبة ولا البنود الى أن فرغ من أمر أبي يزيد .

ورأى للنصور ضرورة انخراط من أبي يزيد ، وإحاطة الهوة

والسكينة إلى البلاد ، فأرسل جيشا وأسطولا إلى صومس لمحاصرة أبي يزيد ، هانئهم أبو يزيد ، واستبيح معسكره ، ولحق بالقيوان ، فمنعه أهلها من دخولها ، وطردوا عامله من بلدهم ودخل المنصور القيوان ، أمن أهلها ، ودارت عدة حروب بين الخليفة وأبي يزيد في مواضع متفرقة ، وهزم جند أبي زيد ، ومزقوا سر ممزق ، ومضى أبو يزيد منهزما في قلة من جنده ، ودارت الحرب بين الفريقين في كل موضع وفي كل ناحية ، حتى لجأ أبو يزيد إلى بعض القلاع ، ففتحها الفاطميون عنوة ، وأضرمو فيها النيران ، وقتل أصحاب أبي يزيد في كل ناحية ، وقبض على أبي يزيد ، ومات متأثرا بجراحه سنة ٣٣٦ هـ .

تدهورت الأحوال الاقتصادية في بلاد المغرب بسبب ثورة أبي يزيد ، فانهارت الزراعة ، وتعطلت التجارة ، وكشفت هذه الثورة عن مدى معارضة أهل المغرب للحكم الفاطمي واستعدادهم للانضمام إلى الحركات المعارضة للدولة الفاطمية . وأخذ النفوذ الفاطمي يتضاءل منذ قيام هذه الثورة ، كما ابتدأت الحكومات المستقلة في الظهور في المناطق الغربية من الدولة الفاطمية .

وفي سنة ٣٣٧ هـ شيد المنصور في الموقع الذي دارت فيه المعركة التي أنهت حركة أبي يزيد على مقربة من القيوان مدينة سماها المنصورية ، واتخذها حاضرة لحولته ، وكان لهذه المدينة خمسة أبواب ، الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة ، وباب كتامة ، وباب الفتوح ، وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب . وازدهرت فيها التجارة والصناعة ، وعم فيها العمران ، وظلت حاضرة للدولة الفاطمية ، حتى غادرها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى حاضرت الجديدة ، القاهرة سنة ٣٦٢ هـ .

وفي سنة ٣٤١ هـ توفي المنصور ، وخلفه ابنه معد ، ولقب بالمعز لدين الله الفاطمي ، وحرص على توطيد النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب ، وقهر معارضيه ، فأرسل في سنة ٣٤٧ هـ قائد جواهر الصقلي

الى تاهرت ، فاستولى عليها ، ونكل بواليتها يعلى بن محمد الزناتى ،
الذى خلع طاعة الفاطميين وأعلن ولاءه للخليفة عبد الرحمن الأموى فى
الأندلس . وواصل جوهر زحفه الى البلاد المعروفة للحكم الفاطمى
فوصل الى سجلماسة ، وقد سيطر عليها ابن واسول الذى تنقبى
بالمساكر باقه ، وخطابه الناس بأمر المؤمنين ، ونقش اسمه على
العملة ، وقد استطاع جوهر مطاردته ، وهزيمته ، واسترد نفوذ
الفاطميين على سجلماسة .

وواصل جوهر جهوده فى بسط السيطرة الفاطمية على بلدان
المغرب الأقصى حتى تم له ذلك باستثناء سبته وطنجة التى سيطر
عليهما الأمويون فى الأندلس وبذلك استرد الفاطميون سيطرتهم على
بلاد المغرب ، وإن كان ذلك بصفة مؤقتة ، لأن المغاربة وإن كانوا قد
غضخوا للحكم الفاطمى ، إلا أنهم كانوا غير راضين عنه ومعارضين له ،
ويتحينون الفرص للثورة على هذا الحكم ، وقد انتهت الفرص بحد
انتقال المعز الى مصر .

الدولة الزيرية

لما اعترم المنز لدين الله الفاطمي الرحيل الى مصر ، رأى ضرورة تولية أحد القادة الثقاتة افريقية والمغرب ، حتى يضمن استمرار ولاء هذه البلاد لحولته ، فعمد إلى بلكين بن زيري بن مناد بحكم هذه البلاد نيابة عنه ، وأسماء يوسف بدلا من بلكين ، وكتاه أبا الفتوح ولقبه سيف الحولة ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة ، وأسند اليه قيادة الجيش والأسطول وإدارة الولايات ، وأوصاه بثلاث : أن لا يرفع السيف عن البربر ، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا يولى أحدا من أهل بيته ، وأوصاه بأن لا يسمح للأمويين بعد نفوذهم في بلاد المغرب ، وأن يحافظ على السيطرة الفاطمية والنفوذ الفاطمي في هذه البلاد .

اضطلع بلكين بالمهمة التي أسندت اليه ، فأخضع بلاد المغرب الأوسط ، وسيطر على سجلماسة ، وقضى على ثورة أهل تاهرت ، وأخضع جموع زناته في تلمسان ، وحاصر هذه البلدة حتى استسلمت له ، ولكنه لم يتوغل في المغرب بناء على أوامر الخليفة المنز ، ولم يلبث أن ضم إليه الخليفة ، طرابلس ، وعاد بلكين إلى محاربة زناته ، وفرت أمامه ، فملك غاس وسجلماسة والبلاد المجاورة ، وطردهما عمال بنى أمية الأندلسيين ، ثم غزا جموع زناته بسجلماسة ، وأوقع بهم ، وقبض على ابن خزر — أمين مغراوه ، وقتله .

استجندت جموع زناته التي لجأت إلى سبته بالحاجب المنصور في الأندلس ، فأمدهم بجيش كبير ، ولكن بلكين تراجع عن القتال ، بعد أن هاله قوة جيش المنصور ، وانسحب إلى برغراطة ، وشغل بهماهم ، وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأخصار ، وأزال الدعوة الأموية ، والنفسوذ الأموي من أنحاء المغرب ، وتفرق الزناتيون في الصحراء .

ولا توفي بلكن خلفه ابنه منصور ، بقتل بأمر منهاجة من بعد أبيه ، وفي سنة ٣٧٤ هـ أرسل جيشا الى المغرب الأقصى لاستعادة هذه البلاد من أيدي زناته ، الذين استولوا على سجلماسة وفاس ، ولكن زييري بن عطية المغراوي الملقب بالقرطاس — أمير فاس — هزم جيش منصور بن بلكين ، وتحدثت غزوات الأمير منصور وحملاته على بلاد زناته في المغرب الأقصى ، وعلى فاس بالذات ، حتى أذن زييري بن عطية — أمير فاس — وتخلي عن طاعته للأمويين في الأندلس . وفي سنة ٣٨٢ هـ ، وقد على المنصور في القيروان فأكبر وفادته ، وعفا عنه ، وولاه تاهرت .

خلف باديس أباه المنصور في حكم الدولة الزييرية ، وأرسل عدة حملات لفتح زناته ، ولكنها هزمت ، واضطربت بلاد المغرب ، وتحدثت ثورات زناته ، وقطعوا الطرق فاضطربت التجارة ، وساءت أحوال البلاد الاقتصادية ولكن حماد — قائد الأمير للزييري — شن عدة هجمات على زناته سنة ٣٩٥ هـ ، وشق عصا الطاعة على سيده ، واستقل بما تحت يده من البلاد ، فصار اليه باديس ، لكنه توفي في معسكره ، فخلفه ابنه المعز ، فعاد حماد الى الثورة ، ودخل المسيلة ، فصار اليه المعز وهزمه ، واستسلم ، حيثئذ نظم المعز بن باديس ادارة دولته ، وولى الولايات من يثق في اخلاصه ، وانقسمت الدولة الزييرية الى قسمين : دولة المنصور بن بلكين — صاحب القيروان ، ودولة ال حماد بن بلكين — أصحاب القلعة — ولكن المعز لم يقبل انفصال جزء من دولته فصار الى القلعة ، وحاصر حماد سنة ٤٣٣ هـ ، عدة سنين ، ثم أطلع عنها ، وعاد الى بلاده واستقر ملك المعز بالمريقية والقيروان ، وكان أضخم ملك عرف للبربر بالمريقية ، وقد بلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها وعظمت ثروتها ، وازدادت قوتها ، وظهر زناته في معظم المعارك التي اشتبك فيها ، وقد رفض المعز الذهب الأماعي ، اعتنق مذهب أهل السنة ، ولمن الشيعة وقتل من وجد منهم ، ونكح بدعة الشيعة ، وقد استاء منه الخلفاء الفاطميون ،

وأرسلوا اليه يتوعده ، لكنه خلع طاعتهم ، وقطع الدعاء لهم سنة ٤٤٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وأحرق بنوده ، ومحا اسمه من الطرز والسكة ، ودعا للخليفة العباسي القائم . وبذلك زال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب ، وعادت الى حوزة الخلفاء العباسيين .

لما قطع المعز بن باديس الخطبة للمستنصر الفاطمي سنة ٤٤٠ هـ كتب اليه المستنصر يهدده ويتوعده ، فأرسل المستنصر بنى هلال الى افريقية ، وملكهم كل ما يفتحونه ، وبعث الحسين بن علي التازوري وزير الدولة الفاطمية في مصر - الى المعز بن باديس « قد أرسلنا اليك خيولا ، وحملنا عليها رجالا فصولا ، ليقضي الله أمرا كان مفعولا » .

سار بنو هلال الى برقة ، فوجدوها خالية ، لأن المعز قد أضعف أهلها ونسقت شملهم ، فاستولن الهلاليون برقة ، ولكن المعز ارتاب في شأنهم ، وساء بهم ، العيث الذي أحدثوه في البلاد ، وسيطرتهم عليها ، وتخوف على ملكه منهم ، كما تخوف من سيطرتهم على النواحي الاقتصادية للبلاد ، الأمر الذي قد يهدد سلطانه عليها ، لذلك عهد الى ثلاثين ألفا من أرقائه بالقضاء على بنى هلال ، واجلائهم عن افريقية ، فملكوها سنة ٤٤٦ هـ فخرج كبار رجال بنى هلال الى المعز بن باديس ، وطلبوا منه العفو والصفح ، فعفا عنهم ، ووصلهم ، وأجزله لهم العطايا . ولكنهم عادوا الى العيث والفساد في الأرض ، ونتيجة لهذه الأعمال التخريبية توقفت الزراعة ، والتجارة ، فحم القمح والبلاء بالبلاد ، وإنهار المجتمع ، وهجر الفلاحون قرابهم ، وترك أصحاب الحرف أعمالهم ، فخرج اليهم المعز في جموعه من صنهاجة والسودان ليمسوا لا يقل عن ثلاثين ألفا ، ولكن الهلايين هزموا جنود المعز باديس ، وقتلوا الكثير منهم ، واستباحوهم وعاد المعز الى القيروان مهزوما ، وعاد الى الاستبهاك معهم مهزوم مرة ثانية وثالثة ، وملكوا مدينة ماجة ، وأمر المعز أهل القيروان ، بالانتقال الى المدينة تجنباً لبطش

بني هلال وويلاتهم ، وانتقلت أيدي العرب على القسيرون بالنهب والتخريب ، وعلى سائر الحصون والقرى •

وهاجر مع بني هلال من مصر الى بلاد المغرب ، عرب بني سليم ، وهم بطن من مضر ، وأكثرهم جموعا ، وكانت منازلهم بنجد ، وكان بنو سليم حتى عهد الخلافة العباسية ، شوكة بني وفتنة ، حتى لقد أوصى أحد خلفائهم ابنه ، ألا يتزوج منهم ، وكانوا يسيرون على الديفة ، وتخرج الكتائب من بغداد اليهم ، وتوقع بهم ، وتحالفوا مع أمراء القرامطة من بني طاهر أمراء البحرين ، وتغلبوا على البحرين بعد انقراض أمر القرامطة ، وظلوا بها معتقين لمذهب الشيعة ، فعدوا عنها ، فهاجروا الى صعيد مصر ، وأذن لهم الخليفة المستنصر بالهجرة الى افريقيه ، لمحاربة المعز بن باديس ، واقاموا مع الهلالين في برقة وجهات طرابلس ، ثم صاروا الى افريقيه •

نعود الى المعز بن باديس ، فقد هاجمته القبائل العربية — كما رأينا — حتى اضطر الى الانسحاب الى المهديّة ، وسقطت بلاد دولته الواحدة تلو الأخرى في أيدي العرب الهلاليه وعرب بني سليم ، وقضى السنوات الأخيرة من حكمه في المهديّة التي لم يبق له من ملكه سواها حتى توفى سنه ٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م ، وحلفه ابنه نعيم الذي حكم المهديّة وبعض البلاد المجاورة لها •

ويعتبر عهد نعيم بن المعز بداية النهاية للدولة الزييرية ، وتقاسم ملك آل زيير الهلاليون وبعض زعماء زناتة. ومنهائيه ، يحكم كل قائد يلبا صميريا ، الأمر الذي فتت وحدة البلاد ، وأساء الى اوضاعها الاقتصادية وأضعف من قوه المخلص في افريقيه ومن تماسه وادي ذلك في النهاية الى انهيار اجتماعي حطير في افريقيه •

وفي سنة ٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ م استرد روجر الأول النورمندی جزيرة صقلية بعد جهود حربية قليلة ، وانسحب آخر المدافعين عنها ،

وهو أبو الحواس بأهله وماله الى افريقية ، ولم تلبث قصريانة أن سقطت في أيدي النورماندين . وفي سنة ٤٨٤ هـ - ١٠٩٢ م سقطت بلرم - آخر معاقل المسلمين في صقلية - وبذلك زال الحكم الاسلامي من صقلية ، وزالت دولة الاسلام ، وانطفأ نوره عن هذه الديار .

وقد قاوم تميم بن المعز النورماندي ولكن دون جدوى وأصبح النورمان يشككون خطراً جسيماً على المهديّة نفسها ، فاستتجد على ابن تميم المرابطين ، ورهبوا الخطر عن المهديّة ، وغزوا صقلية ، وبعد انصراف المرابطين عنها ، جمع روجر أسطولا ضخماً ، وشن عدة غارات على المهديّة ، وعجز الحصن بن علي بن تميم عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهديّة سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م وكذلك كل مدن الساحل الافريقي وطرابلس في يد النورمان . ولكن الموحدين أنقذوا هذه البلاد ، واستردوها من أيدي النورمان .

ويجدر بنا أن نشير الى ملصحه أبي زيد الهلالي فنقول أن بنى هلال لما هاجروا الى المغرب ، دارت بينهم وبين الزناتيين معارك متعددة ، وكان الهلاليون يوسلون بأخبار هذه المعارك الى بنى جلدتهم في مصر ، حينئذ تسعراؤهم في صورة قصص شعبية عربية مصري ، عرفت فيما بعد بقصة الهلاليه ، ويطلق القصة يسمى أبو زيد الهلالي أما خصمه ، فيسمى حليفه الزناتي أو الزناتي خليفه . وهذه الملحمة تعتبر من أبرز الأساطير الشعبية العربية ، وتمتاز بطابع شعبي حالص ، يجعلها في الادب الشعبي المرموق .

ويرى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بأن قصة بنى هلال في الادب تختلف عن وقائع التاريخ تماماً ، فالقصة الأدبية تدور حول فتاة جميلة من بنى هلال أحببت فتى من أقربها ، وأراد الزواج منها ، فرفض أهلها زواجه من ابنتهم بعد تمسامة ، واحتالوا على جيببها ونقلوها الى مكان بعيد في المغرب وزوجوها من ابن عمها ، ولكن قلبها ظل معلقاً بحبيبها ، ولم ينس الفتى محبوبته ، وتنتهي القصة بموت الفتاة كمداً لحرمائها من عشيقها ، وموت الفتى حزناً على فراق حبيبته له .

وتجدر بنا الإشارة تفصيلا عن مسيرة بنى هلال في المغرب فنلاحظ
أنهم نسوا خلافتهم في هذه البلاد ، وتحالف القيسية واليعنية بعد طول
خصام ، ويقدم السلطان حسن بن سرحان على الأزواج من أخت دياب
ابن غانم وتدعى « نلقلة » ويقعد السلطان حسن لشيوخ اليعنية دياب
ابن غانم على أن يزوجه أخته نوربارق التي سميت بالجازية أو الجزية
وأصبح لها دور كبير في تدبير أمور بنى هلال ، ورثته من أمها .

وحدثت عدة حروب قبلية ، أنتهت بهجرة بنى هلال الى المغرب
— كما أشرنا من قبل — ولعب بنو هلال دورا كبيرا في تعريب بلاد المغرب
ونشر الاسلام بين البربر .

وعن هذا الدور الهلالي نتحدث المسيرة عن قحط شمل الجزيرة
العربية ، وتسبب في هجرة الهلالية الى بلاد المغرب حيث الخصيب
والزرع ، وقادهم أبو زيد الهلالي ، مصطفى الأمراء الثلاثة أبناء
السلطان حسن بن سرحان ، مرعى ويونس ويصلى الى تونس ، ولكن
حاكم هذه البلاد ، الزناتي خليفة خشي على ملكه من هؤلاء الهلالية ،
وأوجس منهم خيفة ، فقبض على الأمراء الثلاثة ، وزجهم في السجن .
ولم يلبث أن أطلق سراح أبي زيد ، وعاد الى نجد ، وعقد الحزم على
غزو تونس ، وفك أسر الأمراء الثلاثة .

وسار أبو زيد الهلالي على رأس جيشه من بنى هلال وحلفائهم
وأصطحمت الجازية الجيش ، وكانت في مقدمته ، وكان لهذه الجيوش
بطولات في صعيد مصر ، ولما بلغت تونس ، وضع لها أبو زيد الهلالي
خطا حربية ناجحة ، فهو يضلك الجواسيس تارة ، ويستولى على
عيون الماء تارة أخرى ، وأثار جيش الهلالية الرعب في نفوس الزناتى
وجنده ، واستخدم أبو زيد الهلالي النساء كثيرا في أعمال السلب والنهب
داخل بلاد العدو لالقاء الذعر في قلوب أهل البلاد ، والتمهيد لحصول
الهلالية بلادهم ، وكانت الجازية تدبر هذه الخطط ، وتقود النساء الى
تفغيدها . وتواصل المسيرة الهلالية حديثها عن بطولة الجازية ، التي

تمكنت من إطلاق سراح مرعى ويونس ، ولم يلبث أن لقي الزناتى مصرعه بمؤامرة دبرتها ابنته سهدة التى وقعت فى حب مرعى عندما كان فى سجن أبيها ، فهى التى أشارت على الهلالية بارسال دياب الى أبيها وممازجته ، لأن دياب أقدر الفرسان على التعرض لخليفة .

وبذلك تغلب الهلالية على الزناتى خليفة ، ويكنى أبا سعدى وكان فارسا شجاعا ، وكانت المدينة حصينة منيعة ، وكان يأتى بأمره أفيال كثيرة بأس شديد ، وتحديثنا المسيرة أن الهلالية دخلوا فى حرب ضارية ، قتل فيها الكثير من الطرفين ، وقتل زناتى عددا كبيرا من صناديد العرب وشجعانهم ، واستمرت الوقائع سجالا ، والفرسان يتساقطون زراعات ووحيدانا وانتهت المارك بانتصار الهلالية بعد أن قتل دياب زناتى خليفة ، وتفرق جنده ، ولاثوا بالفرار ، وتم فتح تونس ، وجلس دياب على عرشها ، ولبس تاجها ، وعلق رمحها على بابها ، وأمر العرب أن يعبروا تحته ، إشارة الى تملكه عليهم . وثار به بنو هلال ، وكادوا يقتلونه (١) .

وواصل العرب تقدمهم فى بلاد المغرب ، ولكن عادت الصراعات التقليدية بينهم ، واشتد العداء بين القيسية واليمينية . ولكن ظلك العرب رغم ذلك يواصلون زحفهم فى بلاد المغرب حتى بلغوا الأندلس .

ويمكن القول بأن هذه الجصوص العربية أدت دورا كبيرا فى نشر الاسلام واللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية فى بلاد المغرب . وبعبارة أخرى أحدثت تغيرا كبيرا فى البناء الاجتماعى لشعوب المغرب ، وحولته الى مجتمع عربى لغة ودينا وثقافة .

الفصل الخامس

الخلافة الأموية

بالأندلس

(٣١٦ هـ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٩ - ١٠٣١ م)

- ١ - الخليفة عبد الرحمن الثالث - الناصر لدين الله .
- ٢ - الخليفة الحاكم الثاني - المستنصر بالله .
- ٣ - الخليفة هشام الثاني - المؤيد بالله والدولة الطاهرية .
- ٤ - الحاجب المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر .
- ٥ - أبناء المنصور نهاية الدولة الطاهرية .

عبد الرحمن الناصر

٢٠٠ - ٢٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦٢ م

الانتقال من عصر الأمير عبد الله إلى عصر عبد الرحمن الناصر يمثل بـمعنى نقلة كبيرة من عصر إلى عصر ، ومن فترة إلى أخرى تختلف كل منهما عن الأخرى تمام الاختلاف ، وهذا الاختلاف هو تباين بين حكمين ومن عهدين كل منهما يتميز بصفة خاصة وكل منهما له خصائصه وسماته .
ذات أن الأمير عبد الله كان حاكما عاديا من حكام الأندلس ، أما عبد الرحمن الناصر فقد نهض ببلاد نهضة شاملة ، وحول الإمارة إلى خلافة ، وتمتع بحب شعبه واحترام أعدائه ومناقسيه .

حكم عبد الرحمن حوالي نصف قرن ، وطول العمر بالنسبة للحكام قد تتيج لهم الفرصة الكافية لإصلاح أحوال البلاد .

وعبد الرحمن حفيد سلفه الأمير عبد الله ، وقد عهد عبد الله لحفيده عبد الرحمن ، ولم يمهّد لأحد من أبنائه ، ذلك أنه قتل ابنه محمد والد عبد الرحمن بعد أن وجه إليه تهمة التآمر ضده وضد نظلم حكمه .
ويبدو أن الأمير عبد الله ندم على قتل ابنه ، وشعر بتأنيب الضمير فليس من "نهين على قابوس الآباء موت الأبناء بل التسبب في موتهم - ولقد دفع هذا الندم الأمير على تكريم ابنه عبد الرحمن ، والمبالغة في هذا تكريم ، ففضل على أبنائه وأحفاده ، ودفعته عقدة الذنب ، إلى عهد لحفيده عبد الرحمن بالحكم من بعده متخطيا أبنائه ، ولما توفي عبد الله بايع أهل البيت الأموي والشعب عبد الرحمن ، ولم ينزاعه في شك منازع . ويبدو أن اضطراب بلاد الأندلس ، وكثرة الفتن والثورات بها - جعلت الحكم محفوفا بالمكاره وأصبحت مهمة حاكم الأندلس شاقة ، لا تدعو إلى المنافسة ، ولا يتطلع إليها أحد . وعلى أمير الأندلس أن يواجه متاعب داخلية وخارجية للتغلب عليها من الأمور العسيرة . أي أن الأمير عبد الله ترك تركة لا يحسد عليها .

سياسة عبد الرحمن التماسر الداخلية

وجد الأمير عبد الرحمن أرض الأندلس مضطربة كل الاضطراب ، فبدأ عهده بمحاولة فرض الوحدة على بلاد الأندلس ، وذلك بتأديب العصاة ، والقضاء على الفتن والثورات . واعادة الهدوء والاستقرار الى البلاد ، والعودة بدولة الأندلس الى سابق قوتها ، فاتبع سياسة الترغيب والترهيب ، والشدة واللين ، فأنفذ الكتب الى العمال في جميع كور الأندلس ، يطلبهم بالطاعة والولاء ونبذ الخلاف والشقاق بموالية أمير قرطبة ، والخضوع لحكومتها ، وبدأ باصدار منشور أرسله الى كل أمير أو ملك من هؤلاء المتغلبين على النواحي ، وفيه يمد ويتوعد ويحذر فالرجل الذي يقدم ولاعه للحاكم الشرعي ، فانه سيكون من المقربين وسيحقق له ما يريد من مال وسلطان تحت راية الأمانة المركزية ومن لم يفعل فينذره بحرب مدمرة لا تبقى ولا تذر ، فكان يرسل جيوشه الى الناحية ، ومع قائده خطاب الأمان للمتغلب اذا تفاقى عن الحرب ، وأقطع عن العناد ، فإذا رفض قائده الناحية الأمان ، لقنه جيش عبد الرحمن حرما قاسيا ، ويفرض الجيش عليه وعلى ناحيته الاستسلام . أما اذا وافق القائد على الصلح أعطاه الأمان ، ونقله هو وعائلته وأهله ومواليه الى قرطبة ، حيث يكفل لهم بها رغد العيش ، ينزله بمنازل تليق به ، وينفق عليه من الرواتب ، ما يجعله يعيش وأهله في رخاء واطمئنان .

وعرف عن عبد الرحمن الوفاء بوعوده ، لذلك اطمأن له الأمراء في النواحي والقادة . ومن هنا نرى كيف استطاع عبد الرحمن أن يتغلب على هؤلاء الأمراء ، الذين قضوا لاسنوات الطوال في حروب ، يستسلمون واحدا بعد واحد ، ويقبلون الى قرطبة ، حيث يمشون في أمن وعزه ، على أننا لا ننكر أن الأمير عبد الله قد عهد لحفيده عبد الرحمن أمر اضلعف هؤلاء الأمراء وانهاك قواها .

وكان أشد الأمراء عنادا بنى الحجاج في اشبيلية وبنى حفصون

في بيشر ، أما بنو الحجاج فقد استطاع عبد الرحمن أن يجتذب منهم اليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج ، الذي ولى اشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج سنة ٣٠١ هـ ، ثم أذعن له محمد بن ابراهيم بن حجاج صاحب قرمونية ، واستعمل عليها أنصهر سميد ابن المنذر لمهدم سور اشبيلية حتى لا يتمكن النوار من التحصن بداخلها ، وبني القصر القديم المعروف بدار الامارة ، وحصنه بسور من الحجر .

والخصم العنيد الذي أشرنا اليه سابقا ، وهو ابن حفصون ، لا ضعف عمر بن حفصون بعد اعتناقه النصرانية ، تظاهر بالانضمام الى عبد الرحمن بن محمد حتى وفاته سنة ٣٠٢ هـ ، وخلفه ابنه جعفر الذي ذهب مذهب أبيه في العناد والفساد ، فسهر اليه عبد الرحمن جيشا سنة ٣٠٦ هـ ، واستولى في طريقه اليها على حصن دوس أمانش ، وحاصر حصن بلدة من حصون رية ، ودخل المدينة . وفي عام ٣٠٧ هـ ، افتتح عبد الرحمن حصن طرش خشين من أعمال ابن حفصون واستأن صاحب عبد الرحمن بن عمر بن حفصون داخل حصن بيشر ، فخلفه أخوه سليمان ، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير ، فسأله الأمير ، فلما قوى أمر سليمان ، نكت عهده ، وشن الغارات على قرطبة ، ودخل مدينة المنكب عنوة ، وقتل جميع سكانها وظل يشن الغارات على قرطبة ونواحيها ، ويشكل خطرا على دولة الأمويين في الأندلس ، حتى قتل سنة ٣١٤ هـ ، فخلفه أخوه حفص في قلعة بيشر ، ولما لم يجد هذا الأمير غائدة من اللتمادي في العصيان ، استسلم للأمير عبد الرحمن ، وأسلم الحصن وبذلك قضى الأمير عبد الرحمن على أخطر الخارجين عليه ، وهم آل حفصون .

وهكذا أعاد الأمير عبد الرحمن الى أسبانيا وحدتها وقضى على كل الحركات الانفصالية التي مهدت كيانها ، وجمع شمل الأندلس تحت راية واحدة ، الأمر الذي جعل حكومة قرطبة قوية مهابة أمام أعدائها في الداخل والخارج .

تحويل الامارة الى خلافة

بعد أن أخضع الأمير عبد الرحمن الأتطلس ووحدها تحت سلطانه رأى أن يعلن نفسه خليفة ، ويأقب بأمر المؤمنين بدلا من لقب أمير الذي ورثه عن أسلافه الأمراء الأمويين ، فأصدر منشوره في ٢ ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ الى عماله في الكور والمدن الأندلسية يقول لهم : « وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا ، وردوها علينا كذا . اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومقسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الحطيب بموضعتك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله » وأمر الناصر لدين الله بآثبات عبارة « الناصر لدين الله أمير المؤمنين في أعلامه وطراره ودنانيه وحراهمه ، ونفذ الأمر بذلك » .

وهكذا تحولت الامارة الأندلسية الى خلافة ، واستمر خلفاء عبد الرحمن الناصر يلقبون بلقب خليفة ، حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٤٢ / ١٠٣١ م .

رأيتم أن الأمراء الأمويين — قبل الناصر — كانوا يلقبون بأبناء الخلافة أو الأمراء ، ولم يجرأ واحد منهم على التلقب بلقب خليفة على الرغم من العداء الشديد بين الامارة الأموية ، والدولة العباسية ، وعدم اعتراف الأولى بالثانية ، ذلك أن مفهوم الخلافة عند المسلمين في ذلك العصر ، أنها وحدة لا تتجزأ ، وأن الخليفة ، هو حامى حمى الحرمين ، والمسيطر على الحجاز أهل العرب والملة . ولكن بمرور الوقت أفتى علماء الأندلس بجواز تجزئة الخلافة الى أكثر من واحدة ، بحيث يكون بينهما مسافات شاسعة ، منعا للحروب بين الخلافتين ، وذكر بعض المؤرخين أن الأندلسيين أنفسهم طلبوا من عبد الرحمن ، اعلان نفسه خليفة ، ولقبوه الناصر لدين الله . وبذلك تكيف نظرية الخلافة السنية تكيفا جديدا ، تبعا للواقع والضرورة السياسية ومصلحة المسلمين .

ونستطيع ان نجمل أسباب اعلان عبد الرحمن نفسه خليفه في نقاط منها ، ان اخلافه العباسية قد ضعفت في العصر العباسي الثاني ، بسبب ازدياد نفوذ الأتراك ، وعدم مقدرة الخلفاء على السيطرة على بلدان الدولة ، وضعف نفوذهم وسلطانهم . وفي نفس الوقت قامت الخلافة الفاطمية في المغرب ، وهي خلافة علوية لا تعترف بالعباسيين ، وترى أن الخلافة يجب أن تقتصر في آل بيت رسول الله ، وانخفاء الفاطميون هم أول من جزأوا الخلافة ، وشجعوا الأمويين على اعلان الخلافة في الأندلس ، وكان لابد لعبد الرحمن أن يعلن نفسه خليفه لمواجهة خطر الخلافة الفاطمية في المغرب على دولته ، وبعد أن شهدت الأندلس الانقسامات والمقتن الداخلية ، كان لابد لحكومة قرطبة من أن تحول الاماره الى خلافة ، حتى يكتسب حكمه هبة دينية وسياسية أمام رعاياه ، وتضفي على الدولة قوة ومهابة .

ونضيف الى ذلك ما سبق القول من أن أهل الأندلس قد طلبوا من الأمير عبد الرحمن اعلان نفسه خليفة .

مهما يكن من أمر فقد قامت الخلافة الأموية في الأندلس وهي تستند الى السياسة أولا ثم الدين ثانيا ، وتتبع قاعدة الوراثة في الحكم بحيث يختلف في ذلك عن نظام الخلافة في الاسلام أيلم الراشدين الذي يتبع قواعد الشورى والانتخاب .

وبذلك قامت في العالم الاسلامي ثلاث خلافات ، الخلافة العباسية المتداعية ، والخلافة الفاطمية الناشئة في المغرب ، والخلافة الأموية في الأندلس ، وإذا ما قارنا بين هذه الخلافات الثلاث لوجدنا أن الخلافة الأموية في الأندلس أكثرها ديموقراطية ذلك أن الخلافة العباسية تقوم على الاستبداد ، والظيفة يرى أنه مفوض من الله ، أو سلطان الله في أرضه كما قال الخليفة المنصور . أما الخليفة الفاطمي فيرى أنه الامام المعصوم من الخطأ ، ولا يسأل عما يفعل ، ورث المعلوم للدينية وخفايا الكون وأسرار الوجود عن رسول الله ﷺ .

أما الخلافة الأموية في الأندلس ، فعلا تضل على نفسها هذه القدسية ، وانما تتبع الديموقراطية في الحكم ، وتستمع الى آراء المعارضة ودليلنا على ذلك ، أن عبد الرحمن الناصر حينما شيد مدينة الزهراء ، وأنفق عليها أموالا باهظة ، عارضه الأهالي بزعمه قاضي قرطبة ، الذي هاجم الخليفة الناصر على المنبر ، واتهمه بالاسراف والتبذير ، وتبديد أموال الدولة بدون وجه حق ولكن الخليفة لم يعزله ، ولم يعاقبه ، بل تركه وشأنه .

وكانت الدولة الأندلسية تمتاز عن الدولتين السابقتين من حيث الوحدة والتجانس بين الحاكم والمحكوم ، ثم انها كانت تقرأ من ثغور المسلمين ، يواصل عملية الجهاد .

سياسة الناصر الخارجية

١ - الخطر الفاطمي في المغرب :

كان الفاطميون عند تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب ، يهدفون الى غزو الأندلس ، لجعل المغرب الاسلامي كله خاضعا للسيطرة الفاطمية الشيعية ، وبهذا ينقسم العالم الاسلامي الى قسمين ، قسم شرقي تابع للخلافة العباسية السنية ، وقسم غربي تابع للخلافة الشيعية الفاطمية ، فأرسل خلفاؤهم الميون الى الأندلس ، لكشف عوراتها ، والتجسس على أحوالها أمثال ابن حوقل ، وقد لعب هؤلاء الجواسيس في الأندلس ، دورا هاما للدعاية الفاطمية في الأندلس ، في نفس الوقت الذي أمدوا فيه الخلفاء الفاطميين بمعلومات غزيرة عن أوضاع الأندلس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وقد نجح هؤلاء الجواسيس في اجتذاب أنصار لهم في الأندلس من العناصر الناقمة على حكومة قرطبة .

خشى عبد الرحمن الناصر من بأس هذه الدولة المجاورة الطامعة

في بلاده ، فاتخذ خطوات مضادة لحملية حدوده ، وتأمين بلاده من غزو
فاطمي مرتعب ، فأعلن نفسه حليمة — كما قلنا — ليضفي على سلطانه
مهابة ، وبت بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب ، وانضم
اليه الأدارسة أمراء العدو ، وطوك زناته ، وأمدهم عبد الرحمن بالملك
والعتاد ، وساند اثنا عشر موسى بن أبي العافية في ثورته ضد الفاطميين ،
حتى كثر جمعه ، وشكل خطرا على الحكم الفاطمي ، ولكي يؤمن الناصر
حدود بلاده ، استولى على ثغرى سبته وطنجه ، وسيطر على حركة
الملاحة في مضيق جبل طارق ، وأخضع بقايا الأدارسة ، كما وطد
علاقته بأمراء تاهرت ، وشجع التوار على الخليفة الفاطمي إسماعيل أبي
يزيد مغلد بن كيداد كما أنشأ عبد الرحمن أسطولا قويا نازع فيه
أسطول الفاطميين في البحر المتوسط ، كما قصد به الدفاع عن سواحل
الأندلس ضد أي هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميين ، وحدث أن هاجم
الأسطول الفاطمي بقيادة الحسن بن علي مدينة المرية سنة ٣٤٤ هـ
وأحرق السفن الراسية في الميناء ، وسلب رجاله المدينة وأسروا عددا
كبيرا من سكان البرية ، فعمد غالب — قائد أسطول عبد الرحمن
الناصر — إلى الرد على هذه الحملة ، فأغار في ستين سفينة على
سواحل أفريقيه سنة ٣٤٥ هـ وبالذات على مرسى الفزر ، ودمر كل
منطقة سوسة .

كما وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين ، فتحالف مع ملك
إيطاليا هو جودى بروفانس الذي كان غاضبا من الفاطميين لتدميرهم
ميناء جنوه ، كما تحالف مع امبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى
استرداد صقلية من الفاطميين ثم وطد علاقته بالأرمن في مصر ،
وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب
الشيعي . وهذه السياسة منعت الفاطميين من غزو الأندلس .

٢ — الخطر الأسباني المسيحي في الشمال :

لما فتح المسلمون الأندلس أبقوا على بقعة جبلية وعرة وهي

جليقة دون فتح ، وأهملوا أمر الجماعات المستضعفة فيها ، ولكن هذه البقعة نمت وترعرت وقوى أمرها مستغلة الحروب بين المسلمين والاضطرابات الداخلية في البلاد ، وترعم حركة المقاومة ضد المسلمين بلاى ، تم نمت هذه المملكة ، وقوى بأسها في عهد الفونسو الأول الذى استولى على مدينة ليون ، وسيطر على جميع المنطقة الشمالية الغربية التى صارت تعرف بمملكة ليون وقد حصنت هذه المملكة حدودها من خطر المسلمين بمأسلة من القلاع ، ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت في القرن الرابع الهجرى في امارة واحدة عرفت باسم مملكة قشتالة .

ولم تقتصر حركة المقاومة الأسبانية على ليون وقشتالة بل انتشرت قواعد لها على سفوح جبال البرانس شرقا ، ومن أهمها مملكة نافار ، التى سيطرت بحكم موقعها الجغرافى على المعابر الجبلية التى تربط أسبانيا بأوروبا ، وكانت قاعدتها مدينة بيلونة .

ويلاحظ أن هذه الممالك النصرانية نشأت في الجبال خوفا من بطش المسلمين ، وتحصنت بها ، ولما قوى أمرها ، بسطت نفوذها على السواحل المجاورة ، واستولت على أراضي المساميين وهذه الممالك كانت تسند المعون والتأييد من أهم القوى النصرانية المجاورة مثل فرنسا والعالم الكاثوليكي والبابوية .

ولما ولى عبد الرحمن الاندلس ، كان شانشو الأول — ملك نافار — وأوردينيو الثانى — ملك ليون — قد تحالفا على مهاجمة أراضي المسلمين في الاندلس ، وضمها الى بلادهم ، منتهزين لفرصة الفتن الداخلية في الاندلس ، واحتل الملكان فعلا بعض المدن ، واستوليا على بعض الأراضي ، ولما هاجما الملكان قاعدة الثغر الأعلى — سرقسطة — رأى عبد الرحمن الناصر ضرورة التصدى لهذا الخطر الداهم ، فخاض عدة حروب ضد هذين الملكان ، وألحق بهما هزائم كثيرة ، وهدم حصونهم وأسترد البلاد التى انتزعوها من المسلمين ، ومن هذه البلاد أسما وتظيلة ، ولكن راميرو

لثاني كان ملكا غنيدا واصل القتال ضد المسلمين ، واستمرت الحرب بينه وبين عبد الرحمن فترة طويلة ، وأشد هذه الحروب ضراوة ، تلك الحملة التي قادها نجده الصقلي ضد رامرو ، غير أن هذه الحملة انتهت بهزيمة المسلمين عند خندق مدينة شمنقة سنة ٨٣٢٧ ومن أسباب هزيمة الماسين في هذه الواقعة الانقسام بين العرب والصقلية أثناء المعركة ، وقتل القائد نجده الصقلي ونجا عبدالرحمن الناصر هو وقلة من الجند من أيدي العدو بأعجوبة ، حتى أن عبد الرحمن ، لم يشترك في غزوة بعد ذلك .

ولكن هزيمة الناصر لم تؤثر على قوته العسكرية في الأندلس تنه عن عزمه في السيطرة الكاملة على بلاد الأندلس ، ووقف حملات النصارى على بلاده . لذلك جرد على ممالك النصارى عدة حملات أخضعهم ، وأوقف توغهم في البلاد الإسلامية وفي النهاية صار سيد الأندلس بلا منازع .

ولما توفي رامرو الثاني ملك ليون ، ودب النزاع بين ولديه أوردينو وسانشو ، كان الناصر الحكم بينهما ، تحالفت ممالك النصارى معه في الأندلس ، وكسب صداقتهم وأجبر الباقين على احترامه ، كل ذلك في سياسة وكياسة جعلت الجميع لا ينظرون اليه كعدو ، بل صديق ، يحكمونه فيما شجر بينهم . والدليل على الصداقة بين ملوك النصارى وعبد الرحمن الناصر ، أن سانشو — ملك نافار — كان مغرطا في السمعة ، وطلب من قرطبة طبيبا يعالجه ، فأرسل اليه عبد الرحمن طبيبا حاذقا في الطب ، هو حسداى بن شعروط الاسرائيلي لمعالجه ، ونجح هذا الطبيب في مهمته ، فقدم سانشو الى قرطبة على رأس وفد من كبار رجال امرته لشكر الخليفة فأكرم عبد الرحمن وفادته ، وندب الأطباء لمواصلة علاجه وكان من نتيجة ذلك عقد محالفة ، نال من ورائها المسلمون حصونا على حدود مملكته . ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرجون ، يفدون الى قرطبة ، يحتكمون الى أميرها ، ليقر السلام بينهم . وحينما عزل سانشو عن عرشه

طلب من عبد الرحمن مساعدته ، فأرسل جيشا الى ليون أعاد الى سانشو عرشه سنة ٣٤٩ هـ ، وهذا يدل على أن الناصر استطاع أن ييسط مغوذه على الشمال المسيحي، وأن يفصل في مشاكل ملوكه، ويعزل من يشاء منهم .

الخطر النورماندى :

سبق القول أن النورماندى هاجموا سواحل الأندلس في عهد عبد الرحمن الاوسط عدة مرات ، واكن عبد الرحمن الاوسط تمكن من صد هجماتهم . وفي عهد الناصر ، اتخذ الخطر النورماندى طلبا جديدا ، فاتخذ قاعدة لهم بالقرب من ثغور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية ، في ولاية نورمانديا في غرب فرنسا . وقد شكلت هذه الولاية النورماندية خطرا كبيرا على الأندلس ، فكانت تخرج منها الحملات البحرية ، وتسير جنوبا على السواحل الغربية ، وعن طريق الحملات البرية التي كانت تعبر جنوبا فرنسا ، تجتاز جبال البرانس ، وتتسكن غاراتها على الثغور الأندلسية الشمالية ، وقد تصدت جيوش عبد الرحمن لهذه الحملات البرية والبحرية، ولم تمكنها من تحقيق أهدافها التخريبية .

العلاقات الدبلوماسية بين الناصر وملوك أوربا

لم يرتبط الناصر بعلاقات دبلوماسية مع ملوك الولايات الشمالية في أسبانيا فحسب ، بل كانت له علاقات دبلوماسية مع ملوك أوربا ونشبر في هذا الصدد الى سفارة بيزنطية في عهد الخليفة الناصر ، اذ وفد رسل الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع ٩٣٨/٩٤٩م حاملة هدية رائعة الى الخليفة العظيم واحتفل الناصر بقدوم الرسل واصطف العساكر في ذلك اليوم بالسلاح في اكمل شكل ، وزين القصر الضلاقي بأبهى معالم

الزينة ، وصنوف الصقور ، وعيد الخليفة الى أحد قواده باستقبالهم ورافقتهم من الميناء الى العاصمة فلما اقترب موكب رسل السروم من قرطبة ، خرج القواد للقائهم واستقبلهم بالعدد وانمتد ، واصطف القواد وتلقوهم قائدا بعد قائد ، ثم استقبلهم اخيرا الفتيان للكبيران ياسر ونمام أعظم قواد الخليفة ، وذلك مبالغة في الاحتفال بهم ، ورافقاهم الى احد قصور قرطبة ، التي أعدت لمقامهم ، وأحيط هذا القصر بالحراسة المسددة ، ومنع الناس من الاقتراب منه ، ورتب الناصر حلكما لقضاء حوائج الرسل ، وكان الخليفة الناصر مقبلا وقتئذ بالزهراء ، فلما مضى شهر على قدوم هؤلاء الرسل ، وحان موعد مقابلة الخليفة ، رحل من قصر الزهراء الى قصر قرطبة ، وجلس لهم في ١١ ربيع الأول سنة ٨٣٣٨ في بهو المجلس الزاهر ، الذي يعتبر أروع قاعات القصر في قرطبة ، وكان مخصصا للاستقبالات الرسمية وجلس الى يمينه الحكم المستنصر ولى العهد ، ويليه عبد الله فهدب العزيز فالأصبغ فمسروان ، وجلس الى يساره المنذر ثم عبد الجبار فسلیمان — من أبناء الخليفة •

وتوزيع الوزراء حسب مراتبهم الى اليمين واليسار ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي وراءهم وفرشت أبهاء القصر بالبسط القنينة • وبدت قاعة المجلس الزاهر متأنقة بمستور الديباج ، ويريق الثريات ، وسادها السكون ، حتى وصل رسل الأمباطور مبهوتين حائرين الى باب القاعة ، بعد أن مروا بين صفوف القواد رافعين الاسلحة على شكل أقواس ، ثم اقتربوا من الخليفة ، وقدموا له الهدية • ثم عد الرسل الى القسطنطينية بالهدايا الى الامباطور البيزنطى ، ورد على رسائل الامباطور •

نشأت دبلوماسية بين أوتو الكبير ملك الفرنجة ، وامباطور الامباطورية الرومانية المقدسة ، نتيجة لغارات المسلمين المجاهدين على سواحل بلاده الجنوبية ، وأرسل أوتو الكبير الى عبد الرحمن الناصر ، رسالة شديدة اللهجة ، يطلب منه وقف أعمال القرصنة ، والتفريب في

بلاد الجنوبية ، وقد رد عليه الخليفة اناصر برسالة مماثلة سنة ٨٣٣٩
وبعد أعوام قليلة عاد أوتو الكبير ، وأرسل رسالة الى الخليفة الناصر
فأحسن الناصر استقبال حامل الرسالة في قرطبة ، وهو راهب يدعى جان
دى جورز ، وأنزله اناصر في قرطبة في قصر بجوار إحدى الكتائس حتى
يستطيع تأدية شعائره الدينية ، وكان من عادة الناصر أن يحاط علما
بإرساله قبل تقديمها اليه ، فعلم أنها تحديدة للهجة ، وفيه افتراء على
الاسلام واستقبل الخليفة الراهب ورفض تسلم الرسالة وألح الراهب
حتى لا يغضب الملك ، ولكن إزاء إصرار الناصر عاد الراهب ومعه رسول
من الناصر من المستعربين ، يجيد العربية واللاتينية ، ويسمى ربيع بن زيد ،
واستقبله الملك الجديد أوتو أحسن استقبال ، وتخطى عن الرسالة التي
فيها نيل من الاسلام ، وأعاد رسوله الى الخليفة عبد الرحمن الناصر
برسالة لا تتعرض للدين الاسلامي ، واستقبل الخليفة الناصر رسول
الامبراطور في احتفال كبير .

وهذه السفارات تدل بوضوح على مدى ما كان لرجال البحر
الأندلسيين من نشاط في حوض البحر المتوسط ، الى درجة جعلت كلا
من امبراطور بيزنطة وامبراطور الدولة الغربية ، يتوسط لدى خليفة
قرطبة ، كي يحد من نشاطهم .

الصقلية في عهد الناصر :

أطلق الجغرافيون اسم الصقلية على مجموعة الشعوب السلافية
سكان البلاد الممتدة بين بحر قزوين شرقا الى البحر الادرياتي غربا ،
وهي بلغاريا العظمى في المصور الوسطى ، ولقد دأبت القبائل الجرمانية
على سبيل الشعوب السلافية ، وبيع رجالها ونسائها الى عرب اسبانيا ،
وأطلق عليهم الصقلابة ولكن هذه التسمية بمرور الزمن لم تعد تقتصر
على الشعوب السلافية فحسب ، بل اتسع نطاقها ، وشملت سبيل نصارى

الشمال والفرنجة من جنوب فرنسا • ومن سواحل البحر الأسود ومن
إبارديا وكلا بريا في إيطاليا •

وهؤلاء المقلبة ، كانوا يجلبون أطفالا ، ويتعلمون اللغة العربية ،
ويدينون بالاسلام ، ويختلطون بالشعب الأندلسي ويعيشون الحياة
الاسلامية ، وكان منهم الجند والحرص الخاص بالخليفة والخدم وتدرجوا
في سلك الوظائف ، حتى بلغ منهم الشعراء والادباء وامتلكوا المكتبات
الكبيرة والضياع الشاسعة ، وقد ألف حبيب المقلبي كتابا أسماه
(الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل المقلبة) وفقد هذا الكتاب
وأشار اليه ابن بسام في كتابه (الفخيرة) نهر المقلبة في الأندلس منذ
عهد الحكم الريضى ، وكثر عددهم في عهد الناصر حتى شككوا طيقة
جديدة في المجتمع ، ومن أسباب استنكار الناصر من المقلبة أنه لاحظ
أن جنود العرب والبربر ، إذا انتظمو في الجيش انتظمو بمصيبتهم ،
وكان هذا يؤثر على بناء الجيش ، لذلك رأى الناصر ضرورة القضاء على
المصيبات في الجيش ، ويجعل جنوده ملتحقين كأفراد لا كمصيبات ،
وأدى هذا الى ضعف جيش الدولة ، لان المربى أو البربرى لم يكن
يجمع في القتال سوى الحرب في المصيبة ، اذلك استنكر الناصر من
المقلبة في الجيش ، فقد رباهم في المعسكرات ، ونشأوا على الطاعة
والولاء لا عصبية لهم ولا وطن ولا أسرة •

المنشآت المعمارية في عهد الناصر

ازدهرت البلاد في عصر الناصر حضاريا ، وتجلى هذا الازدهار في
المنشآت الفخمة التي خلدت اسمه ، وجعلته من أعظم ملوك أوروبا في
العصور الوسطى •

ومن أبرز منشآته ، مدينة الزهراء التي أسسها شمال غرب قرطبة ،
وعلي بعد ثمانية كيلو مترات منها ، وقد شيد الناصر هذه المدينة ، لتكون

مدينة ملوكية ، يعيش فيه هو وأفراد البيت الأموي بعيدا عن قرطبة
الزخمة بالسكان ، وتروى بعض المصادر أسطورة تقول أن الناصر سجد
هذه المدينة تخليدا لذكرى جارية له كانت تحمل اسم الزهراء ، هام بها
حبسا .

كانت الزهراء مدينة مدرجة على مسطح الجبل ، القسم الأعلى فيه
قصور للخليفة ، والقسم الأوسط بساتين ورياض ، والقسم الأعلى يحتوى
على المسجد ومنازل الخاصة والحراس وكل قسم من هذه الأقسام له
أسوار وأبواب . وقد أشرف على بناء الزهراء الحكم المستنصر ولى
المعهد سنة ٣٢٥ هـ ، وأنفق في بناء المدينة أموالا طائلة ، زادت عن ثلث
إيراد الدولة لمدة ١٧ سنة ، واستغرق بناء هذه المدينة أربعين سنة في عهد
الحكم المستنصر .

وتفيد المصادر أن الناصر قد انتقل الى الزهراء قبل اتمام بنائها ،
ونقل إليها أبنائه وأقاربه ومواليه وخدمه ، وظلت قرطبة مع ذلك العاصمة
الرسمية ، ولا تزال بقايا مدينة الزهراء قائمة حتى يومنا هذا .

على أن الممران لم يستمر طويلا في مدينة الزهراء ، فبعد سنتين سنة
منه ، تعرضت لعبث العابثين وللأعمال التخريبية التي صاحبت نهاية الحكم
الأموي ، وظلت المدينة في الزوال ، حتى أصبحت خرابا تبكى من شيدها
وبناها وأقام صرحاها .

ومن أعمال الناصر الانتشائية إعادة بناء مدينة سالم التي تقع شمالى
مريد بنحو ١٥٣ كم ، وعرفت هذه المدينة باسم قائد من قواد الفتوح
الأول ، وقد تعرضت هذه البلدة للخراب في عهد الأمير عبد الله ، فأعاد
الناصر بناءها ، وجعلها ثغرا حربيا لمواجهة إمارة قشتالة الناشئة .
وأصبحت مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط الى جانب طليطلة قاعدة الثغر
الأدنى ، وسرقتة قاعدة الثغر الأعلى .

والمعروف أن الخليفة الناصر وسع مسجد قرطبة الجامع • ومع أن الناصر حكم حوالي خمسين عاما ، وعذبت له في آخر حكمه الأيام ، فقد وجد في مذكراته الشخصية أن أيام السرور التي صفت له دون تكدير ، كانت أربعة عشر يوما ، وهذا يعطينا فكرة عن مقدار الجهد المتواصل الذي بذله الناصر طول مدة حكمه في النهوض بأعباء الدولة • ويدل على أن الملوك الذين يشعرون بالمسئولية لا يجدون وقتا للراحة أو اللذة بالحياة •

ومما يدل على عظمة هذا للخليفة وتكبير ملوك العصر له أن الملك الأسباني أوردينو ملك ليون زار الأندلس ، في أوائل عهد الخليفة للحكم المستنصر ابن عبد الرحمن ، زار قبر الناصر ، وركع أمامه في خضوع مظهر عظيم احترامه لتكرامه •

ويعتبره المؤرخ دوزي من الملوك المصريين من حيث تطية بالروح الديمقراطية ، والأخذ بأسباب الحضارة وأتباع سياسة داخلية وخارجية ناجحة حتى كانت الأندلس في عهده من الدول الكبرى •

الحاكم المستنصر بالله

(٣٥٠ — ٥٣٣٩ / ٩٦١ — ٩٧٦ م)

ولى المستنصر الحكم بعد أبيه ، وقد تجاوز الأربعين من العمر ودربه أبوه على إدارة بعض الولايات ، وقيادة الجيوش ، وولى المستنصر البلاد بعد أن وطد أبوه الحكم فيها ، وكفل للبلاد الاستقرار والهدوء ، وقصى على الفتن الداخلية ، وأضعف النصارى فى الشمال ، وتحولت الأدلس فى عهده الى دولة كبرى ، تخطب دول العالم ودها ، لذلك كانت مهمته المستنصر فى الحكم سهلة ميسورة وانشغل بقراءة الكتب ، وكان دودة كتب — كما يقول لين بول أنشأ مكتبة فى قصره الزهراء تتألف من أربعمائة مجلد ، وروى أنه قرأ معظم هذه الكتب ، بدليل أن تعليقات بخط يده ، وجدت على هذه الكتب ، وأنفق الأموال الضخمة فى شراء نفائس الكتب والمصنفات ، ومن الكتب القيمة التى بعث فى شرائها ، كتاب الأغاني لأبى الفرج الاصفهاني ، واشتراه بألف دينار .

وكما يقول المرحوم الأستاذ عبد الحميد المبادئ أن من يقضى الوقت فى قراءة الكتب ، لا يستطيع أن يقوم بأعباء الحكم بكفاءة ، لأن منصب الملك لا يعين لصاحبه أن يبلغ الذروة فى العلم ، شيجب على الملك ألا يدفن نفسه فى خزائن كتبه ، وان يحنى بمكتبته ومحفوظاته ، أكثر من عنايته بتؤون الحكم ، والاتجاه الى صالح دولته .

وكان الحكم يجذب العلماء الى قرطبة ، ويبدل فى ذلك أموالا طائلة ومن أبرز العلماء الذين ظهروا فى قرطبة فى عهده ، العالم اللغوى أبا على الغالى ، وتصدى للتدريس فى جامع قرطبة ، وجمع محاضراته فى كتاب فسماه الأمالى ، وقدم هذا العالم الجليل الأندلس فى عهد الناصر لدين الله وظل يواصل نشاطه فى عهد الحكم ويتضمن الكتاب فصولا متفرقة عن العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم وأخبارا تاريخية .

تتصل بعرض شعرائهم ، ومن أشهر علماء الأندلس في عهد المستنصر ابن القوطية ، نسبة إلى أمه سارة حفيدة الملك غيثشة ، وله مصنفات منها كتاب في النحو ، يسمى الأفعال ، وكتاب في التاريخ ، يسمى العربي (تاريخ افتتاح الأندلس) ويبدأ تاريخه من فجر الأندلس ، ويتحدث عن الفتح العربي لهذه البلاد ، ثم يتابع الكتابة في تاريخ الأندلس حتى ينتهي بوفاة الأمير عبد الله سنة ٩١٢ م ، وقد أملى هذا الكتاب على تلاميذه ، بجليل ما ورد فيه مرارا وتكرارا من عبارة قال شيخنا أبو بكر أو قاله ابن القوطية •

ومن أبرز العلماء الذين اجتذبهم الحكم المستنصر إلى قرطبة ، محمد بن الحارث الخشني ، وقد استدعاه الحكم من القيروان ، وأغلق عليه ، ومن أهم مؤلفاته ، « كتاب القضاء بقرطبة » ولهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة الحياة الاجتماعية في قرطبة •

كما كان المستنصر يعقد حلقات البحث والدرس في قصره مع العلماء ، ويتدارس معهم فروع العلم ، وينظرهم ويناقشهم ، شأنه شأنهم • وحرص كذلك على نشر التعليم بين عامة الشعب ، فأنشأ الكتاتيب في قرطبة وفي شتى بلاد الأندلس ، ليتعلم فيها أبناء الفقراء القرآن والقراءة والكتابة والحساب وبعض المعلومات الدينية ، فمن انشاءاته القيمة سبعة وعشرون مكتبا حول المسجد الجامع ، وبكل ريف من أرياض قرطبة •

ولم تزل كتب الحكم في قصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وقد أمر ببيعها الحاجب وأضح من مولى المنصور بن أبي عامر ، ثم نهب ما بقي عند دخول البربر قرطبة ، واقتصامهم الحاضرة الأندلسية عنوة • ومن المؤسف حقا أن الحاجب المنصور ابن أبي عامر ، أمر بأوراق كتب الفلسفة أرضاء للفقهاء •

ذاعت شهرة قرطبة بالكتب في عهد الحكم المستنصر ، فلم يقتصر اقتناء الكتب على الخليفة وحده ، وإنما تعداه إلى أفراد الشعب وكانت

للكتب من أروع متاجرها هزيل : إذا ملت عالم بأشيبيلية فأريد بيع كتبه ،
حمله الى قرطبة حتى تباع فيها وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته
حملت الى أشيبيلية •

ومن أعماله الانشائية توسيع المسجد الجامع ، وإمداد المسجد
بالماء العذب ، وتيسير وسائل الصرف الصحي •

السياسة الخارجية

١ - الخطر الفاطمي في المغرب :

خلت حدة الخطر الفاطمي على بلاد الأندلس في عهد الحكم
المستمر ، ذلك لأن الفاطميين أدركوا أن بقاءهم في المغرب محفوف
بالمخاطر ، بعد تعدد ثورات البربر ، وشعورهم بعدم الأمن والاطمئنان
على بقاء دولتهم واستمرارها وأسس جوهر المقل مدينة القاهرة ،
وانقضى الفاطميون الى مصر سنة ٣٦٢ هـ تاركاً حكم المغرب في يد خلفائه
بنو زيري زعماء صنهاجة •

وظلت بلاد المغرب موضع تنافس بين الأمويين والفاطميين واتخذ
كل من العدوين المتنافسين خلفاء وأعوان وأنصار له في المغربين ، فبينما
كانت زناته تتبع الأمويين وتناصرهم كانت صنهاجة خلفاء الفاطميين ،
وأخيراً وبعد تنافس مرير بن زناته وصنهاجة ، سيطر الزيريون من
صنهاجة على القسم الشرقي للمغرب ، تحت السيادة الفاطمية ،
وسيطرت زناته على القسم الغربي للمغرب تحت السيادة الأموية في
الأندلس •

وأدى اعتماد المسافة بين الخلافتين الى تخفيف حدة التوتر بينهما ،
ومع ذلك حرص الأمويون على تأكيد سيادتهم على المغرب الأقصى تأمينا
لحدود بلادهم من خطر فاطمي متوقع فلقد المستمر سيطرته على
مضيق جبل طارق عن طريق احتلال القواعد المغربية المطلة على المضيق
مثل سبتة وطنجة وبعد التفوذ عن طريقها الى العدو المغربية ، ولكن

الادارسة في المغرب الأقصى ، طعموا في الاستقلال بملكهم ، واستعادة دولتهم ، ولكن الحكم تصدى لهم ، وأرسل اليهم قائده الشجاع غالب ، فاستعاد السيطرة الأندلسية على المغرب الأقصى ، وأخضعهم وقضى على دولتهم ، ونغل بقايا أسرة الادارسة الى قرطبة . وكان هذا آخر عهد لهذه الأسرة التي قامت في هذه البقعة في أواخر القرن الثاني الهجرى .

٢ - الخطر النورماندى :

سبق القول أن النورمان بدأوا يشنون الغارات على سواحل الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأدى ذلك الى يقظة الأندلس ، وأنشاء أسطول قوى يتصدى لخطر أى هجوم بحرى وقد عاد هذا الخطر الجديد على الأندلس سنة ٨٣٠ هـ ، ويرى المؤرخون أن ريكارد الأول دوق نورمانديا - مؤسس هذه الولاية - شن هجوما على السواحل الاسبانية بعيد من السفن ، قصد المستنصر هذا الهجوم ، واتخذ كافة الاحتياطات منها للتحالف مع بعض أمارات نصارى الشمال ، واتخاذ العيون والجواسيس ، للاخبار عن الهجوم قبل وقوعه وأمر بمنع بعض مراكب على هيئة مراكب (المجوس) ووضعها في الوادئ الكبير تمهيدا لقتالهم بها على نفس طريقهم وشن غارات على سواحل نورمانديا بنية اضعاف النورمان ولعب قائده المشهور غالب دورا كبيرا في هذا المضمار . وكان أشد غارات النورمان (المجوس) ضراوة على سواحل الأندلس ، ما حدث منها على غرب الأندلس وفي مياه المحيط الاطلسي .

وقد هاجم النورمان في عهد الحكم سواحل جنوب البرتغال وسهول لشبونة ، حيث حدثت اشتباكات عنيفة قتل فيها من الطرفين كثيرون . ولكن الأسطول الأندلسي لم يستسلم لعنف القتال ، وإنما طارد المراكب النورماندية حتى أباد معظمها ، واسترد أسرى المسلمين .

٢ - موقف المستنصر من نصارى الشمال :

فلما أن عبد الرحمن الناصر ، اتفق قبل وفاته على إعادة سانشو

الى المعرض بدلا من أوردينو الرابع ، مقابل أن يسلم سانشو الى الناصر
بعض الحصون ، واعد الناصر فعلا سانشو الى العرش ، ومات الناصر ،
وولى الحكم المستنصر ، فانتزح سانشو الفرصة ، وهاطل في تسليم
الحصون ، فلما منه أن الحكم ليس بقوة أبيه وأنه فيلسوف لا يهـم
الا الكتب . وفي غضون ذلك وفد أوردينو على المستنصر يطلب منه اعادته
الى الملك ، بدلا من سانشو ، ولما علم سانشو بذلك ، وعد بتسليم الحصون
خوفا على ملكه وخوفا من تخالف الملكين ضده ، ولكن توفي أوردينو ،
فعلا الجولسانشو ، ولم يعد أمامه سوى خصم واحد وهو الحكم ، فحاد
الى رفض تسليم الحصون ، وتحالف مع ملك قشتالة وملك نافار ، ولكن
الحكم أرسل الجيوش الى الشمال ، وهزمت الحلفاء . وتكبد سانشو
خسائر جسيمة . وأدرك أنه لا قبل له بالحكم ، فسلم اليه الحصون .

واعتمد للحكم في ادارة شؤون دولته على وزراءه ومن أبرزهم
وزيره المصحفي ، وكان يتصرف في ادارة الدولة تصرفا مطلقا ، ولا يرجع
الى الخليفة الا في بعض الامور ، ومن هنا ظهرت طبقة كبار الموظفين ،
التي سيكون لها أثرها في الحياة السياسية في الأندلس بعد وفاة الحكم ،
والتي ستفرض سلطانها على الدولة ، على حساب خلفاء البيت الأيوبي .

وكان ولي عهد الحكم في العاشرة من عمره ، وأوصى رجال الدولة
به ، وعهد اليهم بتربيته وتدريبه على شؤون الحكم والسياسة وولى
هشام الحكم بعد أبيه ، ولكن حرص كبار الموظفين على منعه من ممارسة
سلطانه ، لذلك يمكن القول بأن فترة الازدهار في الخلافة الأيوبية كانت
في عهد عبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر قويت البلاد سياسيا
وعسكريا ، وازدهرت فيها الحضارة ، ونهضت فيها الحركة العلمية .

هشام الثاني

(٣٣٦ - ٣٣٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨ م)

تولى هشام الحكم وهو طفل صغير قد تجاوز عشر سنوات الا قليلا ، وظهر في الدولة حزبان يتنافسان حول السلطة والنفوذ ، الحزب المدني ، ويترعنه الحاجب المصحفي ووزراؤه ويرى هذا الحزب الموافقة على تولية هشام الحكم عملا بوصية أبيه ، وهذا الحزب يريد الابقاء على هشام الطفل حتى يتسنى له السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة ، والابقاء على هشام العمدة في أيديهم ، يحكمون بأسمه . أما الحزب العسكري ، وقوامه الصقالية فيرى أنهم خاضوا غمار الحروب في الشمال وفي البحر وفي داخل البلاد ، وأن لهم الحق في السيطرة على سياسة الدولة ، وعلى الحكم ، ويرى هذا الفريق أن هشام طفل لا يصلح للحكم ، ويرشحون للخلافة رجلا يستطيع ادارة أمور البلاد ، ودرء الأخطار الخارجية عنها ، وقمع الفتن الداخلية ، وهذا الرجل هو المغيرة بن عبد الرحمن الناصر . وتتازع الحزبان حول تقرير مصير البلاد ، وانتصر الحزب المدني بقيادة المصحفي على الحزب العسكري ، وتمدى لهذه المؤامرة الخطيرة محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، قتل المغيرة ، ونبت هشام الثاني على العرض ، وتاريخ الإكديس منذ تولية هشام حتى نهاية القرن الرابع الهجري هو في الحقيقة تاريخ هذا الشاب الذي وصل الى الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور في الدولة بأسياب ميكيافيلية أي الغاية تبرر الوسيلة ، لذلك يسميه دوزي بسمارك القرن العاشر الميلادي .

محمد بن عبد الله بن أبي عامر

الملقب بالنصور

(٣٦٦ — ٣٦٣ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٢ م)

محمد بن عبد الله بن أبي عامر من أسرة عربية يمنية من قرية المعافر ، اشتترك جده عبد الملك في جيش طارق بن زياد في عمليات عسكرية في الجزيرة الخضراء ، وبرزت هذه الأسرة في الأندلس ، وشغلوا مناصب هامة وكان منهم القضاة والولاة والعلماء ، وكان عبد الله والد صلحنا من رجال الطم والأدب .

عرف عن محمد بن عبد الله بن أبي عامر الطموح منذ نموه أطفاله ، وتثقف بتقافة أسرته ، فدرس اللغة والأدب على ، أبي علي القالي البغدادي وابن القوطية ، وقرأ الحديث على ، أبي بكر بن معاوية بن القرشي ، ثم فتح دكانا بجوار قصر قرطبة لكتابة الشكاوى للخليفة الحكم ، وظهرت براعته في كتابة الشكاوى ، فكان يحسن عرض الموضوع ، ويكتب بجبارات أدبية جذابة ، وأسلوب متم ، فأعجب به الحكم ، وتقرب إلى السيد صبح زوج الحكم ، وكان يرسل إليها الهدايا في المناسبات ، حتى قيل أنه دخل معها في علاقة حب ، ومن هداياه المشهورة ، للسيدة صبح ، قصر من الفضة الخالصة نموذج من قصر قرطبة ، وقد حملة الرجال إلى القصر وسط نظرات الإعجاب والدهشة ، ومازالت صبح تتبادل الإعجاب ، حتى رفعت من شأنه ، فولاه الحكم أمانة دار السكة ، ثم ولاه قضاء بعض النواحي ، ثم عهد إليه بالإشراف على أموال الزكاة والموارث في إشبيلية وعلى إدارة الشرطة فيها ، ثم جعله وكيلا لولده هشام ولي العهد ، ومازال ابن أبي عامر يرقى في سلك المناصب ، حتى أصبح من كبار رجال الدولة ، وفي مرتبة الوزراء ، ومن الساسة الذين يديرون دفة الأمور في الدولة .

تولى هشام الثاني الحكم — كما قلنا — بتأييد المصحفي وابن أبي عامر ، وبإلطاع الأم صبح ، ورأى هؤلاء الثلاثة ضرورة التخلص من أعدائهم ومنافسيهم ، للصقالية ، وزعيمهم المغيرة بن عبد الرحمن .

عهد هشام الى المصحفي بالحجابة - كما كان حاله في أيام أبيه - ورفق ابن أبي عامر الى مرتبة الوزارة ، بدلا من خطة الشرطة ، ولكن المصحفي كان يخشى على نفوذه من ابن أبي عامر ولا يستريح لبلوغه مرتبة الوزارة ، وكان ابن أبي عامر قويا بفضل مهارته ومقدرته ، وتأييد صبيح التام له ، وكانت صبيح تطعن اليه ، وتطمعن الى مقدرته على تعزيز وُضْع ابنها الفتى ، وحمالية ملكه ، وأدار شؤون البلاد بمهارة حتى صار الحاكم المطلق في الأندلس .

كان لايد لايين أبي عامر من التخلص من كل الشفيعات التي تعترض تحقيق طموحه ، فبعد أن تنصل من المغيرة بن عبد الرحمن ، رأى ضرورة التخلص من المصقلية ، ثم المصحفي الذي لا يزال من الناحية الرسمية للرجل الأول ، والمهيمن على السلطة العليا فيها وكان يغرب أعداءه ببعضهم حتى تغلص منهم نهائيا ، ولم يبق له في الحكم منازع ، وكان المصقلية وعددهم ألف لا يزالون قوة يحسب حسابها فانتهم فرصة كراهيه الحاجب المصحفي للمصقلية - الذين نافسوه بترشيح المغيرة بدلا من هشام - فحصل ابن أبي عامر الحاجب المصحفي على نكبة المصقلية ، فجد في مطاردتهم واستصاء أموالهم ، وأعمل فيهم القتل والنفي ، حتى هلك الكثير منهم ، وانهار بذلك سلطان المصقلية ، وأمن الحاجب وابن أبي عامر شرهم وتقلد الحاجب أمر القصر بدلا منهم ، ويذكر ابن حبان أن المصقلية اشتد طغيانهم في القصر والحولة ، وتقلت وطلاتهم على الناس وعلى الشعب قاطبة .

اعترم ابن أبي عامر بعد التخلص من المصقلية ، على توطيد مركزه بين الجيش والشعب ، فقرر استئناف الجهاد ، وكان المصحفي قد أبدى تقاعسا في ذلك ، حتى انتسح نفوذ : نصارى الشمال ، وكثرت غاراتهم على أراضي المسلمين حتى اقتربوا من قرطبة ، فقاد ابن أبي عامر جيشا الى الشمال ، وعاقب ممالك النصارى ، ولقنهم دروسا قاسيا ، وحذرهم من مغبة الاغارة على أراضي المسلمين ، وعاد محملا

بالغنائم ، فأغلق على جنده ، ونال رضى الشعب والجيش ، والسيدة صبح ، وتطلع الناس اليه للقبض على زمام الأمور فى الدولة .

لا يستطيع ابن أبى عامر تحقيق طموحه الا بالتخلص من المصحفى ورأى فى الشقاق الذى نشأ بين القائد الشجاع غالب وبين غريمه - أقصد المصحفى فرصة لضعفه والتخلص منه ، وضم ابن أبى عامر القائد غالب الى جانبى ، وسعى للرفع من شأنه أمام الخليفة والسيدة صبح ، حتى خرج المرسوم برفعه الى خطة « ذى الوزارتين » وانتدابه لقيادة جيش الثغر وجاهد ابن أبى عامر الى جانب القائد غالب فى معارك النصارى بالشمال ، وانتصر الرجلان ، وزادت مكانتهما فى قرطبة ، وتوثق بينهما ائتلاف للتخلص من العدو المشترك المصحفى .

استطاع ابن أبى عامر استصدار مرسوم من الخليفة بعزل محمد بن جعفر المصحفى من ولاية قرطبة ، وبذلك أضعف من نفوذ المصحفى ، وصدر مرسوم من الخليفة بتولية ابن أبى عامر حكم قرطبة ، وبذلك سيطر على الجيش والحكومة معا ، وضبط العاصمة ، وتخلص من المفسدين ، وأعاد الأمن والطمانينة الى أهل قرطبة . وبذلك ازداد نفوذ ابن أبى عامر ، فى الوقت الذى ضعف فيه نفوذ المصحفى .

وقوى التحالف بين ابن أبى عامر ، والقائد غالب ، وواصلوا سوية الجهاد فى الشمال ، وفى كل عزة يحزنان الانتصارات ، ويعودان الى قرطبة محملين بالغنائم ، فترداد مكانتهما فى القصر على حساب الحاجب المصحفى ، ولم يلبث أن قلد الخليفة ، القائد غالب خطة الحجابة الى جانب جعفر المصحفى ، وبذلك ازداد المصحفى ضعفا ، وتوطدت العلاقة بين غالب وابن أبى عامر بصفة خاصة بعد المصاهرة التى تمت بينهما ، فقد تزوج ابن أبى عامر من ابنة القائد غالب ، وأخيرا آن الاوان للتخلص من المصحفى ، فأمر ابن أبى عامر بالقبض عليه بمرسوم استصدره من الخليفة ، اتهمه بتبديد أموال الدولة ، ومضادى

أمواله ، وثكب أهله ، واستصفى أموالهم وأمر ابن أبي عامر بقتل بعض أفراد أسرة المصطفى ، بك طالبه بالمال الكثير ، حتى اضطره الى بيع قصره المنيف ، ومازال يضطهده بضع سنين حتى توفي سنة ٣٧٢ هـ .
وبذلك تخلص ابن أبي عامر من خصم عنيد ، يقف عقبة في سبيل تحقيق طموحاته .

ولم يبق أمام ابن أبي عامر الا القائد الأندلسي القوي غالب ، وعلى الرغم من المصاهرة بينهما الا أنه كان يتوجس خيفة منه ، ويراه خطرا على سلطانه ، وعقبة في سبيله ، وكان غالب يقيم بعيدا عن قرطبة ، وكان المعارضون ، يرون فيه الرجل الوحيد ، الذي يستطيع التصدي لابن أبي عامر ، والتخلص منه ، لذلك رأى ابن أبي عامر ابعاد القائد غالب عن طريقه ، فاستدعى ابن أبي عامر جعفر بن علي ابن حمدون المعروف بالأندلسي من عدوة المغرب ، وكان من قواد البربر الأقوياء من زناته ، واستصدر له مرسوما باللوزارة ، واستعان ابن حمدون بالبربر ، وأيده ابن أبي عامر ، ورحب بمقدمهم الى الأندلس ، وأدخلهم في الجيش ، واستكثر ابن أبي عامر من البربر حتى اتخذ منهم الحرس والحاشية ، وتقوى بهم ، فارتاب القائد غالب في تصرفات صهره ، وتطور الشك الى عداة شديدة بين الرجلين ، انتهى بالحرب بينهما أمام حصن شنت بجننت ، ولكن القائد غالب أثناء المعركة ، سقط ميتا من فوق جواده ، فذهب الذعر في نفوس جنوده ، وشست ابن أبي عامر شملهم ، وأمن في جيش غالب قتل وأسرا سنة ٣٧١ هـ . وبذلك تخلص ابن أبي عامر من هذا الفارس الشجاع .

ومع أنه استعان لابن حمدون في التخلص من غالب ، الا أنه رأى ضرورة التخلص من ابن حمدون حتى لا يناغسه في السلطان ، فاستعان عليه بابن جهور وابن ذي النون وأولياء الحولة من العرب حتى تخلص منه .

حتى السيدة صبح أم الخليفة التي أوصلت ابن أبي عامر الى ما وصل اليه حتى شك الناس في العلاقة بينهما ، تخلص منها أيضا ، فقد أغضبها استبداده بالامر ، ومنع ابنها الخليفة من ممارسة سلطانه ، وأرادت أن تقضى على نفوذه ، فاستعانت عليه ببعض زعماء البربر في المغرب الأقصى المعادين لابن أبي عامر ، وأرسلت اليهم الاموال والهدايا ، ولكن المؤامرة اكتشفها ابن أبي عامر في مهدها ، وأستولى على الاموال ، ثم استعانت بالمفتحاء ، فأعلن المفتحاء في قرطبة أن ابن أبي عامر يستبد بالنفوذ دون الخليفة ، ولكن ابن أبي عامر دحض هذه التهمة بالمقرب الى الخليفة ، وأظهر الولاء والمطاعة له ، والخروج معه في شوارع قرطبة في موكب ، وانخليفة يحادثه وهو يحدث الخليفة مظهرا الخضوع والخشوع له ، ويحدد من اقامة السيدة صبح ، وأحاط قصرها بالجواسيس ، وشدد الرقابة عليها ، حتى قضت بقية حياتها في زوايا النسيان . وهكذا كان مصير هذه السيدة التي أوصلت ابن أبي عامر الى ما وصل اليه ، وفبلت الاثتراك معه في منع ابنها الخليفة من ممارسة نفوذه وسلطانه .

وهكذا تخلص محمد بن أرويد عامر من منافسيه ، وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وولى منصب الحاجب ، وهو أرفع منصب في الدولة ، ولقب بالمنصور سنة ٣٧١ هـ ودعى له على المنابر ، شأنه شأن الملوك ، وكانت الكتب تنفذ عنه ، وكان الناس يقبلون يده ، كما لو كان الخليفة ، وأضحى ابن ابي عامر يعد أن قضى على كل منافسيه سيد الأندلس بلا منازع ، وصاحب السيطرة على الجيش ، والمسيطر على سيادة الدولة . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد سوى أداة لينة في يد هذا الرجل القوي ، يوجهها كيف شاء .

جهاد المنصور ضد الممالك المسيحية في شمال اسبانيا :

أراد المنصور أن يضفي على حكمه هيبة وقوة ، فاستأنف عهد الجهاد ، وغزا الممالك المسيحية ، وكان يقود جيوشه بنفسه في الربيع

والغريف أى فى الضبوات والشبواتى ، وبلغت هذه الغزوات سبعا وخمسين غزوة على مدى حكمه الذى استمر حوالى خمسا وعشرين سنة ، وانتصر فى كل هذه الغزوات ويروى ابن عذارى : ان المنصور اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الفيار فى غزواته ومواطن جهاده حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بفرض قبره بهذا الفيار عند دفنه ، وكان يحمله حيث ما سار مع اكفانه توقعا لطول منيته فى أى لحظة .

حارب المنصور فى جبهات المسيحيين المتعددة فى قشتالة وليون وبلغار وقطالونيا ، وأنزل بهذه البلاد خسائر فادحة ، وما رأى أسبان التسمال مزائم ولا مذلة كزازتهم على يديه فمدنهم الكبيرة دمرها ووصل الى أقصى الركن الشمالى الغربى من أسبانيا ودانت له جميع أسبانيا شمالا وجنوبا .

ومن أهم حملاته الغزوة التى شنّها على برنسلونه وقطالونيا فى شمال شرق أسبانيا سنة ٣٧٤ هـ ، والحملة التى شنّها على جليقية شمال غرب أسبانيا سنة ٣٨٧ هـ . أما الحملة الأولى ، حملة برنسلونه وقطالونيا ، فقد خرجت من العاصمة قرطبة ، وبلغت برنسلونه بعد شهرين من زحفها ، فدمرها المنصور ولم يستطع أهل المدينة مقاومة هذا الجيش القوى .

أما حملة جليقية ، وهى الغزوة الثامنة والأربعون ، فكان غرض المنصور منها ، هو غزو مدينة شنت ياقيب أى القديس يعقوب ، ويمتد المسيحيون أنه من حوارى السيد المسيح ، وترك القدس ، وسأح فى البلاد ، حتى انتهى به المطاف الى هذه البلدة ، ومات فيها ، وأقام له السكان مقبرة ، فوقها كنيسة ، يزورها المسيحيون من شتى البلاد . المهم أن ابن أبى عامر هدم البلدة كلها الا قبر هذا القديس . وهذه الانتصارات التى لم يشهد الأندلسيون ملها فى أى عهد سابق ، جعلت للمنصور شعبية كبيرة ، والتفت الناس حول هذا البطل الذى أعاد لهم كرامتهم .

العلاقات الأندلسية المغربية في عهد المنصور

حرص المنصور على الاحتفاظ بالعدوة المغربية تأميناً لحدود دولته ، ودرا لخطر شيعي محتمل ، وأصل بسط نفوذ دولته في تلك الأصقاع حتى دانت له البلاد المغربية الممتدة من سبلماسة جنوباً سنة ٣٧٠ هـ وإلى ولايتي تلمسان وتاهرت شرقاً .

ولتدعيم هذه السيطرة على الحدود المغربية ، ولتلافى ثورات البربر في المستقبل ، أقام المنصور قاعدة عسكرية في الجزيرة الخضراء ، لمراقبة الأوضاع في العدوة المغربية ، وسرعة تجريد حملة عسكرية على هذه البلاد ، إذا ما أعلنت الثورة ، كما شيد المنصور منازل له واستراحات في الطريق من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء لسهولة حركته من قرطبة إلى بلاد المغرب في حالة تمردها ، وهو نفس ما في الطرق المؤدية إلى الثغور الأندلسية شمالاً .

واجه المنصور عدة حركات استقلالية في المغرب ، تهدف إلى التخلص من الحكم الأموي في الأندلس ، وأول هذه الحركات سنة ٣٦٩ هـ ، وقد ترعها يلكين بن زيري الصنهاجي وهاجم ظاهر ميجته ، ولكن جيش المنصور مزق جيشه بل معزق ، والمحاولة الثانية أنقذها الحسن بن جنون — وهو من الأدارسة — وقد لجأ إلى يلاط الفاطميين في عهد الخليفة العزيز وحرصه الخليفة الفاطمي ، على المسير إلى المغرب الأقصى ، واسترد ملك آبلئه ولجده ، وسبار ابن جنون إلى بلاد المغرب الأقصى ، وألقت حوله ، الزنانيون والملويون ، وكثر جمعهم ، ولكن جيش المنصور ، هزم الملويين شر هزيمة ، وظلي بن جنون الأمان ، ولكن المنصور رفض لكثرة نكته وقتله ، الأمر الذي أثار استياء الملويين .

ومن أشد الثورات ضراوة في الحدود المغربية ضد حكم المنصور قادها زبري بن عطيه المرأوي الزناني سنة ٣٨٦ هـ ، وهذا للزعيم ورجال قبيلته مغراوة لعبوا دوراً كبيراً في إخماد الثورة الملوية ، وهزيمة

ابن جنون ، لذلك كافأ المنصور زيرى بن عطية ، بأن عهد اليه بحكم بلاد المغرب ، وأقام مدينة وجده سنة ٣٨٤ هـ على الحدود الجزائرية ، وجعلها عاصمة لخرافته المرأوية ، وكانت العلاقات بين هذا القائد وبين المنصور قوية ، وكان يظهر له الولاء والطاعة ، ويتقرب اليه بالهدايا النفيسة والأموال الكثيرة ، لكن حدثته نفسه بالاستقلال ببلاده عن الدولة الأموية في الأندلس ، وطرد عمال وولاء — المنصور من بلاده • ويختلف المؤرخون حول تفسير أسباب ثورة زيرى ، فيرى البعض أنه استغل لقب وزير ، الذي منحه له المنصور ، وكان يريد لقب أمير ، ويرى آخرون أنه كان ينتظر من المنصور مكافآت مالية كبيرة • وهناك من يقول أن السيدة صبح حرضت زيرى على الثورة ، وأرسلت اليه الهدايا ، وحرضته على التخلص من المنصور الذى حجر على ولدها الخليفة هشام بجليل أن شعار جيش زيرى كان : هشام يا منصور •

ولكننا نستطيع أن نقول بأن كل هذه الأسباب — ان صحت — اتخذها زيرى ذريعة للثورة ، أما السبب الحقيقي للثورة فهو رغبة زيرى القوية في الاستقلال ببلاده عن الدولة في الأندلس •

رأى المنصور ضرورة القضاء على هذه الثورة التى تشكل خطرا على النفوذ الأموى في المغرب ، فأرسل جيشا الى المغرب بقيادة مملوكه واضح المصقبى — صاحب ثغر سالم — وسار الى طنجة ، وانضم اليه جموع البربر هناك ، على حين استصرخ زيرى بن عطية قومه زناته ، فعمم أمره وقوى بأسه ، لذلك استطاع صد هجوم جيش الأندلس ، وأرشد واضح عن فاس • هنا قاد المنصور كل جيوش الأندلس الى الجزيرة الخضراء ، وأرسلها الى المغرب بقيادة ابنه المظفر عبد الملك ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة بالقرب من طنجة دون نتيجة حاسمة • فجأة اغتيل زيرى بن عطية ، ويبدو أن المنصور كان من وراء هذه المؤامرة التى أدت الى تشتيت شمل جيشه ، ومزق عبد الملك جند زيرى هزمهم ، واستولى على فاس وسجلماسة ، ودانت ببلاد المغرب لأخصى بالولاء والطاعة للدولة الأموية سنة ٣٨٩ هـ ، وعهد المنصور الى واضح بحكم بلاد المغرب •

أعمال المنصور الادارية والمعارية

كان ابن أبى عامر اداريا من الطراز الأول ، واستغل سلطته المطلقة لمصلحة الدولة والنسب ، وكان يواصل الليل بالنهار فى العمل ، ويقال أن ساعات عمله تجاوزت عشرين ساعة فى اليوم فى خدمة الدولة وتنفذ أمورها بنفسه ، ووكّل مهام الدولة الى رجال يثق بهم ، وكان يراقب أعمالهم بنفسه ، ويث عبونه فى كل ناحية ليطلع على كل كبيرة وصغيرة ، وكان اداريا قديرا حازما ، وعلمتم أنه رغم أعماله المدنية وأعبائه الادارية الكبيرة كان يقود الجيوش بنفسه .

اهتم المنصور بتنظيم الجيش ، وأنشأ صفوفًا جديدة من المرتزقة من زناته ومنزاجه وغيرهما من قبل البربر ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة ونابلى ، وبذل لهم الأجر السخية ، واجتنب قلوبهم بعهده ورفقه وجوده ، وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون فى صف واحد ، وكان العرب يتسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت فى قبائلهم فى أيام الناصر ، ما تزال قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، واضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبى عامر ، فالتقى الميدلن ممهدا لخطه ، فلم تلق سياسته الجديدة معارضة ، وبذلك جعل المنصور الجيش ، جيشا نظاميا دائما ، يتكون من فرق متعددة ، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المخلصة كالعرب والبربر والمسالبة ، وكل جندي من هؤلاء يتقاضى مرتبا شهريا من الدولة حسب رتبته ، وزالت بذلك العصبية القبلية من فرق الجيش .

واهتم المنصور بالمحافظة على الأمن والطمأنينة فى البلاد كما اهتم بالقضاء ، وراقب أعمال القضاء ، حتى يحكموا بالعدل ويمنعوا الظلم .

ومن أهم الانجازات المعمارية للمنصور تأسيسه مدينة ملكية جديدة ، يتفدها مركزا مستقلا للإدارة والحكم ، ويتفدها مظهرها

للمسلطان ، وسمى مدينته الزاهرة ، سنة ٣٣٨ هـ ، وتقع بالقرب من قرطبة ، وأنشأ المنصور بيا قصرا ملوكيا فخما وعسجدًا ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سورًا ضخما ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ، وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين ، واقطع ما حولها للوزراء والقادة وكبار رجال الدولة ، فشيدوا الدور العظيمة وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرياضها برياض قرطبة .

وفي سنة ٣٩٢ هـ توفي المنصور وهو منصرف من غزوة شمالية بالقرب من مدينة سالم ، وقد تنفس نصارى الشمال الصعداء ، فقد كتب أحد الرهبان في تقويمه عن هذه الجملة ، في سنة ١٠٠٢ م مات المنصور ودفن في الجسيم . وهذا يدل كما يقول دوزي على مقدار المارة والحسرة التي يشعر بها النصارى من هزائم المنصور لهم .

عهد الطاجب المنظر عبد الملك بن المنصور

ويعتبر المنصور تنفس ملوك أسبانيا المسيحية الصعداء ، وغرمتهم موجة من الفرح والاعتباط فلقد دمر المنصور بلادهم ، واكتسح سهلهم ، وهدم حصونهم ومعقلهم ونشر الذعر والهلع في قلوبهم ، وشرد جيوشهم ، وأزال سيادتهم ، وأذلهم بانتصاراته العديدة ، وغزواته المتكررة . فلما مات كتب مؤرخ لاطنى في حولياته : « مات المنصور سنة ١٠٢ هـ ، ودفن في النار » .

ولما علم هشام بموت ابن أبي عامر استقدم أبا مروان عبد الملك ابن المنصور ، وأمره بقمع حركة الفتیان المصقالية الذين استظفوا هذه الفرصة لاسترجاع نفوذهم القديم وحذره الخليفة الواقعة الدماء ، وظل عليه ، وأخرج منه كتابا بولاية المجابة مكان أبيه . وهكذا قام عبد الملك بالمجابهة ، وتلقب بالمنظر سيف الدولة في ٣ رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، وقضى على حركة الفتیان المصقالية ، ونفى بعضهم إلى سبتة . وكان عبد الملك قد ورث كثيرا من صفات أبيه ، فاستوسق له الأمر

واجتمع الناس على حبه لعدله وإنسانيته وحمايته للفرع ، وسهره على رعيته ، وتصرفته للمظلومين ، وجهاده في سبيل الله « حتى أيسر الإعداء من حولة بنى عامر ، وعلموا أنها وراثة » . وذكروا أنه كان يزور الصالحين والأولياء في المقابر ، ويستهدى أدعيتهم . ويذكر ابن الخطيب زيارته لأبي أيوب . كذلك كان يزور المسجونين ويتفقد حال المسجونين ، ويكشف عن ظلال سجنهم فيطلقه . ويذكر ابن بسام نقلاً عن أبي مروان بن حيان فقرات فيها وصف لمالة البلاد في عهده منها : « راقت أمامه ، وأحبه الناس سرا وعلائية ، وأنصب الأقبال والتأييد عليه انصباباً لم يسد مع بمثله ، وسكن الناس منه الى عفاف وفزاحة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والماليس والقبان ، حتى سمت أثمان هذه الأشياء في مدته ، وبلغت الأندلس في أيامه الى نواية الجمال والكمال وسعة الحال ، في كنت ملكاً مقبول السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ونجا من الفتن » .

ويضيف ابن حيان في ذكر حسناته ومآثره فيذكر أنه كان من أكثر الناس حياة . نال حظوة الخليفة ورضاه ، فظفر بلقب المظفر ، وظفر ابنه بلقب ذي الوزارتين . ولكن لم يتح لعبد الملك أن يتمتع طويلاً بهذا اللقب ، إذ اعتل أثناء عودته من صائفته الى قلوبنة . من بلاد شبانجة بن غرسبية سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) ، وزاد به مرض الذبحة الصدرية ، وتوفي بالقرب من قرطبة في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٠ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) .

وفي عهد عبد الملك ظهرت عدة شخصيات كان لها أثراً كبيراً في الأحداث السياسية أهمها :

الفتى الكبير طرفة ، والوزير عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف أنظر كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم .

وحاول المظفر بعد عودته من غزواته المذكورة أن يجمع صفوفه ، ويفاجئ العدو بشاتية ، فأمر بالتأهب لذلك ولكنه كان مريضا ، وازداد مرضه في الطريق . وذكر ابن عذاري أنه كان مصابا بذبحه أنهكه وتوفي وهو عائد الى قرطبة بعد سبع غزوات .

لما توفي عبد الملك خلفه أخوه عبد الرحمن ، ولم يكن مثل أبيه وأخيه في قوة الإرادة وقضى حياته في لهو وعبث ، وساعت أحوال البلاد في أيامه ، وأصبحت البلاد على تدهي الأتغار ، وحدثته نفسه بالاستيلاء على السلطنة الشرعية ، وهذا أمر لم يجزأ عليه أبسوه وأخوه ، وكان هشام ضعيفا يوافقه على كل ما يطلب منه ، وطالب منه عبد الرحمن أن يعهد إليه بولاية العهد فوافقه هشام ، وكتب عهدا بذلك جاء فيه : أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد من هذا القمطاني عبد الرحمن . وقد عجل هذا العمل بالقضاء على الحولة العامرية ، فكبر على الناس ضياع الخلافة من قرطش ، ورفض المضيرون توليه اليمينين للخلافة ، كما رفض البيت الأموي ضياع الخلافة منه ، ونارت البلاد ، وانتهر المعارضون فرصة غياب عبد الرحمن ببعض الغزوات في الشمال ، وخلصوا هشاما من العرش ، وولوا رجلا من أحفاد الناصر هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر ، ولقبوه المهدي بالله ، فعاد عبد الرحمن مسرعا من الشمال ، ولكن جنوده انفضوا من حوله ، وهاجمه الثوار وقتلوه سنة ٣٩٩ هـ .

وبموته انتهت الدولة العامرية . وهذا يدل على أن الناس مرتبطون بالخلافة كل الارتباط .

بقي من عمر الخلافة الأموية ٢٣ سنة ، وهذه الفترة اصطاح على تسميتها بمصر الفوضى ، فقد اضطربت البلاد ، ولم يستطع الخلفاء الاستمرار في الحكم الا لفترات محدودة حتى أن من ولي الخلافة في فترة الفوضى ، يزيد على من وليها في القرون الثلاثة الماضية وظهرت العصيات ، واشتد النزاع بين الصقالبة وأهل قرطبة والبربر ، وأعطت هذه الحروب

الاهلية الفرصة لنصارى الشمال لاسترداد كل ما أخذه العاجب المنصور ابن أبى عامر ، بل توسعوا أكثر من ذلك على حساب ملك المسلمين ، وكان زعماء المصبيات يستعينون بالنصارى ضد خصومهم من المسلمين وانتقل بنو حمود من سبتة الى الاندلس ، واستقروا فى قرطبة ، وحاولوا الهيمنة على الاندلس ، ونازعوا الامويين السلطة والنفوذ فى الاندلس .

وفشل بنو أمية فشلا خريما فى استعادة وحدة البلاد وقوتها ، وانتهت بموت آخر خلفائها المعتمد باقة . ومموته أعلن الوزير أبو محمد بن جمهور ، انتهاء الخلافة لعدم وجود من هو جدير بها ، وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهورى عرف فى كتب التاريخ بحكم الجماعة وتبع سقوط الدولة الأموية ، انقسام الاندلس الى دويلات متنازعة ، فسيطر البربر على الجنوب ، وخضع الشرق للصقلانية أما البقية الباقية فقد آلت الى المتخلفين . وقد حكم فى هذه الفترة التى تتسع بين عامى (٤٢٢ - ٤٨٤ هـ) نحو عشرين أسرة مستقلة فى عشرين مدينة . ومن أشهرهم بنو عباد فى أثبيليه وبنو حمود والادارسة فى مالقة والجزيرة ، وبنو زيرى فى غرناطة ، وبنو هود فى سرقسطة وبنو ذى النون حكم طليطلة وبلنسية ومرسية والمريه .

وعلى الرغم من هذا التمزق ، فقد ازدهرت الحياة الادبية فى الاندلس وتنافس الامراء بتزيين بلاطهم بالعلماء ، وكان الفلاح أو الصانع يروى الشعر ، ويقرأ فى غروع العلم ويحاسب فى المسجد للدراسة .

وتجدر بنا الإشارة الى شيخ جليل عاصر هذه الدولة وهو ابن حزم وينسب الى أصل فارسى ، دخل جدة فى خدمة يزيد بن أبى سفيان ، وقدت أسرته الى الاندلس ، وأقامت فى غربها حيث ولد صاحبنا سنة ٣٨٤ هـ ، بدأ حياته بالتقافة الابتدائية فى عصره ، وهى حفظ القرآن . وبعض الأسماء ، والكتابة والقراءة والحساب ، وكان أبوه وزيرا فى أواخر عهد الدولة الأموية ، ولكنه عزل ، وحطت به النكبات ، وعاشت

الأصرة في بؤس وشقاء ، وتوفى أبوه سنة ٤٠٢ هـ . واضطرت الأسرة الى مغادرة قرطبة سنة ٤٠٤ هـ بعد اشتداد عنف البربر ، واستقرت في المرية .

عكف ابن حزم في سببه على دراسة العلوم الاسلامية خصوصا الحديث والأخبار ، ولما ذه به الى نانسيه ، عكف على دراسة الفقه وتلن ابن حزم يدرس كل ما يصل اليه من كتب ، وعلى كل من يلقاه من شيوخه .

ولقد تعرضت أسرته للاضطهاد ، بعد أن حكم قرطبة آل حمود ، واتهموا أسرة ابن حزم بمحاولة اعادة الحكم الى الأمويين واستوزر الخليفة الأموي المستظهر ائذي استرد قرطبة من آل حمود — ابن حزم ، ولكن هذا اللوزير لم يلبث أن قتل في هذا العصر المضطرب ، وزج ابن حزم في السجن ، ثم أفرج عنه .

وعاد ابن حزم الى الاستئغال بالعلم والدرس ، وانصرف على دراسة الفقه والحديث والجدل والدعوة الى الاسلام ، والرد والتصدي لأعداء الاسلام ، ثم عاد الى السياسة ، وشغل منصب وزير الخليفة المسمد — آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس — وهذا آخر عهد ابن حزم بالسياسة وظل ابن حزم على ولاء تام للأمويين ، وكان يقف الى جانبهم ، ويؤيدهم ، ويتولى المناصب الهامة في دولتهم ، ويتعرض للأذى في سبيلهم .

لما اضطرت الدولة الأموية سنة ٣٩٩ هـ ، اضطريت معها أسرة ابن حزم، لما أخذت تنتقل من بلد لآخر ، ولم يستقر لها مقام ، فانتقلت من سرق قرطبة الى غريها ، ثم انتقلت الى المرية ، ثم كان النفي ، ورغم ذلك كان يعيش في رغد من العيش ، وكان لانتقال ابن حزم من بلد لآخر ، أثر كبير في تفكير الناس ، الكثير من الناس يستمعون اليه ، ولكن بعض الفقهاء عارضه وكان ينشر آراءه أينما حل ، وكان الفقهاء يأخذون عليه مخالفته

للمذهب المالكي ، ونقده الشديد لهذا المذهب الذي لا يعتمد تماما على النصوص .

تنقل ابن حزم بين بلدان الأندلس التي انقسمت الى دويلات يسر علمه وآراءه على الناس ، حتى نزل بإشبيلية ، ويحكمها المعتضد بن عبد ، وقد استنكر آراءه ، وأمر بإحراق كتبه ، وذلك بتحريض من الفقهاء الذين استنكروا مهاجمة ابن حزم للإمام مالك والأئمة الأربعة ، وغروجه على الناس بفقته لا صلة له بفقته الأئمة الأربعة .

يضاف الى ذلك أن المعتضد كان سارضا على ابن حزم لأنه أموى النزعة ، وفي تنقلاته بدون الأحداث ، وخشى المعتضد أن يكون ابن حزم قد استهدفه ، فرأى إحراق كتبه ، وإذا يقول ابن حزم أن علمه الذي في صدره لم يحرق ، وأنه معه حيث تنقل ، وإن أوراقه التي أحرقت ، سيسجل غيرها ، أو يحدث به الناس ، أو يموت في صدره .

انتهت رحلات ابن حزم الى الإقامة في قرية يملكها أسلافه ، وآلت اليه ، وهو يشغل كل وقته في البحث والتأليف والتدريس لطلاب العلم ، ولم يعر اهتماما بالمجادلين والمعارضين نه وبلغت شهرته الآفاق ، وكان الطلبة يقدون عليه من كل مكان ، وهذه القلة القليلة من طلاب العلم الذين كانوا يتعلمون منه في ضيعته في أيامه الأخيرة ، هي التي نشرت علمه من بعده . ولم يعد التاريخ يذكر ابن حزم وزيرا أو سياسيا بارزا ، إنما يذكر له شهرته كامام مجدد وظل يدرس ويعلم حتى وفاته سنة ٥٤٥ هـ .

تفقه ابن حزم في علوم متنوعة ، كان كاتباً أدبياً ، عالماً في الفلسفة والمنطق ، له آراء فريدة في الفلسفة حتى أنه يعارض آراء أرسطو في المنطق ويكتب للتاريخ بكل دقة ، ويضاهيه من المبلغات والشواثب ويحقق في الانساب بدقة وعمق ، وكان حافظاً للحديث ومحيطاً به وفوق ذلك فقيهاً أحيا وجدد علم الظاهر ، لأنه المنهاج الذي يتمكن به من بيان أحكام القرآن والسنة . يضاف الى ذلك أنه عالم بالملك والنحل غير الاسلامية والفرق

الإسلامية ، ولا يقصد في علم العقائد إلا ما كان واضحا ظاهرا ولا يقصد إلى المناهج المعقدة المتأثرة بمناهج اليونان •

ويناقش الفلاسفة ، ويستنكر معتقداتهم بالدليل القاطع • وبذلك لم يدع ابن حزم فرعاً من فروع العلم إلا تناولها بالدرس وهو من أكثر العلماء تأليفاً وتصنيفاً ، بحث في العلوم الإسلامية كلها •

كان ابن حزم عالماً في العلوم النفاية كال تفسير والفقه والحديث وعلوم اللغة ، كما كان عالماً في العلوم العقلية خصوصاً المنطق والفلسفة والتاريخ ، وصنف كتباً قيمة في هذه المجالات ومن العلماء الذين اعترفوا لابن حزم بالتبصر والاجتهاد المطلق والنقافة الواسعة والعلم الفزير تلميذه الحافظ الحميدى • قال كان أبو محمد حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متقناً لعلوم جمة ، عاملاً بعلمه زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له لأبيه قبله ، في الوزارة وتدبير الملك ، متواضعا ذا فضائل جمة ، وتوالت كثيره ، في كل ماتحقق به من العلوم ، وجمع من الكتب والمصنفات والمستندات كثيراً ، وسمع سماعاً جماً ، وما رأينا مثله وكان له في الآداب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير ، ولقد جمعناه على حروف المعجم •

وقال ابن خلكان : كان ابن حزم حافظاً عالماً بطوم الحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، بعد أن كان شافعياً المذهب ، فانتقل إلى مذهب الظاهر ، وكان أدبياً شاعراً ، طبيباً ، له في الطب رسائل ، وكتب في الأدب •

أما عن أسلوب ابن حزم — في كل هذه المؤلفات والمصنفات فهو

أسلوب الفكر الحقيقي العميق ، الذى يجعل من اللغة أداة طيعة للتعبير عن أفكاره ومعانيه ، دون لغو أو حشو ، ودون استطراد أو خـروج عن الموضوع .

- أما أشهر مؤلفات ابن حزم فى التاريخ :
- جوامع السيرة .
 - أسماء الصحابة الرواة .
 - القراءات المشهورة فى الأمصار .
 - أسماء الخلفاء والرواة .
 - جمهرة أنساب العرب .
 - نقاط العروس فى تواريخ الخلفاء .
 - رسالة فى فضل علماء الأندلس .
 - رسالة فى أمهات الخلفاء .
 - الإمامة والسياسة فى سير الخلفاء .
 - ذكر أوقات الأمراء وأيامهم فى الأندلس .
 - غزوات المنصور ابن أبى عامر .

وأهمى الزميل الأستاذ الدكتور صلاح الدين بسيونى رسلان، مؤلفات ابن حزم فى الفلسفة وعلم الكلام ، فبلغت ٢٢ كتابا ، وفى الفقه والشريعة ٤٤ كتابا ، وفى التاريخ ٤٣ كتابا ، وفى اللغة والأدب سبعة كتب ، وفى الطب سبعة كتب ، وبلغت بذلك مجموعة كتبه ١٠٤ كتابا ، وهى الكتب المروغة التى لم تفقد ولم يتسرب إليها العيب .

نشأ المذهب الظاهرى للحفاظ على النصوص ، والوقوف عندها وعدم تجاوزها . والمقصود بالظاهر ، هو ظاهر اللفظ من ناحية اللغة أى ضرورة الأخذ بالمعنى اللفظى الظاهر للكلام ، وتجاوز النص يعتبر تبجيلا لكلام الله ، ولقد سبق ابن حزم بذلك المنهاج داود بن على ابن خلف البغدادي ، واختار ابن حزم هذا المذهب ، لأنه مذهب الكتاب

والسنة ، واجتماع الصحابة ، وليس لأحد فيه أن يقلد أحدا ، وفي نفس الوقت يقول ابن حزم : ان التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ يقول أحد من غير برهان •

ويقول ابن حزم : أن أهل النظر والادراك ، ومن توافرت عندهم أدوات الاجتهاد ، لا يسوغ لهم أن يقلدوا اماما في كل ما يقوله أو كل ما قال وقرر من غير ترجيح • ويقول ابن حزم : ان الناس فريقان : أحدهما تفحص للدراسات الاسلامية ، فتوافرت له الأسباب لتعرف الأحكام من كتب الله وسنة رسوله من غير توسط أحد ، وهم الأئمة المرشدون ، والثاني العامة لم يدرسوا الاسلام ، ولكنهم يريدون معرفة ما عليهم من واجبات ، لذلك هم في حاجة انى التعرف على أحكام الدين من العلماء المقربين منهم ، والمنهج الظاهري الذي اختاره ابن حزم يفتح باب الاجتهاد ، لأنه المذهب الذي يستند الى الكتاب والسنة مباشرة ، ويأخذ الالفاظ بظواهرها اللغوية ، ولا يحاول تحليل الأحكام واستخراج العمى وتعميمها بل يأخذ المعنى التكلفى من اللفظ •

ويذكر ابن حزم ان المصادر الرئيسية للفقهاء الاسلامى ، هي القرآن الكريم بالدرجة الأولى ، ونص كلام الرسول (ﷺ) والاجماع ، وهو ما أجمع عليه شيوخ وعلماء الجماعة الاسلامية ، والقرآن الكريم هو الأصل لهذه الشريعة • ويأخذ ابن حزم بظاهر القرآن الكريم ، لذلك كان كل لفظ من القرآن يؤخذ على مقتضى ظاهره أو يقول ابن حزم : ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله اليها الذى للترنما بالعمل بما فيه وجب الانقياد لما فيه ، فكان هو الأصل المرجوع اليه « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فما في القرآن من أمر ونهى فواجب الوقوف عنده ، والسنة عند ابن حزم تفصل ما في القرآن من عموميات ، وأهل الظاهر يأخذون بظواهر النصوص ، ولا يقبلون التحليل والقياس • ويرى ابن حزم أن النصوص لا تتعارض ، ولا يوجد

تضارب بين نصوص القرآن والسنة ، بل النصوص كل متكامل تبين وتوضح أحكام التشريع الإسلامية ، وما دام المصدر الإسلامي للتشريع هو الله فلا يمكن أبدا وجود تعارض بين النصوص •

ويقرر ابن حزم أن معرفة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد ، والنسخ في نظر ابن حزم بيان للأحكام ولا يتكرر للنصوص ، لأن معرفة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد •

والاجماع في نظر ابن حزم ، هو ما نقلته الأمة كلها عصرا بعد عصر كالإيمان وأصول الملوك والمفروضة وأوقاتها وعدد ركعاتها والصيام وشهره ووقته والحج ووقته وركته •

ويوضح ابن حزم أن الاجماع من غير نص غير ممكن لاستحالة الاجتماع ، ولاختلاف أساليب تفكيرهم •

ويرى ابن حزم أنه لا رأى في الدين ، فليس لأحد أن يجتهد برأيه ويدعى أن ذلك حكم الله تعالى ، لأنه لا يحق لأحد أن يتحدث عن الله غير رسول الله ، وما يتوصل إليه النسيخ من آراء واجتهادات هي أحكامهم ، وإيست حكم الله تعالى ، ولا يهل لأحد الحكم بالرأى ، وينفى ابن حزم القياس •

ولا يجوز في رأى ابن حزم تقليد أحد لا من الصحابة ولا من غيرهم ويعتبر أن الأخذ برأى الصحابي من غير دليل من السنة ، غير صحيح لأنه لا يؤخذ الا من الكتاب والسنة أو الاجماع القائم على نص منها أو الدلائل المقتبس من هذه الأمور الثلاثة •

انتشر المذهب الظاهري في الدولة الإسلامية بعد وفاة ابن حزم نشره تلاميذه في إقليم الدولة الإسلامية ، شرقها وغربها ، وظهر في

الأندلس فقهاء ظاهريون ، ومنهم الحافظ أبو الخطاب مجد الدين بن عمر بن الحسن ، وقد طلف بأقنيم الأندلس كلها ، وتوفى سنة ١٢٣٣ هـ ، وكان محبى الدين بن عربى ظاهريا ، وكان ابن عربى فى عصر الموحدين الذين نشروا المذهب الظاهرى فى المغرب والأندلس . ويوضح شيخنا الجليل الامام محمد أبو زهرة : أن آخر القرن السادس الهجرى وأول القرن السابع عصر ازدهار المذهب الظاهرى ، فقد ساد بلاد المغرب والأندلس فى عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) واستمر من بعده . وفى أيامه « انقطع عظم الفروع وخاصة الفقهاء ، وأمر باحراق كتب المذهب بعد أن جرد ما فيها من أحاديث رسول الله والقرآن ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد .

تأثر ابن حزم فى شعره باشتغاله بالفقه والحديث والجدل والأنساب والتاريخ ، وخضع فى مذهبه الشعرى الى تفضيل مواضيع ذات طابع دينى . ولقد تأثر ابن حزم فى شعره بالاضطرابات التى سادت الأندلس والفتن التى مزقت هذه البلاد ، وشهد فى شبابه دمار قرطبة ، وتغير مجرى حياته ، فبعد أن كان مترفا فى معيشته ، ذاق مرارات الحرمان والبؤس ، ولكن ابن حزم صمد للشدائد والصعاب وأحيت المحن التى تعرض لها ابن حزم ملكات أفادت مجتمعه تشعبت وتنوعت ثقافته ابن حزم حتى اشتملت جميع أنواع المعرفة فى عصره . ما عدا الحساب والهندسة . فلقد تمخص فى علوم الحديث والفقه والأديان واللغة والنحو والأدب والتاريخ واطلع على المؤلفات الأندلسية ، ودرس المنطق والفلسفة والفلك . وتدل رسالته فى فضل الأندلس على تقديره لثقافة أهل بلاده فى تاريخها ورجالها ومؤلفاتها وأدبها وشعرها (١) .

ويقول صاعد : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الاسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علوم اللسان والبلاغة

(١) احسان عيسى : تاريخ الأدب الأندلسى من ٣١٥ .

والشعر والسيرة والأخبار ، وكان جماعاً للكتب ، جمع منها في عاوم الحديث والمصنفات والمستندات شيئاً كثيراً ، كما كان كثير التقييد لايدع شيئاً يفوته من سماع أو قراءة أو مشاهدة لذلك كثرت مؤلفاته وبلغت أربعمئة مجلد .

كان ابن حزم يقول الشعر بسرعة على البديهة ، ولذلك كثر شعره ، وأكثر ما ذكره دون العُمرين كان في الغزل ثم رثاء لجاريته ، وكان يرسل بعض أقاربه وأصدقائه بالشعر ، وتمتلىء بعض قصائده بالحكمة ، وبعضها يتجه الى تمجيد الزهد ، وبعضها في تسبيح الله وتمجيده واثبات حدود المالم ، وبعض قصائده يحث فيها على دراسة الحديث ، ومن قصائده الرائعة للقصائد الذاتية التي يداغم فيها عن اتجاهاته ، ويندد بكرامية بعض الناس له وإنكاره لفضله . وتظهر في بعض أشعاره الروحانية الغيبية كلها وجد قلقاً من التشدد بالأخذ بالظاهر (١) .

يعتبر كتاب طوق النحامة لابن حزم كتاب في الحرب لفقهاء من فقهاء الأندلس ، قضى حياته في المجادلات الدينية ، حيث عرض في هذا الكتاب أشعاره الغزلية المتنوعة ، ويقصد من ذلك تصوير بعض مواقف حياته مخفياً أسماء بعض الأشخاص حيناً مصرحاً بها حيناً آخر ، اذالك فإن الكتاب ترجمة ذاتية ، تصور حياة صاحبه ومجتمعه والعلاقات الاجتماعية ، وفي هذا الكتاب يوضح نوعاً من الحب ، وهو الحب العذرى ، لم يكن معروفاً في الأندلس من قبل .

ويبدو أن ابن حزم ألف كتابه بعد خروجه من قرطبة ، اذ تتضح في هذا الكتاب حسرته الشديدة على خروجه من قرطبة ومفارقتة أهله ودياره التي خربها البربر ، ويتحدث عن مشاهداته في مدن الأندلس المختلفة ، ويبدو أنه صنف كتابه بعد اعتزاله للحياة السياسية أى بعد

(١) المقري : نصح الطب ج ١ ص ٣٦٤ ندرسخ للأدب الاندلسي

حوالى سنة ٤١٩ هـ ، وقد ذكر في سبب تأليفه لهذا الكتاب بأن صديقا كلفه بتصنيف رسالة في الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، فصف هذا الكتاب (١) .

وقسم ابن حزم رسالته هذه الى ثلاثين بابا ، عشرة منها في أصول الحب ، ثم كيف يتدرج من التعرض الى الاشارة الى المراسلة الى السفارة — اثنا عشر في أغراض الحب وصفاته محمودها ومدمومها وهو يقرن كل صفة بما ينقضها — وستة أبواب في الآفات الداخلة على الحب — وخاتمة في بلبين تحدث فيهما عن قبح المعصية ، وعن فضل التعفف ، لكن يقرن الحب بروح اثنين ، ويكون كلامه فيه دخلا في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويوسع ابن حزم في هذه الرسالة من مدلول الحب ، ويفصص قصصا عن الصداقة ، وحكايات عن الأدب المكتوف .

والنفس بطبعها جميلة تولع بالجمال .

وأفضل ضروب المحبة عند ابن حزم محبة المتحابين في الله عز وجل أما الاجتهاد في العمل ، وأما الاتفاق في أصل النحلة والمذهب . وأما الفضل علم يمنحه الانسان ، ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطلب ومحبة التصاحب والمعرفة ... وتكلم ابن حزم عن أنواع المحبة ودرجاتها ، والحب العاطفي ، والحب التجسدي ، والحب المتكامل على الزهو والغرور :

فكما العقل واحد ليس يدري
خلقا غير واحد ورحمان
فكذا القاب واحد ليس يهوى
غير فرد مساعد أو مدان

وكذا الدين واحد مستقيم
ركبـور من عنده دينـان

ويتكلم عن أنواع الحب ويقول : أعلم أن للحب حكما على النفوس
ماضيا وسلطانا قاضيا وأمر لا يخالف ، وحدا لا يعصى ، وملكا
لا يتمدى ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذا لا يرد ، كما تحدث عن آفات
الحب .

بدأ ابن حزم رسالته بالدفاع عن الحب وجلاله ، ويقول : أوله
عز وآخره جد ، دنت معانيه لجلالها من أن توصف ، فلا تترك
حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة ،
إذ القلوب بيد الله عز وجل ، ويعرف ابن حزم الحب تعريفا فلسفيا
بقوله : وقد اختلف الناس في ماهيته ، وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب
اليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المتسومة في هذه الخليقة في أصل
عنصرها الرفيع (١) .

والحبة عند ابن حزم لا تقوم بين متناهرين أو متضادين ، لأن
المخلوقات إنما تتصل أو تتفصل بسبب تمازجها أو تباینها ... والمجانسة
عمل محسوس وتأثير مشاهد ... وكلما كثرت عناصر المشكلة بين
المتحابين زادت المجانسة ، وتكثرت المودة .

إن الحب ثمرة المشكلة بين الحب والمحبوب ، ولا يكون إلا بازواج
النفسين وامتزاج الشككين ، وهو دليل على تمازج الروحين .. وينبعث
من تجانس الأرواح نور ساطع ، تهتئ لاشراقه طبائع الحياة .

ومن أبرز كتب ابن حزم كتاب « الفصل في المال والأهواء والنحل »
تكلم فيه عن الفرق المخالفة لدين الاسلام ، وناقش آراء الفلاسفة

(١) ابن حزم : طوقى الحبلىه ص ٥ - ٦ .
صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم .

فيما وراء الطبيعة ، وتكلم عن فرق النصارى شارحا آراءهم ، وتحدث عن الأنبياء والرسل ، ورد على المعترضين على الشرائع ، وكتب عن اليهود وعلى من أنكر التثليث من النصارى ومذهب الصابئين ، ومن أقر بنبوّة زرادشت من المجوس وأنكر ما سواه ، كما تكلم عن المتناقضات الظاهرة في التوراة والانجيل ، وأبرز أن السامرة بأيديهم توراه غير التوراة الذي مع اليهود ، وناقش بعض ادعاءات اليهود الباطلة بوصف قيام بنى اسرائيل على موسى ، وتكلم عن فصول التوراة وما فيها من تحريفات ، وذكر بعض ما ورد في كتبهم ، فأوضح ما نقره من كتب التوراة والأنبياء ، وناقش خطأ من أنكر أن التوراة والانجيل غير مترفين ، وذكر شيئا من كلام أحبارهم .

ثم تكلم عن الانجيل وكتب النصارى وما فيها من التناقض ، وذكر ما تثبته النصارى بخلاف نص التوراة ، وذكر متناقضات الانجيل الأربعة ، وذكر بعض الأكاذيب في كتبهم ، وتكلم عن بعض اعترافات النصارى على المسامين وبيان فسادها ، وتكلم عن بطلان ما تمسكت به النصارى من بعض أقوال الرافضة وبيان بطلانها . وذكر فصلا يعترض بها الملحدون على ضلوك المسلمين ، وتكلم عن كروية الأرض ، وكتب من ادعى أن مدة الدنيا عددا معلوما وذكر فرق الاسلام ، وأوضح النحل ، وتكلم عن آراء المرجئة في الايمان والكفر ، وأوضح خروج بعض الفرق على الدين الاسلامي ، وتكلم عن التوحيد ونفى التشبيه ، وتكلم في صفات الله وفي الحياة وناقش مسائل في المخط والرضا والعدل والصدق والملك والخلق والجود والارادة والسفاهة والكرم .

الممالك النصرانية خلال القرن العاشر الميلادي

لما ضعف أمر المسلمين في الأندلس ، وانسدت الصراع بين القوى الإسلامية في هذه البلاد ، قويت الممالك النصرانية في مطلع القرن العاشر الميلادي ، حتى كانت مملكة ليون ، أتت خضعت مملكة جليقية ، وسيطرت على ولاية قشتالة في اواسط أسبانيا الشمالية ، اشتد بأسها وقوى أمرها ، وأصبح في إمكانها التصدي للمسلمين بل وتوجيهه الضربات العنيفة لهم .

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الناصر كان مسيطرا على الأندلس مهابا في هذه الديار ، إلا أن النصراني بقيادة أوردينو الثاني انتصروا على المسلمين انتصارا حاسما في موقعة ثسانت اشتن سنة ٩١٧ م ولكن النصراني شغلوا عن مواصلة الانتصارات على المسلمين وذلك بسبب الانقسامات الداخلية بينهم ، فقد اشتد النزاع على العرش بين سانشو والفونسو - ولدى أوردينو - وانتهى هذا الصراع بتولية الفونسو العرش بمعاونة حليفه سانشو - ملك نافار - ولكن سانشو لم يستسلم للهزيمة بل جمع أنصاره ، وأعلن نفسه ملكا في ثسانت ياقب في أقاصي جليقية ، ثم سار بجيشه الى ليون ، واستردها وأعلن نفسه ملكا ، وخاض أخاه ، ولم يفتنه ذلك الصراع بين الأخوين ، بل استمر أعولما حتى توفي سانشو ابن أوردينو سنة ٩٢٩ م ، وولى الفونسو الرابع العرش ، وظل في الحكم حتى توفيت زوجته ، وبلغ به الحزن مبلغا لم يمكنه من الاستمرار في الملك ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو الثاني ، ولجأ الى الحير ، ولكنه عاد فقطاع الى استرداد ملكه ، فانتهاز فرصة غياب راميرو عن ليون لمساندة توار طليطلة ، واستولى على ليون . ولكن راميرو عاد بسرعة الى عاصمة ملكه ، وسمل عيني الفونسو حتى لا يعود الى طلب الملك ، وعلق بكل شدة كل من تسارك في هذه المؤامرة ، وبذلك استقر راميرو في الملك وكان من الأد

أعداء المسلمين ، اذ قضى سنن حكمه في الهجوم على الأراضي الإسلامية أو تحريض النوار ومساعدتهم ضد حكومة قرطبة .

فلما أن القسم الغربي من مملكة ليون يسمى جليقية ، أما القسم الشرقي فيسمى قشتالة أي القلاع والحصون ، وهذه المنطقة تحولت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقا حتى هضاب نافار ، وستكنها من البشكنس وجبال الألب ، وكان رعماء قشتالة يرفضون منذ القدم سيطرة أهل جليقية عليهم ، وباروا على حكاهم عدة مرات ، ولكن ثوراتهم فشلت بسبب تكيل هنوك ليون للشوار على أن انزعاه القشتاليين تحينوا الفرص للاستقلال عن نفوذ جليقية . وقاد الثورة الكونت فرنان ، ولكنه فشل أيضا ، واستمر أهل قشتالة في الثورة ، وعارضوا حكم راميرو بكل شدة ، واستطاع المسلمون خلال تلك الفترة الاغارة على أراضي ليون والعبث بها ، وقام عبد الرحمن الناصر بتجديد مدينة سالام التي تقع على الحدود بين أراضي قشتالة والأراضي الإسلامية ، وتحصينها سنة ٩٤٦ م ، وتحول موقف راميرو — ملك ليون — من الهجوم إلى الدفاع بانسبة للمسلمين .

ترك موت راميرو الثاني — ملك ليون — سنة ٩٥٠ م فراغا سياسيا كبيرا في مملكة ليون ، وتنازع ولداه اردونيو وسانشو على العرش ، بعد أن هزم خصومه ، وهذه الحرب الأهلية مكنت المسلمين من تشديد حملاتهم على ليون ، واضطر أوردنيو إلى طلب العون من قرطبة على خصومه في ليون ، وعقد معاهدة صلح مع عبد الرحمن الناصر ، تعهد فيها أوردنيو بأن يصاح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ، وخلف سانشو أخاه في الملك ، ولما حاول نقض الصلح حاربه الناصر وانصر عليه فعاد إلى طلب الصلح ، ونفذ كل الشروط التي تضمنها كتاب الصلح ، وبذلك عاد السلام إلى البلدين .

على أن أشرف ليون أصروا على خلع الملك لهزيمة أمام المسلمين واحتجوا عليه بأن بدانته تمنعه من ركوب الخيل ، ومن خفة الحركة

في المعركة ، وولوا أردونيو الرابع ابن الفونسو الرابع الملك ملجأ
سانشو الى عبد الرحمن الناصر ، طلبا منه العون والتأييد ، فوعده
الناصر بإعادته الى العرش مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين بعض
الحصون الواقعة على الحدود ، وان يهدم البعض الآخر وامده الناصر
بجند مكنته من العودة الى العرش ، وفر أردونيو من ليون .
ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، ولم يسلم للمسلمين الحصون
التي وعد بتسليمها ، وشجعه على ذلك وفاة الناصر وانتهاز الرعيم
القشتالي فرسان فرصة الاضطرابات في مملكة ليون ، وأعلن استقلال
قشتالة تحت قيادته ، وتقرب الى النصارى بإغارة على الأراضي
الاسلامية ، وتوسيع ملكه ، وضم ما يقع تحت يده من أملاك المسلمين
الى ملكه .

ولا رأى انحكم المستنصر خيانة سانشو للماهدة ، ساند أردونيو
الرابع على العودة الى العرش ، فتراجع سانشو ، وأرسل الى الحكم
بعده بتنفيذ الماهدة ، ، ولكنه نكث العهد ثانية بعد وفاة خصمه أردونيو ،
فشن عليه الحكم حملات حربية واسعة النطاق ، ومزق المسلمون جيش
فرنان — ازعيم القشتالي — كل مزق في موقعة مُنت انتين ،
وأرغمته هو وحليفه سانشو — ملك ليون — على طلب الصلح ، وتوغلت
الجيوش الاسلامية في قشتالة وناغار ، وتوالت غزوات المسلمين لأراضي
قشتالة (٩٦٣ — ٩٦٧ م) . وبذلك أخذت قشتالة تظهر على مسرح
التاريخ كامارة مستقلة تدريجيا وقوى أمرها بمرور الزمن ، حتى
تبوأ مكانتها بعد ذلك كأقوى دولة نصرانية إسبانية تقاوم
المسلمين في الأندلس ، وتوفى سانشو على أثر مؤامرة دبرها ضده أحد
زعماء قشتالة .

خلف راميرو الثالث أباه سانشو في ملك ليون سنة ٩٦٦ م وكان
طفلا في الخامسة من عمره ، فاستكر الأشراف هذا الحكم وكثرت
الصراعات الاستقلالية ، وانقسمت مملكة ليون ، الى مملكتين ،
قشتالة وناغار .

واضطرب الملوك والأمراء النصراني بعد الضعف الذي حاق بهم ، إلى تحسين علاقاتهم مع قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يخطبون وده ، ويرجعون مسداقته ولا توفي الحكم ، وشغل المسلمون بأمورهم الداخلية ، شن انقشاليون غزواتهم على المسلمين ، وتوغلوا في الأراضي الإسلامية ولكن الحاجب المنصور تصدى لمدواتهم ، وغزا أراضي قشتالة غزوات متعددة متكررة ، وانتصر على الممالك النصرانية وأضعفها وأخضعها وأجبط المنصور حربا شنها عليه ملوك نافار وقشتالة وليون سنة ٩٨١ •

ويأت من ضعف ملكة ليون في عهد المنصور أن استتجد ملكها برمودو بالحاجب المنصور ضد خصومه ، فأنطد المنصور إلى عرشه في ليون ، وأمدّه بجند لحمايته • وبذلك جلس على العرش في حماية المنصور •

ونخلص من كل ذلك إلى أن النصراني في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد أن كانت هوامم تنزل في جايقية ، قوى أمرهم ، واتسع ملكهم على حساب المسلمين ، وشيئا فشيئا أصبح لهم ثلاث ممالك : قشتالة وليون ونافار ، وكل هذه الممالك تتربص بالمسلمين ، وتسمى كل ما سمحت لها الظروف بالتوسع في الأراضي الإسلامية ، وضم ما يمكن ضمه إلى بلادهم •

اللغة العربية وآدابها في الأندلس

أدى اندماج عناصر السكان في الأندلس من عرب وبربر وأسبان إلى ظهور لغة مشتركة يتحدثون بها جميعا على مختلف فئاتهم ، وهذه اللغة مزيج من اللغة العربية والأسبانية وكان انقضاة في الأندلس يناقشون الناس بهذه اللغة التي كانت معروفة لديهم ، وسميت هذه اللغة بالرومانسية •

وظهرت الموشحات نتيجة انتشار اللغتين العربية والأسبانية بين الإندلسيين ، وقد أخذ المشرق هذا الفن من الأندلس وتلزم الموشحة بنظام القوافي الموحدة في القصيدة العربية وتشتمل على قواف متعددة ، ولم تكن وحدتها البيت الشعري وإنما المقطوعة الشعرية التي تتكون من عظم وفقل ، ويسمى الفقل الأخير منها بالخرجة — كما سنرى — والخرجة لابد أن تكون باللغة الأسبانية ، أو باللغة العامية الأندلسية الدارجة ، ولابد أن تكون حادة مرقعة ، حارة منضجة ، والخرجة عادة على لسان امرأة تنزل أحيانا في الرجل على عكس. إنشعر العربي ، فالرجل هو الذي يتوصل إلى المرأة أن تبسandle الحب ، بينما المرأة متكبرة معرضة •

وانتشرت الموشحات في المغرب والمشرق ، وصارت الموشحة كالقصيدة الشعرية ، واستخدمها الصوفية في مدائحهم وأذكارهم وقد تأثر الشعر الأوربي الشعبي بالموشحات والأرجال الأندلسية ويعبرف بالشعر البروفنسى ، الذي كان ينسده المغنون المتجولون في غرب أوربا •

وقد انتشرت لغة العربية بين المستعربين ، وتأثروا بالثقافة الاسلامية ، والحضارة الأندلسية ، ولعبوا دورا هاما في نقل التراث

الإسلامي إلى إسبانيا الشمالية ، بحكم هجراتهم المستمرة إلى مملكتي
مشتالة وأراجون . ولا تزال اللغة الأسبانية تحتوي على الكثير من
الألفاظ والكلمات الأعرابية ، وقد برهن اللغويون على صحة هذا القول
بالدراسات المستفيضة .

ولم تكن الأرجال التي سنتحدث عنها فنا شعبيا صحيحا ، وإنما
كانت مزيجاً من فنين ، فن خاص قديم متداول بين الواسحين ، وفن
شعبي لا سند له من التراث المكتوب . ولم يكن جمهور الأرجل أهل
للأرقه والحارات ، كما لم تكن الفئلة المميزة التي نظم الشعراء من
أجلهم القصائد .

وللأرجال الصوفية بيئتها الخاصة ، بيئة الفقراء الذين زهدوا في
الدنيا وهاموا في حب الله سائحين مغتربين ، ينشدون ويرقصون على
ألحان التصوف ، والبيئة النابضة بيئة الشباب الماجن العايش أصحاب
الثروات .

يقول ابن خلدون عن نشأة الأرجل ، أنه ظهر تقليد الموسحة
فقد استحسنت العاشمة التوشيح ، فانسجوا على منواله ، جاعلين لأحتهم
الحضرية موضع اللغة العربية . ومما لا شك فيه أن التشبه كبير بين
التوشيح والأرجل في أكثر من ناحية ، وخاصة في الشكل الخارجي وفي
الأوزان ونظام القوافي ، وكذلك في بعض موضوعات القول والمعاني ،
وقد أدى تطور الأغنية الشعبية إلى ظهور الموشحات ، وتبع ذلك ظهور
الأرجال ، وكل ذلك بلغة بسيطة يفهمها العوام من أهل الأندلس ، وتعبّر
عن عواطفهم وأحزانهم وأفراحهم ، وأحاسيسهم ، وختام الموشحة
تقل يسمى المخرجة .

والمعروف أن الموشحة تتألف من مقطوعات وكذلك الأرجال وكل
مقطوعة تشتمل على وحدتين ، والوحدة الأولى تسمى غصن وأثانية
تسمى قفل .

ظهر للزجل في أواخر القرن الرابع الهجري ، ولم يصلنا من أرجال القرن الخامس الهجرى الا الفز اليسير ، وكان الزجالون في القرن الخامس يقترحون في فنههم من الوشاحين ، ويتأثرون بهم ، لذلك كانت أرجالهم في لغة عربية سليمة ، تخاطب الخاصة المثقفين ، ذلك أن ملوك الطوائف في هذا القرن حرصوا على النهوض بالأدب العربى وشعره ونثره ، ورفضوا كل نظم ملحون . ولكننا نلاحظ العكس من ذلك في القرن السادس الهجرى ، فقد سيطر المرابطون على الأندلس ، وكانوا لا يتقنون العربية ، ولا يتخفون الشعر ، لذلك ازدهرت الأرجال في أيامهم . ولا نعرف الا القليل من الزجالين في القرن الخامس ، بينما نعرف الكثير في القرن السادس وعلى رأسهم ابن قزمان .

وابن قزمان من أهل قرطبة ، وتوفى سنة ٥٥٤ هـ وقد أشتهل ابن قزمان بالنظم العربى ، فرأى نفسه لا ينسجم مع الاتجاه السائد لعصره ، فعصد الى الزجل المنظوم بكلام عامه الأندلس ، ويعتبر بهنى أمام الزجالين بالأندلس وديوان ابن قزمان يقدم لنا صورة عن حياة صلبه ، وجانباً من شخصيته (١) .

وكان ابن قزمان يعيش في بيت جميل وفي حى مزدحم بالسكان

وكان مولماً بالثياب الأنيقة ، ويرتدى دائماً فاخر الثياب وهو صاحب ذوق في اختيار الألوان ، ويراعى في تنسيق الألوان في الثياب التي يرتديها . لذلك يكثر من الحديث عن الثياب في أرساله وكان ابن قزمان مولماً بشرب واللهو والمعبث ، ولا يجب حياة الأسرة ، لذلك ضاق ذرعاً بالمرأة التي تزوجها وبمسئولية البيت فديوان أبى بكر ابن قزمان يصور أناقته ولهوه وشربه وسهراته الخارجية ، وإذا تصدت عن البيت ، يتحدث عن الخادمة السوداء ، ولم يفكر زوجة ولا أولاداً (٢) .

وقد استنتج الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى من الأرجال

(١) عبد العزيز الأهوانى : الزجل في الأندلس ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

ابن قزمان ، أنه بدأ حياته يعمل بالتوثيق ، وهو عمل يستلزم معرفه
بلفظه والشروط الصحيحة والفاصلة ، والدقة في ضبط المصنف واستخدام
الكلمات ، ثم هو أديب ينظم الشعر والموشحات والأزجال ، ويحفظ
أخبارا ونوادر ، كما أنه جليس ومسامر ، يستطيع أن يدخل السرور
والبهجة على جالسه ، ويضحكهم ويغضبهم إليه . وكان يحصل على
المال من مواهبه هذه . وتدل أزجال ابن قزمان على أن مرتبة الشاعر
كانت أكثر وأجل من مرتبة الزجال ، وكان تقدير كبار رجال الدولة
لشاعر يزيد عن الزجال .

وازجال ابن قزمان توضح مياهه الى اللهو والشراب والعشق
كقوله :

حنينا هي كما تراها فاجتهد واربح زمانك
كل يوم وكل ليلة لا تغفل مخرجك
واشغنى عليه من قبل أن يجيء الموت في شأنك

وظل في كبره يقول الزجل في هذا اللون من المبت كقوله :
ولياي بيت فيها القمر ، في خراي من العشا للسحر فانجبر لي
صبأى بعد الكبر ، وارتنى غناي بعد المحم .

والأحداث السياسية الجسيمة التي مرت بالأندلس لا تشغل بال
ابن قزمان ، ففي عصره كانت الحروب بين المرابطين والنصارى ،
ولا يتحدث عن ذلك الا بأزجال قليلة لا تتم عن انشغاله بهذه الأحداث
الجسام .

والخلاصة فان حيوان ابن قزمان يصوره تملأ في مجالس شرابه
وفي جولاته في المدينة ، وخروجه الى القرية في أوقات معينة ويتحدث
في ديوانه عن خادمه وكبش العيد وهر يرقص حوله ، ويصور
مناماته ، وأغانيه ورقمه وانشاده لمدح بهية الحصول على المال

للبحث عن امرأة أو صبي أو شراء ثوب أنيق . لذلك يجمع القدماء على أن ابن قزمان امام الزجالين ، وكان شاعرا حتى الأملوب فطنا بخفليا النفوس (١) .

وفي عصر الموحدين عاد الاهتمام بالثقافة العربية الرفيعة ومن ثم عاد الشعر الى مكانته الأولى ، ووجد رواجاً في بلاط الموحدين ، لأنهم يعرفون العربية ، وظهر في عصرهم علماء وفلاسفة كبار كابن رشد . . لذلك فلن الزجل في القرن السابع وبعد عصر ابن قزمان بعد عن القوافي، ومزاحمة الفقرات وتعددتها ، وظلت موضوعاته كما هي ، بحيث يستأثر الحب بالمكان الأول والحديث عن جمال الطبيعة والبساتين والأزهار وظهر لون جديد في الزجل ، وهو الهجاء ولم يظهر زجال كبير في هذا انفرن ، وإنما ظهر وشاح كبير وهو أبو بكر بن زهر ، وقد شهد القرن السابع سقوط قرطبة واشبيلية ، وهزيمة الموحدين في العقاب ، وسقوط المخن الأندلسية في أيدي النصارى ، ولم يبق لهم سوى غرناطة التي صمدت . لذلك انتشر في ذلك العصر الزجل والموشحات الصوفية .

وتحول الزجل في عصر ملوك بنى الأحمر في غرناطة الى فن شعبي، لا يشارك فيه المثقفون . ولقد عاشت غرناطة أيامها في تأهب ودفاع ضد العدو المتربص بها ، وكان كل سكانها يتكلمون العربية ومسلمين ، لذلك كان للشعر مجاله ورواده ولزجل جمهوره من غير المثقفين .

وقبل أن نختم كلامنا على الزجل يجب أن نشير الى أغنية حزينة قالها مولاي أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ، يبكي ضياع قصره الملكي ، حينما استولى فرديناند وايزابيلا على مملكته :

المرءا حنينه والقصور تبكى

على ما جرى لمولاي بو عبدالله

هات لي فرسي ودرقتي البيضاء
وشي نمشي نقاتل ونأخذ الحمرا
هات لي فرسي ودرقتي الحديدى
وشي نمشي نقاتل ونأخذ أولادى
أولادى فى وادى ياشن ومراتى فى (جبل طارق)
ياستى يلم الفتى
أولادى فى وادى ياشن وأنا فى (جبل طارق)
ياستى يلم الفتى

الفصل السادس

المرايطون والموحدون

١ - المرايطون •

٢ - الموحدون •

١ - المرابطون (٤٤٨ - ٥٤١ / ١٠٥٦ - ١١٤٧ م) :

يكتنف الغموض نشأة المرابطين ، ويبدأ تاريخهم في جناح المغرب الأيمن في الصحراء الغربية أو مايسمى موريتانيا في هذه الصحراء الشاسعة كانت تعيش قبائل صنهاجة وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتدادا لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال ، والتي تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية في المغرب الأدنى والأوسط ، وهذه القبائل الصحراوية الجنوبية كانت تختلف عن أقربائها في الشمال في أنها كانت تتكلم ولهمذا سميت بصنهاجة اللثام ، وعرف عنهم الشجاعة في القتال وانشر الاسلام بين هذه القبائل عن طريق رحلات التجار أو من السرايا العسكرية، وظلوا حتى القرن الضامس الهجرى متفرقى الكأمة بعيدين عن روح الاسلام ، حتى حدثت فيها ثورة دينية اصلاحية ، ألقت بين قلوبهم ، ووحدت صفوفهم ، ويرجع الفضل في نشر هذا الاصلاح السياسى والاصلاح الدينى الى يحيى بن ابراهيم الجدالى زعيم المثلثين ، والفقيه عبد الله بن ياسين - وهما من أصل صنهاجى .

وضع عبد الله بن ياسين أسسه الاصلاحية على أساس التمسك بالدين على مذهب مالك ، ونشر دعوته بين قومه ، وبنى رباطه ابتغاء المزالة والعبادة ، ولم تعر عايه أيام حتى اجتمع له حوالى ألف رجل، ساهم المرابطين للزومهم رباطه .

بهذه الرسالة الدينية كل خروج المرابطين من الصحراء بقيادة زعيمهم الروحى عبد الله بن ياسين ، وكانت بلاد المغرب في ضعف شديد مزقتها الانقسامات ، لذلك خرج المرابطون من الصحراء للقضاء على أهل الضلال ، واصلاح البلاد من الفساد .

خرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الدينى عبد الله

ابن ياسين ، واتجهوا الى بلاد السوس ، وقضوا على الشيعة والوثنيين ، وقاتلوا اليهود المنتسرين في تلك النواحي وأعادوا تلك المناطق الى أهل السنة والجماعة .

نجح المرابطون في اخضاع الزناتيين في المغرب الأقصى ، وسيطروا على المغرب الأقصى ، ثم زحفوا الى المغرب الأوسط وفتحوا مدينتي تلمسان ووهران ، واقتربت قواتهم من الجزائر وبعد كفاح دام عشرين عاما أصبح المرابطون سادة المغرب دون منازع (٨٤٤٧ - ٨٤٦٧) وتمخض ذلك عن نتائج هامة في تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجة ، فتسيطر صنهاجة للشمال على افريقية ، بينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الأوسط والأقصى ، غارتفع شأن البرانس ، وضعف نفوذ البتر ، واتباع المرابطون سياسة ناجحة في جذب المغاربة اليهم ، فخففوا الضرائب على الناس ، ولم يبقوا من الضرائب الا ما أقره الشرع كالزكاة والعشر ، وكان دستورهم في الحكم كتاب الله وسنة رسوله ، ولم ينحود المغاربة على حكم يتمشى مع تعاليم الاسلام من قبل ، لذلك التفوا حول المرابطين ، وكانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء ، وكانوا في ذلك العصر زعماء الشعب الروحيين ، يمثلون الشعب في تأييد نظام الحكم أو رفضه ، فلما أيد رجال الدين ، المرابطين ، أيدهم الشعب كذلك ، وبدأ واضحا لكافة الناس أن المرابطين جاؤا لا للفتح ، ولكن لاهياء الدين ، لذلك فكانت المدن والقرى تستقبلهم بالحفاوة والترحاب . والواقع أن المغاربة كانوا في حاجة الى حكم يخلصهم من نير وظلم زناته ، وبالفعل وجدوا في المرابطين خير عون لهم على أعدائهم زناته الظالمين المستبدين .

عظم شأن المرابطين بعد أن قادهم يوسف بنى تاشفين وقادهم في ممالك ناجحة لاستئصال المعارضة في المغرب ، واستولى على طنجة وسبته وغيرها ، وأحب دورا كبيرا في بناء صرح الدولة الجديدة . وقد مكن لنفسه في المغرب كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح معاين حصونه ، وأن يؤدب قبائله ، ويردها الى الطاعة ، وجمع لميت المال

ثروة هائلة لذلك يمكن اقول بأن يوسف بن تاشفين يعنبر المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين ، فقد أتم فتح المغرب ، والأندلس
- كما سنرى - .

جمع يوسف ثروة طائلة من انغناسم والأسلاب ، ومن حصياه الزكاة والعشور ، واستغل هذه الأموال في جذب قلوب زعماء المثلثين ، وأغنى عليهم ، ووزع الأراضي الخصبة على قبائل الملتزمين القادمه من الجنوب ، وولى رجالها الأعمال ، واستطاع بهذه السياسة أن يستميل الزعماء وأن يكسب ودهم ، فانتفوا حوله ، وخضعوا له خضوعاً نلما ، وعهد الى أقاربه بالمناصب الرئيسية في الدولة حتى يضمن ولاء البلاد له ، وهاذن يوسف القبائل المغلوبة على أمرها ، فكان يستدعى زعماءها ويخفق عليهم ، وينظر في مطالبهم . وبذلك عم انسلام في المغرب ، وهذات القبائل واستكانت ، وعم السلام في المغرب بشكل لم تشهد البلاد من قبل ، وأدى ذلك الى طمانينة الناس ، فانصرفوا الى الانتاج ، وتقصنت الأحوال الاقتصادية ، ووجدوا في يوسف خير منقذ لهم ، فكان يتفقد أحوال الرعية بنفسه ، وينظر في المظالم ، ويحكم بين الناس بالعدل لذلك نجحت هذه السياسة في التغلف الناس حول الحاكم ، ولما دعاهم للجهاد في بلاد الأندلس ، أقبلوا يلبيون نداء الجهاد .
ونشير الآن الى دور المرابطين في الأندلس .

قوى أمر النصارى في عهد الفونسو الثمانى سنة ٧٨٨ م ، وتكون خلق من الدول النصرانية ضد القوى الاسلامية في الأندلس يتكون من أرغون وبرشلونة ونافار وقشتالة ، في وقت ضعف الخلافة الأموية ، واستمدت هذه الامارات العون والتأييد من مملكة الفرنجة ، ولكن أضعف من شأن هذا الحلف يقظة الدولة الأموية في عهد الصاحب المنصور ، ولما سقطت الدولة الأموية ، وتمزق شمل للأندلس ، ازدادت قوة النصارى ، ولنهارت مقلومة المسلمين ، وأعاد الملك شلنجو وحده الامارات النصرانية في القرن العاشر الميلادى وأعاد جمع شمل نافار وقشتالة وليون وأرغونه وبرشلونة ويعتبر شانجو باعث حركة

الاسترداد في أسبانيا التي استمرت حتى انتهى أمر المسلم في
الأندلس .

وقوى تسان ولس فردناند الأول ، فسمى الى توحيد القوى
النصرانية ، وكون جبهة وتحدة من المسيحيين بأسبانيا ضد القوى
الاسلاميه في هذه البلاد ، ووطد صلاته بالدول الأوربية حتى يسمد
منها العون والتأييد ، ونجح في سياسته حتى أن البابا اسكندر الثاني
١٠٦٣م نظم حملة ضمن قوات فرنسية وإيطالية ، وسير الغزاة في
غزو الأراضي الاسلامية .

كشف فردناند القناع عن سياسته المعادية للمسلمين ، فأوضح
أنه يريد طرد المسلمين من الأندلس ، واسترداد الأراضي الأسبانية
التي اغتصبوها ، فبدأ بمهاجمة أراضي المسلمين منتهزا حالة الضعف التي
عاش فيها المسلمون ، والانقسام فيما بينهم وتجذب المسلمون هجماته
بدفع الجزية ، وقد دفع الجزية حكام طليطلة وأشبيلية وسرقسطة
وبطليوس ، وجبى من ذلك أموالا طائلة ، ولما زادت قوته كثيرا عن قوة
المسلمين اتجه الى سياسة ضم الأراضي الاسلامية الى دولته ، وبذلك
اتسعت حدود قشتالة شرفا وغربا .

وضعف تسان المسلمين ، وقوى فردناند والنصارى ، وبات
واضحاً بأن أيام المسلمين في الأندلس ، أصبحت محدودة ولكن موت
فردناند سنة ١٠٦٥ م وانقسام الأمراء النصارى على أنفسهم ، أخر
هذا المصير المؤلم .

ومضت فترة كان النصارى مزقّين على أنفسهم ، وفي انقطاع
المسلمين اغتنام الفرصة لاسترداد أراضيهم وقواهم ، ولكن الانقسامات
ظلت قائمة بينهم ، بل كانوا يستعينون بأمراء النصارى في خلافاتهم ،
وظل الأمر كذلك حتى استرد انصارى قوتهم ووحدهم باعتلاء الفونسو
السادس العرش ، فوحد امارات النصارى ، ووطد علاقته بالبابا

وبفرنسا وعموماً بالقوى المسيحية في أوروبا ، واتخذت حركة الاسفرداد بعد ذلك شكل الحركة الصليبية بوجهها البابا ويسلندا .

اشدقت هجمات الفونسو السادس على المدن الأندلسية ، وكان يفرض عليها المغارم الباهظة ، فإذا عجزت مدينة عن الدفع هاجمها ، وهاجمها حتى يشتد الجوع ويمم البلاء ، ويزداد في طلب المال حتى أرقق المدن الأندلسية وأذلها ، ولما أيقن من ضعف المسلمين الشديد ، توجه الى سياسة الاستيلاء على المدن رافضاً الجزية ، فاستولى على طليطلة ، وكان لهذا الاستيلاء أثر مروع في نفوس المسلمين : وفي نفس الوقت رفع من شأنه عند أمم النصرانية ، فطليطلة عاصمة القوط — كما تعلمون — ثم هاجم قرطبة وسرقسطة ، وبدأت الحصون في سبه للجزيرة تتساقط في يده تساقط أوراق الخريف فاستولى على بلنسية ، وسيطر على بعض حصون مرسية وعلى المريه ، وأصبح مصرير الأندلس في خطر ، واتخذ الفونسو في قلب الأندلس حصونا يشن منها الغارات على البلاد الإسلامية وشعر المسلمون في الأندلس بالضعف والمذلة ، وانهارت معنوياتهم ، وساعت أحوالهم المعيشية لأن أمراءهم طابوهم بالضرائب الباهظة ، أدفع ما عليهم من اتاوات « للإمبراطور » الفونسو السادس وقد صور مؤرخ أندلسي وضع المسلمين بقوله : « وبالجملة كان للناس قد فسدت أديانهم وإنما الدنيا الفانية والزمان على آخره ، وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء العرجوداعية الفساد وانقضاء العالم » .

لقد يئس ملوك الطوائف من توحيد كلمتهم ، كما يئسوا من قوتهم ، وكان لابد لهم من عون خارجي إذا أرادوا أن يكبحوا جماح الفونسو ، فاذن أخذهم ، وأنتقل كأهلهم ، ورأوا في المرابطين ضاعتهم المتشودة لما عرف عنهم من محبتهم للجهاد والتزو في سبيل الله ، كما أن المرابطين غير بعيدين عنهم ، وترغم محاولات أهل الأندلس هذه ابن عباد — ملك اشبيلية وقرطبة — كان المعتمد بن عباد آخر ملوك اشبيلية من بنى عباد من قبيلة لخم اليمنية ، وقد اتسعت مملكته حتى شملت قرطبة ، لكنه كان يقاسى عن ولايات الفونسو الذي فرض عليه الاتاوات والمغارم حتى

يكف عن الهجوم على ممتلكاته ، ولما ازدادت قوة الفونسو ، ركب العرور وطلب من ابن عباد بعض الحصون ، وأمن في الثمرنيس بمك اشبيلية وأرسل رسولا الى ابن عباد يطالبه ببعض الحصون في أسلوب وقع وفيه استفزاز ومهانة لذلك ثارت نائرة ابن عبيد ، وأمر بقتل رسوله الفونسو ، وطلب في قرطبة ، وأمر ابن عباد بقتل فرسانه هنا تحرك الفونسو الى اشبيلية للاستيلاء عليها ، واسقاط ابن عبيد الذي قتل رسله .

لذلك استجد ابن عباد بالمرابطين على عدوه ، وسافر بنفسه الى ابن تاشفين في المغرب ، واستجده به ، فوافق ابن تاشفين بدافع الحماس الدينى والأطماع السياسية أيضا ، وحشد الجيوش للجهاد ، وأججزها الى الجزيرة الخضراء ، ثم عبر اليها بنفسه ليقود الجيش ، واتخذ من الجزيرة الخضراء قاعدة لجيوشه ، وابتهج الأندلسيون لقبه ، وولوا فيه خير منقذ مما وصلوا اليه من ذل ومهلة . وكان ابن تاشفين متعمدا للجهاد بحليل قوله « انما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستقذهم من أيدي الروم ، لما رأينا استبدادهم على أكفرها وغداة ملوكهم وإصالحهم للغزو وتوكلهم وتفادلهم وإيثارهم الراحة ... ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم طول هذه الفتنة الى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلا ورجالا لأعهد لهم بالذعة ، ولا علم عندهم برهاء للعيش » .

احتلت طلائع المرابطين الجزيرة الخضراء — كما قلت — وعلت صيحة الجهاد في المغرب والأندلس ، فاقبل عليه الناس من للبلدين مجاهدين ، وانضمت اليه قوات المعتمد بن عباد وقوات أمراء الأندلس الآخرين ، وبذلك اجتمع شمل الأندلس بعد تفرق ، وتوحدت جهودهم بعد طول نزاع ، وبدأ ، وكان يوسف قد وصل ما انقطع من تاريخ البلاد منذ أيام المنصور ابن أبى عامر الذى كانت البلاد في أيامه موحدة الكفة ، وعاهد يوسف ملوك الطوائف أن يكونوا يدا واحدة وأن تتصل جهودهم لغزو الروم بصونته ، وتكونت جبهة اسلامية متحدة

تتصدى للنصارى • وأدرك الفونسو الخطر الداهم على دولته وقوته ، فاستجعد بأمراء النصارى ، ملوك أوروبا والبابوية ، ورفع الحصار من سرقسطه ، وأعد العدة لمقاومة الخطر الاسلامى الزاحف • .

زحفت جيوش المسلمين نحو اشبيلية ثم الى بطليوس في غرب الأندلس ، بنية لقاء العدو ، وحينما علم الملك الفونسو المسلمين بأخبار هذا الغزو ، رفع الحصار عن سرقسطه — كما قلنا — وأسرع بجيوشه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين ، فالتقى بهم في اشمال من بطليوس عند الزلافة ، وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين بين الاسلام والنصرانية سنة ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م • وفي بداية المعركة هاجم النصارى معسكرات المسلمين ، فأحدث فيها هرجا ومرجا ، ففر كثيرون من الأندلسيين ، وتقهقروا أمام العدو ، ولكن يوسف لم يأتبه بهؤلاء الفارين بل هاجم جيش الفونسو ، وحمل عليه حملة شديدة ، ودرق جيش العدو كل مزق ، وولوا محبرين لا يلبون على شيء ، ولا شك أن جمال المرابطين وأصوات طبولهم الهائلة قد ألقت الرعب في نفوس العدو •

ومما لا شك فيه أن انتصار المرابطين في الزلافة قد أنقذ الحكم الاسلامى بالأندلس من سقوط محقق ، وثبت احترام المرابطين في الأندلس ، واستطاع المرابطون تكوين دولة في المغرب والأندلس عاصمتها مراكش ، واسترد المسلمون بلنسية ، وفكوا حصار سرقسطه ، وأوغل جنود ابن تاشفين في بلاد العدو ، وذاعت شهرته ، وفرح الأندلسيون بمقدمه • وحكم البلاد بالعدل ، ولم يفرض على الناس من ضرائب الا في حدود ما أقره الشرع • وأسقط كل ملبوك الطوائف لأنهم بلغوا درجة من الضعف والتفادل لا تغفر حتى ابن عباد نفسه ، وأمن الأندلسيون في ظل حكم المرابطين على أموالهم وأنفسهم ، واستتب الأمن وبساد الهدوء وخضع الناس لحكومة واحدة ، وضمف النصارى ، وانكهمشوا في حصونهم وأوقفوا هجماتهم على بلاد المسلمين ، وخشوا بأس المرابطين ، وتجنبوا الاشتباك معهم •

المرابطون وبنو عباد :

بعد أن سيطر المرابطون على كل بلدان الوادي الكبير وقواعد معاكنه اشبيلية ، ولتجهوا إلى اشبيلية ، وكانوا يعتقدون أن المعتمد بن عباد ، سيخرج من المدينة لاستقبالهم والترحيب بهم ، ولكنه امتنع بمهينته ، وأعد العدة لمقاومة المرابطين ، ومنعهم من دخول اشبيلية .

شدد المرابطون حصارهم لاشبيلية ، فاستعان المعتمد بن عباد بحليفه - الفونسو السادس - ملك قشتالة - وكانت تجمع بين الغريغين مصلحة واحدة ، وهي الدفاع عن الوطن الواحد - اسبانيا - . ومهما يكن من أمر فقد اشتبك الفونسو مع المرابطين في موقعة ، دارت فيها الدائرة على القشتاليين وزعيمهم الفونسو السادس . وانفرد ابن عباد بمقاومة المرابطين ، وانهارت قواته واقتحم المرابطون اشبيلية في رجب ٤٨٤هـ / ١٠٩١م وعاثوا فسادا وتخريبا في المدينة ، وهاجم المرابطون القصر الملكي ، وخرج ابن عباد لمقاومتهم ، وظل يقاتل أمام قصره ويدافع عن بلاده ، حتى تمكن منه المرابطون وأسروه هو وآله ، وقتلوا ابنه مالكا الملقب بـ « فخر الدولة » أمام عينيه ، ونهبوا قصور الأمير ، كما نهبوا البلدة نهباً قبيحاً . وعلى أثر ذلك سقطت كل بلدان المملكة في أيدي المرابطين « (١) » .

وفي ذلك يقول أحد أبناء الأمير :

يحل زمان المرء ما هو علقد ويسهر في أهلاكه وهو راقد
ويغرى بلعل الفضل حتى كأنهم جناة ذنوب وهو للكل حاقد
ويشرق الألف من بعد صحبة وكم شهدت مما ذكرت الفراقد

وقتل المرابطون أربعة من أبناء المعتمد ، وقبضوا على المعتمد وبعض أفراد أسرته ، وسبقوا إلى أغمات في موكب حزين وودعه شعبه بالبكاء

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ٢ ص ٨٠ - ٨٥ .

والنجيب ، وتحدث الأقباء والشعراء بإفاضة عن نكبة ابن عباد وعن
المجد المفقود والعز الزائل ، وتقبلات الدهر ، وتغيرات العصر •
على كل حال عاش ابن عباد في معتقله في أغصات بالقرب من مراكن
وقد عاش المتمتع وزوجته وأولاده في ذل ويؤس حيث ضيق عليهم أمير
الرابطين في الملك والملبس ، وكانت هذه الأسرة الغنية سابقا لا تصد
ما يكفيها من المال لأبسط متطلبات الحياة كاللبس ، وكانت بنات الأمير
يغزلن الثياب لأفراد الأسرة ، ويبيعن في الأسواق والتكسب من ذلك •

وفي أول عيد في الأسر يقول الأمير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساك العيد في أغصات مسرورا
تري بناتك في الأطحار جاثمة يغزلن للناس ما يملكن قطعيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطل مسكا وكافورا

ولقد اهتز الشعراء لنكبة آل عباد حتى أن الشاعر يقول :

غريب بأرض المغربين أسير سبيكي عليه منبر وأسير -

وتفرق أولاد ابن عباد في مختلف البلاد ياتسمون الرزق والعيش بكل
سبيل ، وتوفى الأمير في أسره ، وظلت فكراه عاقله في نفوس أهل المغرب
والأندلس ، وكانوا يزورونه في قبره ، وأنشد أحد الشعراء أمام الجماهير
المحتشدة حول قبره :

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عنتك عن السماع عواد
لا خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وتفتت قبرك موضع الانشاد
قد كنت أحسب أن تجرد أدمعي نيران حزن أحرقت بفؤادي
فاذا يجمعي كلما أجريته زادت على حرارة الأكباد

وظل قبره مزارا يزوره أهل المغرب والأندلس ، وظلت فكري نكبة
حديث الناس ونسج الادياء والشعراء القطع الأدبية الكثيرة حول هذه
المناسبة •

ولكن المرابطين لجأوا إلى استشارة الفقهاء في كل أمور السياسة والحكم ، الأمر الذي أضعف أداة الحكم ، لأن رجال الدين ليسوا أهل سياسة ، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى سحق الأهلين على حكومة المرابطين ، ثم انغمس المرابطون في الترف والنعيم ، وفقدوا خصائصهم البدوية وما اتصفوا به من خشونة وغظة ، وخضعوا للنساء وانغمسوا في الشهوات والملاذات ، فضعف أمرهم واختلت أحوالهم ، وجسدت النصراني هجماتهم في الأندلس وامتدت من ليون إلى جبل طارق . ولما رأى الأندلسيون حكمهم المرابطين لا يتحركون لانتقامهم من هجمات النصراني ، طردوهم من بلادهم .

وعاد الأندلس سريعاً الأولى في عهد ملوك الطوائف ونشأت في الأندلس مدن مستقلة عن بعضها ، توضع للنصارى ، ويحارب بعضها بعضاً .

من أهم أسباب تدهور حكم المرابطين في الأندلس ، اضطراب الأمور في هذه البلاد ، بعد استدعاء الأمير تاشفين إلى المغرب وسحب عدد كبير من المرابطين معه للتصدي لمحاولة الموحدين السيطرة وانتزاع المغرب من المرابطين ، فلنتهز النصراني في الأندلس الفرصة كماדתهم ، وأغاروا على الأراضي الإسلامية في إسبانيا وتعددت هزائم المرابطين في الأندلس ، بعد أن توقفت الامدادات التي كانت ترد إليهم من المغرب ، يسبب انشغال المرابطين في المغرب بقمع حركة المهدي ، وأدى ذلك إلى ضعف المرابطين في الأندلس ، واستهانة أهلها بهم .

ومن أسباب ضعف المرابطين في الأندلس اضطراب الإدارة بعد وفاة الأمير علي بن يوسف ، وتولية تاشفين ، فكانت الأوامر تصدر إلى الجند والرعية متناقضة ومتضاربة ، فسادت العلاقة بين الحاكم والرعية ، ونظر الجند والرعية إلى أميرهم تاشفين نظرة احتقار وإزدراء .

ومن أسباب ضعف حكم المرابطين في الأندلس : أن الفقهاء — كانوا

أصحاب نفوذ كبير في دولة المرابطين — لم يوجهوا الرعاية التوجه السليم ، ولم يظهروا أمام الناس بالمظهر اللائق للقادة الروحيين ، بل انصرفوا إلى كتب النزالي والحديث عنها ، وتركوا الأمور الجوهرية تنتشر في البلاد كالسحوة والمهجة .

وتضيف إلى ذلك أن الحكومة المرابطية في الأندلس عرّفت عنها التسامح الشديد مع مثري الشغب في بلد لا يستقيم أمره إلا بالظفر .

ومن الأسباب المباشرة لتدهور حكم المرابطين في الأندلس ، إهراق الفقهاء لكتب النزالي — أحياء علوم الدين — واستئثار هذه الواقفة محمد ابن تومرت — زعيم الموحدين — للنيل من المرابطين والدعاية لحكمهم . ونطلق المهدي بن تومرت للقضاء على حكم المرابطين ولعلما بشعار الإبر بالمرحوف والحق عن المنكر .

كان ابن تومرت سياسيا بارعا قبل أن يكون رجل دين وكان يمتلك موهبة رجل السياسة الذي يستطيع فهم الرجال وتقييم الأعمال ، والتخلص ممن يستطيع التخلص منه ، وممن لا حاجة له به ، والاستماتة بما يفيد في نشر دعوته ، وأخذ من المذاهب ما يفيد في أغراضه . . .

ونلاحظ أن الموحدين قد تمكنوا من المرابطين بسبب فساد أدارتهم ، ويمثل ذلك في عملهم الذين أقبلوا على الرشوة والفساد كما أن الرشوة امتدت إلى القضاء ففسد ، وأقبل الفقهاء على جمع المال واستغلال الدين ومناصبهم لصالحهم الشخصية .

ومن أسباب تدهور حكم المرابطين ازدياد قوة للتضار في عهد الفونسو الأول — ملك أراغون وقشتالة وليون — الملقب بالحارب ، وقد شدد هجماته على المرابطين حتى أضعفهم وفي مدى سنة وبضعة أشهر اجتاحت بلاد الأندلس شرقه وغربه وشماله وجنوبه . وقد أضعفت هذه

الغارة من هبة ومكانة المرابطين في الأندلس ، واستهتان الأندلسيين بحكامهم ، وانضموا إلى الموحدين في التغلص من المرابطين .

انتشر التصوف والزهد في الأندلس ، بعد أن كثر الفساد في المجتمع ، وتعرضت البلاد لهجمات النصارى ، وتسلط الفقهاء على الناس وفرصوا عليهم مذهبهم وآراءهم ، وضعف الحكم المرابطين وانتشر الفساد بين عمال الدولة وقضاتها ، لذلك لجأت جماعات كثيرة إلى العزلة عن هذه الحياة ، والزهد فيها ، وظهرت في شرق الأندلس عدة فرق ، كان من أشهرها وأهمها مدرسة المريه والتي ترعها الصوفى الكبير أبو العباس ابن العريف ، وامتدت مراكز الصوفية فشملت ، مرسية وبانسية وجزيرة شقر ومالقة وجيان وغرناطة ، وانتشرت الصوفية كذلك في قرطبة وراسل ابن للعريف المريدين برسائل حفظها التاريخ . وانتشر المريدون كذلك في غرب الأندلس ، ولترتبوا مع بعضهم بروابط وثيقة ، وكان ابن العريف يرسل الرسائل — كما قلنا — إلى مريديه تباعا ويانتظام .

كان للمريدين أفكارا وآراء مختلفة ومعتوقة ، وأغلب الصوفية كانوا يرون الالتزام بالكتاب والسنة ، وكان على رأس هؤلاء ، ابن العريف ، وهناك فريق آخر من المريدين كان يميل إلى المذهب للتأهري ، وهناك جناح متطرف يميل إلى المذهب الباطنى .

وارتأبت الحكومة المرابطية في المريدين ، وخشيت على سلطانها ، اذلك أمنت في مراقبتهم وملاحقتهم ، حتى لجأ بعضهم إلى أماكن منعزلة عن عيون السلطة للكاثمة .

وتورط المريدون في بعض حوادث الاغتيالات مثل مقتل بعض القضاة الأمر الذى شدد من ملاحقة السلطة الحاكمة لهم ، واشتد الصراع بين أجنحة المريدين بسبب تورط المتطرفين منهم في الاغتيالات ، وقد حاول ابن العريف أن يدعو المريدين إلى دهاندنة الحكومة ونبذ التطرف ، وكان

يفترض تخيير الحكومة القلثمة ، لأن الوقت غير مناسب وحذر بعض كبار رجال الدولة ، الحكومة من التسلط والتفاضى عن حركة المريدين ، فاشتكت الحكومة في مطاردتهم ، وتصدت لهم وانقطعت الرسائل بينهم ، وتصدى الفقهاء لابن العريف ، وسفروا آرائهم وأنكروا مذهبه ، وسعوا به الى الأمير المرابط وحذروه منه ومن رجاله ، وأمر الأمير علي بن يوسف بنعلي ابن العريف الى مراكنى حتى يكون بعيدا عن مريديه ، ولكنه عاد فعفا عنه ، وتوفى ابن العريف سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م ، وقد شجع تسامح الأمير علي بن يوسف الأجنحة المتصوفة من المريدين على الثورة ضد الحكم القسائم .

ترغم أبو القاسم أحمد بن قسى ، المريدين بعد وفاة ابن العريف ووجه المريدين توجيهها يختلف تماما عن سلفه ، حتى أصبح المريدين في الظاهر طائفة دينية أو فرقة صوفية وفي الحقيقة أداة سياسية ، استخدمها ابن قسى أداة في الوصول الى الحكم ، وشجعه على ذلك ضعف المرابطين في المغرب أمام محاولات الموحدين انتزاع الحكم منهم .

كان ابن قسى يمدد المجالس العلمية لشرح كتب الغزالي وآرائه ويجتمع بالمريدين سرا لنشر دعواه السياسية ، بالثورة ضد المرابطين ، واقتصاصهم عن الحكم ، وادعى أنه المهدي ، فكثر أنصاره وأتباعه ، واقتبل عليه الناس من كل مكان .

وفي سنة (٥٣٨ هـ / ١١٤٣ - ١١٤٤ م) كان المرابطون في نهاية أمرهم بالمغرب ، إذ كان الموحدون على وشك انتزاع بلاد المغرب منهم ، فانتفض ابن قسى الفرصة ، وهرض المريدين على الثورة ، وكان المرابطون في الأندلس في مركز حرج إذ توقفت الامدادات التي كانت تصلهم من المرابطين في المغرب وانتفض النصارى في الأندلس الفرصة ، فشدوا هجماتهم على المسلمين في الأندلس ، لذلك تعتبر سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م بداية حركة المريدين الدينية والسياسية .

واقبل الناس على ابن قسى مؤيدين له ولا مامته كل التأييد ولما كثر أتباعه أعلن الثورة ، ودعا الى تحرير البلاد من المختصين ، وأرسل رجاله الى بعض الحصون لمهاجمتها واستولى المريدون على بعض الحصون ، وطردوا منها حمايتها المرابطين ، ولكن جنود المرابطين بقيادة أبى زكريا ابن غانية ، — أمير قرطبة — تصدت للمريدين ، وألحقت بهم الهزائم . وحيثما ابتعد ابن غانية عن قرطبة لمحاربة المريدين ، ثار العامة في قرطبة بقيادة القاضي أبى جعفر بن حمدين ، وغلغلو ابن غانية ، وولوا ابن حمدين وطاردوا المرابطين خارج قرطبة . ولم يلبث أن ثار الناس بإبن حمدين ، وولوا سيف الدولة بن هود ، وكان عميلا للمفونسو — ملك قشتالة ، يحرصه ضد المسلمين ، ويستخدمه أداة ضدهم ، وفي اشاعة الفرقة بينهم ، وانتزاع ما يستطيع من أراضيهم ، وكان ملك قشتالة يعاونه بالمال والجنود لأن الاضطراب في الأندلس يحقق للملك النصرارى أهدافه وقتل ابن هود ، وتولى ابن مردتشش أمور شرق الأندلس وواجه الموحدون مقاومة عنيفة من ابن مردتشش واستمر مسيطرا على شرق الأندلس حتى ٥٩٧ هـ / ١١٧١ م أما زعماء غرب ووسط الأندلس ، فقد استسلموا للموحدين ، وحفظوا في طاعتهم .

دولة الموحدين (٥٢٦ هـ — ٦٦٨ / ١١٢٠ — ١٢٦٩ م)

ينسب محمد بن عبد الله مؤسس هذه الدولة الى على بن أبى طالب وكان يقال لوالده تومرت ، وبنايعه الناس ولقبوه بالمهدى ، وهو من أهل المغرب الأقصى ، رحل الى الأندلس في طلب العلم سنة ٥٥٠ هـ ورحل في طلب العلم الى مصر والشام والعراق ، حيث التقى في بغداد بالامام الغزالي ، وكان فقهاء الأندلس يكفرون من يقرأ كتابه احياء علوم الدين وأفتوا بحرقه في الأندلس والمغرب ، وعاد أبو عبد الله بن تومرت الى المغرب يعلم الناس ، ومن أشهر تلاميذه عبد المؤمن بن علي — من أهل تلمسان — وقال يقرأ عليه يرباط ملاله الى أن انتقلا الى مدينة فاس ، ومنها الى مراکش ثم مرغه في السوس الأقصى ، وتبع المهدي الكثير من البربر سنة ٥١٥ هـ وبنايموه على أنه المهدي ، وتماهدوا على أن يكونوا يدا

راعدة على القتال والدفاع ، وعلى أن يقاتلوا عنه ، وينزلوا أنفسهم دونه
بها كانت التضحيات ، وترغم هذه البيعة أصحابه العشرة ومن أبرزهم
عبد المؤمن بن علي، وسموه بالمهدي ، وكان يعقد الأمور العظام مع أصحابه
لشرة ، وتتابع البربر على بيعته ، والتزموا بنصرتة ، وكنت منهاجه من
أهم أنصاره ، وأعان الحرب على لمتونه ، وترغم أصحابه العشرة الحرب
والطلاب والحفاظ وأهل الدار وأنصاره من القبائل والجند والرماء ،
ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعدها غيره لا في سفر ولا في
ضر ، ولا ينزل كل صنف الا في موضعه فلتنظم جنوده ، ومهبط
لأنصاره كتابا ، سماه التوحيد باللغة البربرية ، وهو سبعة أجزاء عدد
ليلم الجمعة ، وأمرهم بقراءة جزء واحد كل يوم بعد صلاة المصبح
بعد الفراغ من قراءة جزء من القرآن ، وهو يحتوى على معرفة الله
تعالى وسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والايان وما يجب
على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأخى بين أنصاره ،
وألّف لهم كتابا سماه « القواعد » وآخر سماه « الامانة » وكتب أخرى
بالبربية وللبربرية تداولها الناس وتتضمن هذه الكتب المواعظ والحكم
والأمثال ، فاقبل الناس بشغف شديد على هذه الكتب ، ويسر لهم
طلب العلم .

خلى على بن يوسف — أمير المرابطين — على ملكه من المهدي
وحركته ، وعول على قمع هذه الحركة في مهدا ، وأعد جيشا
بقيادة — والي المسوس أبا بكر اللتوني — ومنيت جيوش المرابطين
بالهزيمة أمام جيوش المهدي ، ولم يزل ، أمير المرابطين يوالى الحروب
على أصحاب المهدي من كل جانب ، ويبعث لحسابتهم الجيوش
والكتائب ، حتى سئمت جنوده الحرب ، ودخلهم الذعر والرعب ،
وواصل الموحدون — أتباع المهدي — انتصاراتهم حتى اقتربوا من
أغمات ، وقتلوا الكثير من أهلها ، وتوجه المهدي الى تينمال ، واتخذها
مقرا له لحصانتها وحسن موضعها ، وقسم أرضها وديارها على
أصحابه وأدار على المدينة سورا ضخما ، وشيد على رأس الجبل

حصنا يكشف على ما وراء الجبل ، والمدينة حصينة الدخول اليه .
صعبا عسيرا .

ولما شعر المهدي بقوته وازداد أنصاره ، جشد الجيوش للاستيلاء على مراكنس — عاصمة المرابطين — واسقاط هذه القوة المتداعية وحاصر جنده مراكنس أربعين يوما ، ولكن جيوش المرابطين كانت أكثر عددا وقوة من جيوش الموحدين ، لذلك هزم المرابطون الموحدين ولم يسلم من الموحدين الا القليل وفر من استطاع الفرار من المعركة ، وأتبعهم المرابطون من مراكنس الى أغمات ، فأمعنوا الاقتتل فيهم ، ولم ينج منهم الا القليل ، وكان المهدي مريضا بتيئمال ، وأوصى أن يخلقه عبد المؤمن ، وتوفي المهدي سنة ٥٢٤ هـ ، وخلفه عبد المؤمن بن علي .

توفي أيضا أمير المرابطين علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، وازدادت قوة الموحدين ، وعظم شأنهم ، وتتابع ثوراتهم ضد المرابطين فسادت أحوال بلاد المغرب ، وتدهور الوضع الاقتصادي ، وكسدت التجارة ، وانحطت الزراعة ، فانتشرت المجاعات وارتفعت الأسعار ، وتدهور الوضع السياسي والمالة الاقتصادية في الأندلس ، وتوسع التناحر في الأندلس على حساب ملك المسلمين وغادر الكثير من الأندلسيين بلادهم الى المغرب .

ولى أمر المرابطين تاشفين بن علي بن يوسف ، وكان قد اشتبك مع الموحدين في عدة وقائع وحروب ، ولم يستطع الذهاب الى الأندلس بسبب اشتغاله بحروب الموحدين واشتدت غارات الموحدين من فاس الى تلمسان وكان الموحدون يسيرون في الجبال المنيعة حيث للأزواق الواسعة وتاشفين ينزل البساط بعساكره ، فلا يجد من ينصره من البربر وانتقل عبد المؤمن الى جبل غماره ، فقبضه تاشفين ، ثم انتقل من جبل غماره الى جهة تلمسان ، وبأيمه أكثر زلته المستوطنين بنواحي تلمسان ، ونزله برأس الجبل الذي غنينا ، واستعان تاشفين بصنهاجه

ويرجّاه في كل بلد في المغرب ، وتمت المركة الفاصله بين المرابطين والموحدين فيما يعرف بيوم منداس فقد فيه من جيش المرابطين جموع غفيرة ، وظهرت حتى هذا اليوم قوة عبد المؤمن وتجلت بوضوح ، وكان أمر المرابطين قد ضعف في الأندلس لانشغالهم بأمر الموحدين في المغرب ولم يزل الموحدون في علو وظهور كل يوم ، وحال اللمتونيين في ادبار ، حتى اضطر تاشفين الى الاحتماء في حصن في وهران ، خوفا من بطش الموحدين ، ولكن الموحدين حاصروه في الحصن ، ومات تاشفين ، واستولى الموحدون على الحصن سنة ٥٣٩ هـ .

خلف ابراهيم بن تاشفين أباه في وقت تمزقت فيه دولة المرابطين ، واصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، وكان عليه أن يحافظ على ما تبقى للمرابطين في المغرب ، ولكن كانت قوة الموحدين في ازدياد ، وشأن المرابطين في ضعف وانقسام .

استولى عبد المؤمن على وهران وتلمسان ، ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم من الأموال ، وغربوا الديار ، وقتلوا الأتفس ، واستولى على فاس بعد حصار دام ستة أشهر قاوم أهلها الموحدين بكل بسالة وشجاعة ، واستولى الموحدون على فاس ، ورحل عبد المؤمن الى سلا ، وأرسل عبد المؤمن فرقا من جيشه حاصرت مكناسه حتى استسلمت .

بعد أن ضم الموحدون الكثير من بلدان المغرب الى حوزتهم ولمسوا ضعف المرابطين ، رأوا أن الوقت قد حان للاستيلاء على مراكش عاصمة المرابطين ، حتى يزيلوا نهائيا هذه الدولة من الوجود . وفي سنة ٥٤١ هـ توجه عبد المؤمن الى مراكش ، وحاصر جنود الموحدين العاصمة المرابطية حتى طال الحصار ، واشتد الكرب وعظم البلاء ، وقتل في الحصار الكثير من أهل مراكش ، ومات الناس جوعا وعطشا ، حتى فتحت مراكش أبوابها للغزاة سنة ٥٤١ هـ فعزل الموحدون البلدة عنوة ، وامتتح الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين مع المرابطين بداخل أمد الحصون ، ولكن الموحدين اقتحموا الحصن وقتلوه ، كما قتلوا

الكثير من أهل مراكش ، واستمر القتل ثلاثة أيام • ويموت الأمير أبو اسحاق إبراهيم بن تاشفين زالت دولة المرابطين ، وقامت على انقاضه دولة الموحدين •

وكان انتصار الموحدين في وهران ، ومصرع حاكمها تاشفين ابن علي مشجعا للنوار في الأندلس بالاتصال بالموحدين يطالبونهم بالذهاب الى بلدهم •

واتصل النوار في الأندلس فملا بالخليفة عيد المؤمن وبأيعوه ، ودعوه للحضور الى الأندلس ، وتولى أمورها بعد أن تدهور المرابطون ، وطمع العدو في البلاد ، وانهار الوضع الاقتصادي وكانت أول خطبة أقيمت للموحدين بالأندلس في مسجد قادش ، وانضم ابن ميمون قائد أسطول المرابطين الى الموحدين •

وكان لمقدم الزعماء الثنائين في الأندلس على ، عبد المؤمن ، ومبايعتهم له أثر فعال في توجيه أنظار الموحدين الى الأندلس وسعيهم الى ما سلطانهم على هذه البلاد •

زحف الجيش الموحدى الى الأندلس سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٦ م ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، وطرد المرابطين منها ، واستولى الموحدون على شريش ، وواصل الموحدون زحفهم في أراضي الأندلس حتى ضموا الى حوزتهم معظم بلدان غرب الأندلس ، وتوجسوا انتصاراتهم بتصفية قواعد الريدن بالاستيلاء على أشبيلية ، ودخل أهلها في طاعة الموحدين ، ولكن سرعان ما لمس الأهلى تعنت حكام الموحدين وظلمهم ، فثاروا عليهم ، وطردوا عمالهم وخرج على طاعة الموحدين ابن غنسى وثار في شلب وابن ميمون بقادش ومحمد بن الحجام بيطليوس ، وطرد أهل أشبيلية الموحدين من بلدهم ، وثار أهل الحمية على واليهم وقتلوه وفي نفس الوقت ثار المغاربة على الموحدين ، ولم يبق في طاعتهم سوى مراكش وفاس • وانتزع ابن غلنية الفرصة ، وقاد جيشا من المرابطين استرد الجزيرة الخضراء من الموحدين •

وزاد من ثورة أهل المغرب على الموحدين ما أوسع بين الناس من أن الموحدين يعمترونها قتل زعيم سبته الروحي أبو الفضل عياض

لما تم لعبد المؤمن فتح مراکش قسم نياها وأموالها على الموحدين. وقسم عليهم ديارها ، وبيع أولاد أهل مراکش واستولى عبد المؤمن على خزائن مائ بن يوسف وخائز لمثونه وبقيت مراکش ثلاثة أيام لا يحطها لدخل ، ولا يخرج منها خارج ، وأسس بمراكش مسجدا جامعيا عبر مسجد المرابطين وغرس البساتين حول مراکش ، وجلب لها الماء من أنعام وحفر الآبار والعيون . وعظم انتاج هذه البساتين من الفواكه .

على أن دولة الموحدين الناشئة تعرضت لكثير من الفتن فوجد بعض الزعماء أن ادعاء المهدي يكسبهم سلطانا ونفوذا وجاها ، فاعان محمد بن عبد الله بن هود الماسي الثورة في بلاد السوس ، وادعى الهداية ، ولقب نفسه بالهادي ، وأقبل عليه الناس من كل مكان ، وطبقت شهرته الآفاق ، ودان بدعوته جموع غفيرة ، وبأيعه الناس في كل بلدان المغرب ، واستكروا دعوة الموحدين ، ورأوا في دعوته خلاصا من الموحدين الذين لم تتحسن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية بانتقال الحكم اليهم ، على أن عبد المؤمن سير عدة جيوش الى بلاد السوس هزمت محمد بن هود الماسي وأنصاره ، ولم تكن هذه الحركة المعارضة الوحيدة لعبد المؤمن ، بل اشتملت ضد حكمه ثورات متعددة قضى عليها وأحبطها في مهدها .

قيام دولة الموحدين بالأندلس

لم يتعجل الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن عنى بإرسال جيش الى الأندلس لانتزاعها من المرابطين مستغلا ثورة الأندلسيين عليهم ، بل تروث بمضى الوقت حتى يتمكن من السيطرة على كل بلاد المغرب ، وانتزاع البلاد التى كانت لآتزال فى أيدي المرابطين ، وضمها الى حوزته . وسقطت بلاد المغرب فى يده الواحدة تلو الأخرى ، وفى سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٧ م سقطت مراکش — عاصمه المرابطين فى يده .

وكان الأندلسيون يترقبون ما يجرى فى المغرب ، ويتمجلون نهاية اليحصبي . وولى أهل سبته عايهم واليسا من المرابطين بعد أن خلعوا طاعة الموحدين .

لما شعر عبد المؤمن بقرب زوال حكمه ، اضطر الى استفدام العنف لاختفاس انوار عليه فى المغرب ، وهزق معارضيه كل مهزق ، واسترد الموحدون فى الأندلس الجزيرة الخضراء واسبيلية ، وتلى ذلك سقوط مدن المغرب الأندلس فى أيدي الموحدين المدينة تلو الأخرى ، وقوى أمر الموحدين فى الأندلس حتى أصبح فى امكانهم ضمها الى حوزتهم ، وقد أزعج ذلك ، الفونسو السابع — ملك قشتالة — فأرسل الى ابن غانية فى قرطبة يطالبه بالمال الكثير نظير حمايته من الموحدين ، ودرء خطرهم عن بلاده ، فرأى ابن غانية أن الموحدين اخوانه فى الدين أفضل ألف مرة ومرة من الفونسو السابع ، لذلك أرسل فى الصلح الى الخليفة عبد المؤمن ، وتتسأل للخليفة عن قرطبة وفرومونه مقابل حكم جيان عوضا عنها ، ولم يآبه ابن غانية بتهديدات الفونسو السابع ، وقد هاجم الفونسو السابع قرطبة ، واستولى عايها بعد وفاة ابن غانية ، وعدم استطاعة الموحدين ملا الفراغ الذى تركه هذا القائد ولكن الموحدين مالبتوا أن استردو قرطبة ، وعززوا فيها حاميه كبيرة ، وعاد ملك قشتالة فاستولى على المريه فى سنة ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م ، وكان

لسقوط المرية أمر سيء في نفس الأندلسيين ، الذين تتابعات المحن عليهم ، وقد نجح ذلك النصرارى على الاستيلاء على ما بقى بأيدي المسلمين في الثغر الأعلى ودعا البابا أوجين الثالث إلى حماه صليبية لفتح هذه البلاد وهاجموا طرطوشة التي سقطت بعد حصار دام ستة أشهر ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م . وتتابعات حملات النصرارى على البلاد الإسلامية فهاجموا لاردة وأفراغة ومكناسه ، واستولوا على هذه البلاد . وبذلك زال سلطان المسلمين من الثغر الأعلى ، ودانت بلاد الثغر الأعلى للنصرارى ، وسقطت أشبونة في أيدي ملك البرتغال في الوقت الذي سقطت فيه المرية .

ساعات أحوال الأندلس ، وتدهور الوضع السياسى بها وتطعن الأندلسيون إلى الخليفة عبد المؤمن لانتقال بلادهم من النصرارى ، وذهب شيوخ الأندلس إلى الخليفة ويأيموه ولم يتخلف إلا ابن قسى الذى ظهر عدم إخلاصه للموحدين بل وطد علاقته بملك البرنغال ، لذلك خشى أهل شلب سوء العاقبة ، وتاروا على ابن قسى وقتلوه وأرسلوا إلى الخليفة عبد المؤمن يسأيمونه ، وبذلك انتهت ثورة المرينيين انتهى كانت تستهدف الخلاص من حكم المرابطين ، وأصبح غرب ووسط الأندلس في أيدي الموحدين ، وتخرج موقف المرابطين في غرناطة ، فأرسل إليها المرابطى ميمون بن بدر إلى الخليفة عبد المؤمن يعرض عليه تسليم غرناطة فوافق على طلبه وأمنه على حيلته وماله سنة ٥٥١ هـ - ١١٥٦ م وعلى أثر استعادة الموحدين غرناطة ، استولوا على المرية وكان لابد للموحدين من تأمين سواحل المغرب والأندلس من أخطار النصرارى ، واسترد الموحدون كل بلدان الثغر الأعلى .

وبعد أن فتح الموحدون معظم الأندلس ، اتجهوا إلى تحرير بقيه شبه الجزيرة من النصرارى ، وحصنوا قاعدة جبل طلرق وأنشأوا مدينة كبرى بها تكون معسكرات تتطلق منها الجيوش الموحديه لتحرير البلاد من الأعداء والجهاد في سبيل الله . وكانت سياسة عبد المؤمن تستهدف

تخليص بلاد الأندلس من العملاء المسلمين المتواطئين مع الأعداء
وتخليص البلاد بعد ذلك من العدو النصراني القريب .

كان عبد المؤمن يرا بمن انضوى اليه ، عارفا بأقدار الناء
مكرما لأعيانهم وأهل البيوتات منهم ، عالما بقدر العلماء ، ينزل الناء
على قدر منازلهم ورتبتهم ، ورعى الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ ، وكه
ورسائل المهدي ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر
فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف قصد بهم سرعة الحة
والتربية على ما يريد ، فيأخذهم يوما بتعلم ركوب الخيل ، ويوم
بالرمي بالقوس ، ويوم بالسباحة فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة بالمطاه
وتارة بالأدب ، وكان ينفق عليهم عن سعة . وبذلك استطاع تكوين فئة
ذات كفاءة قتالية كبيرة ، وثقافة دينية رفيعة ، كما عهد بحكم الولايات
الى رجال يثق في قدرتهم الادارية .

اعتزم عبد المؤمن توسيع دائرة مآكه في المغرب ، فتوجه الى تونس
وسأله أهلها الأمان فامنهم في أنفسهم وأولادهم ولكن ليس في أموالهم
لذلك دخل جيش الموحدين تونس ، وصادر الجند أموال الأهلين
وبعد أن ثبت الموحدون أقدامهم في تونس ، توجه عبد المؤمن الى المهدية
وكان صاحب جزيرة صقلية قد استولى عليها ، وعلى بعض بلدان
السلح التونسي فاسترد الخليفة عبد المؤمن هذه البلاد ، وعادت الى
أيدي المسلمين سنة ٥٤٥ هـ ، وأعطى جند صقلية أمنا فغادرو
المهدية ، وبذلك عادت هذه البلاد الى حظيرة الاسلام ، وأمن أهلها على
أنفسهم وأموالهم ، وانضمت الأراضي التونسية الى دولة الموحدين .
وضمنت دولة الموحدين معظم بلاد المغرب من طرابلس الى أقصى
الموس .

خلفاء عبد المؤمن :

لما توفي عبد المؤمن خلفه ابنه يوسف ، وقد اجتاز الى الأندلس
سنة ٥٨٠ هـ ، وقد سيطر على بلاد غرب الأندلس ، وصد عنها غارات

النصارى سنة ٥٨٠ هـ ، وولى أبناءه القواعد الرئيسية في الأندلس ، واتسع مآكه في المغرب والأندلس ، وخلفه يعقوب المصور ، ومن أهم إنجازاته فتح مدينة شلب وفي سنة ٥٩١ هـ ، هزم النصارى ، وانتصر عليهم انتصارا رائعا في موقعة تسمى الأرك سنة ٥٩١ هـ بلقت دولة الموحدين ذروتها في عهد هذا الخليفة ، فقد اتسع ملكهم ، فكان للدولة جيش قوى قادر على توجبه الضربات القوية للعدو ، وكانت جيوسهم تضم جندا من المصادة أولا ثم من المنهاجين ثانيا وبعض الزناتيين ، وبعض العرب الهلالية ، وأحاط الخليفة نفسه بحرس خاص من العبيد السودانيين .

ومن أشد الفتن الداخلية التي واجهها أبو يوسف يعقوب المنصور فتنة بنى غانية في أفريقية ، وقد انضم اليهم بعض العرب والترك وكانوا يتفخون من الصمراء ملاذا لهم ، كلما ضيق عليهم الموحدون للخصاق ، وما زال أبو يوسف يعقوب يشدد عليهم هجماته حتى نكل بهم وهزمهم ، واستكانوا ، وكفوا عن الثورة سنة ٥٨٣ هـ .

لما هدأت بلاد المغرب بعد انتهاء ثورة بنى غانية تطلع أبو يوسف يعقوب لانتفاذ بلاد الأندلس من العاوية التي تردت فيها ، فقد استند مسقط النصارى على مسلمى الأندلس وتدهورت أحوال المسلمين في هذه البلاد ، وأصبح الأندلس على وشك السقوط في أيدي النصارى ، وجدير بالذكر أن أبا يوسف يعقوب كان مصامرا لمصالح الدين الأيوبي ، وكما حرر صلاح الدين القدس وبعض أراضى الشام من الصليبيين فعلى أبو يوسف يعقوب نفس الشيء . وفي هذه السنة — أقصد سنة ٥٨١ هـ — تولى سانشو الثاني ملك البرتغال ، وقرر الاستيلاء على بعض بلاد غرب الأندلس منتهزا فرصة انشغال الموحدين ببني غانية .

وفي سنة ٥٨٥ هـ حشد جيشا كبيرا ضم فرقا صليبية كانت مسافره الى بلاد الشام ، واستولى على شاب أهم ما تبقى للموحدين في غرب الأندلس من الموانئ .

وكان لسقوط سلب في أيدي ملك البرتغال امر كبير في تصميم
أبى يوسف يعقوب لتحرير عرب الأندلس من أيدي النصارى ، ودعا
الى الجهاد ، واستتفر الناس للقتال ، وأقبل عليه أهل المغرب من كل
مكان ، وكانت مساعى المسلمين قوية بعد انتصار صلاح الدين في
حطين سنة ٥٧٩ هـ .

خرج المنصور من رباط الفتح ، وأمر جنده بموافاته في انسيبئية
سنة ٥٨٦ هـ ، واستعاد المنصور سلب سنة ٥٨٧ هـ وكذلك بعض
الحصون . وتوقف عن الحرب أربع سنوات ، عاد بعدها الى منازل
الحدو سنة ٥٩١ هـ ، وعندما علم الفونسو الثامن — ملك قشتالة —
دعا كل ملوك التصارى في أسبانيا الى تشكيل جبهة متحدة للتصدي
للمسلمين واستجد بالبابوية ، فكثر جموع النصارى وفرسانهم ،
واحتشدوا في سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك على ضفة الوادى
أه والى المغرب من مدينة « ثيوداد ريال » الحالية ودارت المعركة
الفاصلة في شعبان ٥٩١ هـ ، وهزم المسلمون النصارى ، ومزقوا جموعهم
كل ممزق ، وفر الفونسو ومن استطاع الفرار الى طليطلة ، ولم ينج
من هذه المعركة الا الشريد .

كان لهذه الواقعة آثار بعيدة المدى في تاريخ الأندلس لا تقل عن الأثر
الذى تركته واقعة الزلاقة ، فقد عادت الى المسلمين هيبتهم في هذه البلاد
وضعف أمر النصارى . فبعد هذه الواقعة أرسل المنصور فرقا من جيشه ،
امتدات الكثير من بلاد غرب الأندلس ، لكن المنصور لم يجد مرة نصره ،
فقد كان في استطاعته تحرير طليطلة وغيرها من البلاد . وكف عن محاربة
النصارى ، لذلك أعطى الفرصة للفونسو الثامن لاعادة تنظيم قواته
واكتفى المنصور بتنظيم ادارة الأندلس ، وجنح الى السلم .

خلف محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أباه (٥٩٥ هـ — ٦١٠ هـ
١١٩٦ — ١٢١٣ م) كان شابا سريع الانفعال مستبدا بالأمر ، وفي عهده
انتهت ثورة ابن غانية ، واستولى محمد بن عبد الله على الجزائر الشرقية

سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، وبعد ذلك بعامين ، انتصر الموحدون انتصارا رائعا على بنى غانية ، وقضوا عليهم نهائيا قرب قابس . وعلى أثر ذلك دخل الموحدون تونس والمهدية . وتم بذلك القضاء على فتنة بنى غانية التي أجهدت الموحدين كثيرا ، وعهد خليفة الموحدين لمعد الواحد بن أبي حفص بحكم تونس لكفاحته . وقد قضى على آثار بنى غانية ، ونبت أقدامه في تونس ، ووطد نفوذه بها . وتوارث بنو حفص حكم افريقية حتى احتفظوا بها نهائيا .

ضعف أمر المسلمين في الأندلس بسبب انشغال الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بقمع الفتن في تونس ، وكف الموحدون عن إرسال الجيوش الى الأندلس لتعزيز مركز المسلمين هناك ، وقد شجع ذلك الفونسو الثامن — ملك قشتالة — على شن الغارات على بلاد المسلمين في الأندلس ، لذلك رأى الخليفة أبو محمد عبد الله الناصر لخصاع الفونسو ، ومحاربتة وأعد لهذا الغرض حملة قوية أحسن اعدادها ، وأمدّها بالأسلحة والعتاد ، وعبرت الحملة الى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ — ١٢١٠م ، وعسكر الجيش الموحدى في انبيليه ، وتوافد على جيشه المجاهدون الأندلسيون من كل صوب وحذب .

وأعد الفونسو الثامن حملة صليبية للانتقام من هزيمة الأرك وطرده المسلمين من الأندلس ، فأنهى خلاقاته مع ملكى نافار وأرجون واستجد بالبابوية ، وكون قوة مسيحية ضاربة تستطيع محاربة المسلمين وتوجيه أشد الضربات لهم .

تحرك الناصر بجيشه الكبير سنة ٦٠٨ هـ — ١٢١١ ، ودخل جيان وحصنها ، ثم سار الى خانق ، وعسكر بجيشه على مقربة منها في سهل ملئ بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتسمى العقاب ، والتقى الناصر بجيوش النصرانية ، وتتألف من قوات من ليرين ونافار وقشتالة وأرجون وخراسان اسبانية وقوات من المانيا والبرتغال واستولت هذه الجحافل على قلعة رباح ، فذعر الناصر ، وأمر بقتل قائدها يوسف بن قاندا ، هنا

ارتاع الأندلسيون ، وتفرقوا ، فضعف شأن الناصر ، ووقعت الواقعة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م ، وقد هاجم النصارى المسلمين بعنف وضراوة ، واخترقوا صفوف المسلمين ، وقتلوا من مرسانهم الوف ، ومن جندهم عشرات الألوف . وتعتبر هذه الواقعة بداية لضعف شامل أصاب المسلمين في الأندلس ، كما تعتبر نهاية قوة الموحدين ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، وتوفى الناصر بعدها بعدة أشهر ٦١٠ هـ - ١٢١٣ م ، وقد نسجت هزيمة المسلمين ، النصارى على الاستيلاء على حصون الماسمين ، الواحد بعد الآخر وضعف الموحدون ، وتنافسوا حول الوصول الى الحكم ، وتنافسوا أحوال الأندلس ، فسقطت البلاد الأندلسية في أيدي النصارى وهي قرطبة وأنشيليه وجيان ومرسيه والجزائر الشرقية وقد هال المسلمون سقوط عاصمتهم قرطبة ٦٣٢ هـ - ١٢٣٦ م في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، الملعب بالقدسيس دون مقاومة تذكر .

خلف الناصر ابنه المنصور ، أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر وتنافس أمراء البيت الموحدى حول الحكم ، وثاروا ضده وظهرت العناصر القوية تطالب بالحكم والقضاء على الدولة المتداعية ، وانتهى النزاع بالقضاء على الموحدين ، وقيام دولة بنى مرين ٦٦٨ هـ - ١٢٧٠ م .

ويجب أن نقول هنا قبل أن نختم كلامنا على دولة الموحدين ، بأن هذه الدولة لعبت دورا كبيرا في تقوية بلاد المغرب ، وأجلت كثرة سقوط الأندلس ، وعززت مركز المسلمين في هذه البلاد ، ويعتبر عصرهم ، للعصر الذهبي للفلسفة الإسلامية ، فقد ظهر علماء الفلسفة الكبار ، ابن رشد وابن طفيل وابن عربى، وحفل العصر الموحدى بالأدباء والشعراء والمفكرين والمهندسين الذين أقاموا منشآت معمارية بديعة في جميع أنحاء المغرب . واعتمد الموحدون في بناء صرح دولتهم على المصاعدة ، وهو فرع بربرى تميز بالصلافة والمقدرة القتالية ، ويشكلون معظم سكان المغرب الأقصى .

ويجب أن نشير هنا الى كبار فلاسفة هذا العصر من الفلاسفة الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الله بن طفيل القيسى من مراكش

ت ٥٨١ هـ ، ويرى البعض أنه تلميذ لابن باجه ، وكان طبيباً في عرطه ، وعمل كاتباً لبعض الأمراء ، وارتفع شأنه حتى أصبح طبيباً لضعيفة الموحدين يعقوب يوسف المنصور وله مصنفات في الطب ، وله آراء فيه في الفلك ، ولم يبق من مؤلفاته الا رساله حى بن يقظان ، أو سرار الفلاسفة الاشراقية ، وبدأ ابن طفيل رسالته بموجز مفيد هام عن تاريخ الفلسفة في الاسلام ، يمتدح ابن طفيل فيه ممن تقدمه من الفلاسفة ، ابن سينا وابن باجه والغزالي ، والأساس اخلصى لرساله ابن يقظان ، هو الطريق الذى كان عليه فلاسفة المسلمين ، الذين نهجوا على مذهب الإغلاطونية الحديثة ، وقد صور ابن طفيل الانسان الذى هو رمز العقل فى صورة حى بن يقظان (واليقظان هو الله) ورعى ابن طفيل من ورائها الى بيان الاتفاق بين ادين والفلسفه ، وهو موضوع سئل أدهان المسلمين جميعاً .

ولد ابن طفيل فى إحدى القرى الأندلسية ، وتقاد عدة مناصب من بينها وظيفة كاتب لحاكم ولاية غرناطة ، وحاكم ولاية طنجة ، وكان طبيباً لأحد خلفاء الموحدين ، وهو أبو يعقوب يوسف ، وعظمت مكانته عند الخليفة الموحدى ، وجمع بين الرجلين الميل الى دراسه علوم الدين والفلسفه ، وأرسل فى شراء الكتب من المغرب والأندلس ، وجذب العلماء الى بلاطه ، وأعقد عليهم ، ووصلهم ، حتى ضم بلاطه نخبة من العلماء الأجلاء .

وتطورت الدراسات الفلسفية فى عهد الموحدين ، فبينما كان يرفض المرابطون علوم الفلسفه ، نجد أن الموحدين جددوا علم الكلام عن طريق

ادخال مذهب الأشعري ومذهب اعرالى الصوق الأشعري ، بعد أن كانا موصوفين بالزندقة من قبل .

ومن أهم مؤلفات ابن طفيل « حى بن يقظان » ووفق في هذا الكتاب بين الدين والفلسفة حتى يزيل أشك والريبه من نفوس المخاربه في علم الفلسفة ، واستفاد ابن طفيل من كتب الفلاسفة الذين سبقوه في المشرق والمغرب ، وتوفى في مراكس سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ - ١١٨٦ م .

كان الانتاج العلمى لابن طفيل قليلا ، ادا قيس بابن رسد أو ابن سينا ، وقد يكون السبب في ذلك استغاله بالمناصب الرئيسية في فترات من حياته ، ربما نسفطه عن التاليف والتصنيف ونسمع عن كتب ألفه في الفلسفة والطب والأدب ، وفقدت مؤلفاته ، ولم يبق منها سوى كتابه المعروف « حى بن يقظان » .

وترجع شهرة ابن طفيل الى رسالته « حى بن يقظان » التى تعد من الرسائل الخالدة في مجال الفكر الفلسفى العالمى عامة ، والفكر الفلسفى العربى على وجه الخصوص ، وتأثر بها الفلاسفة العرب والأوربيون وأقبلوا على دراستها ، وترجمت الى لغات متعددة^(١) .

وقد أوضح ابن طفيل اعتماده على العزالى وابن سينا ، وأضافه الآراء الفلسفية الجديدة التى ظهرت في أيامه ، الى آرائهما ، وانتقد بشدة ورفض كل الرفض آراء منتطلى الفلسفة ، وأضاف الى كل هذه الآراء أفكاره الخاصة وآراءه . وبذلك يتضح لنا أنه درس آراء فلسفة الشرق والغرب الذين سبقوه وعاصروه ، ونقدتها وأوضح وجه الكمال أو النقص فيها .

وفي رسالته عن حى بن يقظان يقول ابن طفيل « نظر حى الى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء فرأى أن حقيقة وجود كل واحد منها مركبة من معنى 'جسمية' ومن شىء آخر زائد على الجسمية اما واحد واما

(١) انظر : التمايزميا في فلسفة ابن طفيل ص ٣٩ .

أكثر من واحد ، لما لاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني اذ هي صور لا تدرك بالحواس وانما تدرك بضرب ما من النظر « العقلي » (١) .

درس ابن طفيل عالم ما تحت فلك القمر ، وعالم ما فوق فلك القمر ، ومشكلة حدود العالم وقدمه ، وأدله وجود الله ، ومسكته الصفات الانبيية ، ومشكلة خلود النفس ، والتوفيق بين الفلسفة والدين . ومما يجدر ذكره أن ابن طفيل كان حريصا على تقديم أكثر من دليل على وجود الله ، كل دليل منها يعتمد على فكرة غير الفكرة التي يعتمد عليها الدليل الآخر بصورة أو بأخرى ، دليل أول يعتمد على فكرة الحركة ، ودليل ثان يبين لنا كيف أن حدود الصورة للعادة يحتاج الى محدد ، ودليل ثالث يكشف لنا عنايه الله بالكون ، ولولا هذه العناية لهلك العالم في لحظة من اللحظات والاعتراف بين الأسباب ومسبباتها يهدينا الى التصرف بعناية الله بالكون (٢) .

وقد أوضح ابن طفيل بعض الصفات الالهية عن طريق نفيه عن الله تعالى ما تنصف به الموجودات ، تمسكا منه بقواعد التنزيه وموحدا بين الذات والصفات ، « فانه هو الوجود وهو الكمال وهو اللتمام وهو للحس ، وهو القدرة وهو العلم وهو هو » (٣) .

وفي مجال التوفيق وبين الفلسفة والدين ، اهتمدى بهذه الآراء ضرورة التفكك بحدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض في المسائل الجدلية ، والايتمان بالمشابهات والتسليم بها والاعراض عن البدع والأهواء ، والافتقار بالسلف الصالح وترك الأمور المحدثه ، وتجنب ما عليه جمهور المومنين من أعمال الشرعية ، والاقبال على الدنيا (٤) .

(١) ابن طفيل : حر بن يقظان ، ص ٨٧ .

(٢) عطف العراقي : ابن طفيل ، ص ١٤٠ - ١٤٩ .

(٣) ابن طفيل : حر بن يقظان ، ص ٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ١٧٦ .

ودرس ابن طفيل نظرية الاتصال بالله ، ودرسته جوانب معبرة عن الفناء والعلول ، وغيرهما عن اسياء يتحجب عنها ا صوفييه وهو بيان لسمو العالم الالهي عن العالم الحسي ، ولم يعبر ابن طفيل عن اتجاه صوفي ، انما استند الى اراء فلسفيه وصلته الى المبادئ العامة للوجود .

ويقول الأستاذ الدكتور عطف العراقي . ان آراء ابن طفيل حلقية من حلقات المدرسة الفلسفية الأندلسية ، وهذه المدرسة بأقطبها الثلاثة : ابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد ، لا يعبر واحد منهم من خلال آرائه عن اتجاه صوفي .

اما ابن رشد فقد ارتفع شأنه في خلافة أبي يوسف يعقوب المنصور ، ولكن الخليفة قلب عليه ظهر المجن ، وتكرر للفلسفة والفلاسفة ، وجمع الفقهاء وشاورهم في ذلك . هاتهما ابن رشد بالكفر ، ونفى الخليفة ابن رشد على مقربة من قرطبة ، ويبدو أن الخليفة بعد موقعه الأرك ، ازدادت حماسته الدينية ، ولا ينبغي عن الأذهان سمي الحاسدين لابن رشد لدى الخليفة . ودمه الفقهاء والنسوح في المساجد ، وهجاء اشعراء ، ولكن أهل الخير أصلحوا بينه وبين أبي يعقوب ، فاستدعاه الى مراكش ، واكرم وفادته ، وظل بها حتى وفاته ٥٩٥ هـ ، ومن أبرز مؤلفاته في الفلسفة ، شروح مؤلفات أرسطو ، وطبع شروح مطولة لكتاب « التحليلات الثانية » — « السماع الطبيعي » « ما وراء الطبيعة » و (السماء والعالم) و (النفس) ومؤلفات أخرى لأرسطو رسائل (السماع الطبيعي) و (السماء والعالم) و « الكون والفساد » و « الآثار العلوية » و « النفس » و « وما وراء الطبيعة » .

ومن كتبه التي وضعها بنفسه كتاب « تهافت التهافت » وله كتاب (المقدمات) عبارة عن اثني عشرة مسألة في المنطق ، وكتيب « اتصال العقل للفعال بالإنسان » وله في علوم العقائد « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » والثاني هو (الكشف) .

اشتغل ابن رشد بالطب ، وصف كتباً في هذا المجال ، ومن أهمها كتاب الكليات ، وهو الذى يتضمن الاحكام الكلية في ميدان الطب ، وقد درس طلاب الجامعات في العصر الوسيط هذه الكتب ، لأنه يتضمن معلومات علمه في الطب ، وكان حذراً في وصف العلاج ، وشغل منصب انطبيب الخاص لأبى يوسف المنصور ، ولما عاد المنصور من إحدى حروبه سنة ٥٩٣ هـ ، كتب إليه البعض مقالات يشككون المنصور في صحه عقيدة ابن رشد ، فنفاه بفترة محدودة ثم عفا عنه واستدعه الى مرالكس ، وتوفى ابن رشد سنة ٥٩٥ هـ .

وتصوير مبادئ ابن رشد على أنها فكر وزندقة جاء من بعض علاة الفقهاء وأشياعهم ، اذ أرادوا السيطرة على حرية الفكر ورفضوا انحوض في الفلسفة على اعتبار أنها من العلوم التي لم يعد هناك مجال لدراسنها ، واستجاب المنصور لهم لا موافقه على آرائهم ومبالمتهم بل ارضاء لهم . وفي ارضائهم ارضاء للشعب ، لأنهم زعماءه الروحيون .

والطب في نظر ابن رشد جزء من الفلسفة ، التي كانت في ذلك العصر دراسة شاملة للوجود ككل ، بما يشمله من مجالات عديدة . ولما كان ابن رشد — كما قلنا — قد درس الطب ككل فقد نصح صديقه الطبيب المشهور ابن زهر بأن يمتنى بدراسة الأمور الجزئية في الطب في كتاب ، وأصبح الكتابان يكمل أحدهما الآخر .

وصناعه الطب في نظر ابن رشد لا بد وأن تتصل بالعلم الطبيعي ، وقسمها الى سبعة أجزاء ، يعرض في الجزء الأول أعضاء الانسان التي شوهدت بالحس ، والجزء الثانى ، الصحة وأنواعها ولواحقها ، والثالث المرض بأنواعه وأعراضه ، والرابع العلامات الصحية والمرضية ، والخامس الآلات ، وهى الأنفية والأدوية ، والسادس الوجه في حفظ الصحة ، والسابع الحيلة في ازالة الأمراض .

عارض ابن رشد الطريق الصوفى في كثير من المجالات ، ويأخذ عليهم

أن طرقهم في النظر ، ليست طرقا نظريا أى مقدمات تؤدي الى نتائج ،
اذ أنهم يرون أن معرفه الله وغيره من الموجودات عبارة عن سىء يلقى في
النفس بعد تجردها من الماديات ، وهم يعرفون الله بالله لأن العقل عاجز
لا يدل الا على عاجز مثله • وبذلك لا يلتقى الطريق الصوفي بالطريق
المعقل ، لأن لتجربه الصوفيه ليست راجعه الى احس أو العقل ، وانما
هى نور يقذف به الله في قلب من احبه ، لذلك يعارض ابن رشد الطريق
الصوفي الذى لا يتفق مع العقل ، وتبطل النظر ، والقرآن الكريم دعا الى
النظر والاعتبار (قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) سورة
الأنعام ٥٠ رقم ٦ — (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) ١٠١
يونس ١٠ — (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المجرمين)
٢٧/٦٩ النمل — (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) ٢٩/٣٠
العنكبوت •

وبذلك لا يمكن إقامة البرهان على أى قول من اقوال الصوفية ،
لأنها تبر عن نزعات شخصية وجدانية لا تستقيم مع قضاي العقل^(١) •

وهكذا يوضح لنا ابن رشد ان للطريق الصوفي يتناقى مع الطريق
المعقل ، والطريق الصوفي غردى ذاتي ، ولذلك فان آراءهم تفتقد الدليل
المنع والبرهان الأكيد ، لأن أفكارهم — كما أوضحنا — تتناقى مع العقل ،
فلا بد من قواعد وأسس للمعرفة العقلية ، ويرفض ابن رشد ما رده
اصوفيه بان المعرفة تتصل الى الصوفي بطريق الالهام لا بطريق العقل ،
ولا يمكن تفسير المعرفة بالمعائب والفوارق •

من أهم الانجازات التي حققها ابن رشد تعمقه في دراسة أرسطو
فحصل على كل ما استطاع الحصول عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف
وانكب على نرحها وتلخيصها ، وفضل ابن رشد ، أرسطو على جميع
الفلاسفة الذين سبقوه والذين أتوا بعده ، ولكنه على الرغم من ذلك

(١) عطف العراقي : المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد ، ص ٢٦١ •

يناقض آراء أرسطو ويؤيد بعضها ، ويرفض بعضها الآخر وكان يريد أن يقدم للعالم الاسلامي فلسفه أرسطو خاليه مما تسببها من أخطاء السراح والمفسرين وتأويلاتهم ، وهذا عكس ما فعله لابن سينا اد كان يعرض آراءه لينقدها أو ينال منها .

وقد اختلف ابن رشد مع الغزالي ، لأن الغزالي اتهم الفلاسفه بالكفر ، وذلك بسبب تصوفه ونزعته الحينية المتطرفة ، وأرجع الغزالي فكر الفلاسفه الى تأثرهم بالفلسفه اليونانية ، وقال الفلاسفه خطأ يقدم العالم ، ويأن الله لا يحيط علما بالجزئيات .

ونقد ابن رشد علماء الكلام لأنهم أهل جدل لا برهان لهم فهم قد آمنوا بآراء معينة بناء على اعتقادات سابقة ، وهو يرفض كذلك التصوف ، لأنه خاص بجماعة دون أخرى وعلى حين أنه يريد الأسس الشاملة والمبادئ العامة الواضحة التي يسير على هديها العقل في إصداره الأحكام على الأشياء ، والنظر في الموجودات .

وابن رشد اذا كان قد اطلع على كثير من آراء الفلاسفه كالفارابي وابن طفيل وغيرهما ، فانه كان أكثر منهم التزاما بالاتجاه العقلي وميضاخص الفكر الفلسفي ، واستفاد من الفلاسفه السابقين عليه وكشف عما وضعوا فيه من أخطاء ، اذ هو يأخذ بمذهب أرسطو ، وهذا هو سبب خلافه مع الفلاسفه السابقين عليه^(١) .

ودرس الفلاسفه بلغاضة آراء ابن رشد ، وقوملوا الى أن نظريته في المعرفة ، ترتفع من المحسوسات الى المقولات ، ومذهب في العقل والوجود ، يقوم على الارتباط الضروري بين السبب المسبب ، ورد كل شيء الى أسباب تدرك بالعقل وآراؤه عن العقل والانسان تقوم على أساس التسليم بنواميس الكون ، والاعتراف بالخصائص الضرورية لكل شيء^(٢) .

(١) عطف العراقي : النزعة العقلية في فلسفه ابن رشد ، ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

وهو يفضل في الدين الأدلة البرهانية على غيرها من الأدلة الخطابية والجدلية ، والحلاصة أن مذهبه يتخذ من العقل هادياً ويرى على مبادئ المنطق .

ولابن رشد مؤلفات كثيرة ، وسروح متعددة في موضوعات الفلسفة وعلم الكلام والمحو والطب والفقه ، وفقد الكثير من مؤلفاته ومن أهم مؤلفاته « فصل المخل فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وكتب (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) وكتاب « صحيفة مسائله العلم القديم » وكتاب « تهافت التهافت » الذي رد فيه على الغزالي ، وكتاب « الكليات في الطب » .

من شروحه وتلخيصاته « تلخيص كتاب النفس » و « تلخيص كتاب الحس والمحسوس » — « تلخيص كتاب الخطابية » — « وتفسير ما بعد الطبيعة » — « تلخيص ما بعد الطبيعة » — « تلخيص كتاب الشجر — « شرح أرجوزة ابن سينا في الطب » — « تلخيص كتاب البرهان » — « تلخيص كتاب القياس » .

ورساله عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، وتعريف ما وقع فيها بهسب التأويل من الشبه المزيفه والبدع المضلة وألف في الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وهو على مذهب مالك الى غير ذلك من الكتب الفلكية والطبية .

وابن رشد كفيصوف شارح لمؤلفات أرسطو ومعلق عليها . ويرجع الفضل الى هذا الفيلسوف القرطبي المسلم في أنه أتم أول محاولة للتوفيق بين الحكمة والشريعة .

ترك ابن رشد تلاميذه في الأندلس حملوا آراءه وأفكاره إلى الناس ، وصنفوا الكتب في فلسفة أستاذهم ، وكان تأثير مذهب ابن رشد قوياً في الفكر الأوربي ، فقد ترجم اليهود شروحه الى العبرية ولخصوصها ، وكانت هذه الترجمات والمختصرات هي العماد الأكبر الذي بنى عليه العلم العبري

ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي ، وظلت كتابات ابن رشد مصدر الهامهم .

محيى الدين بن عربي :

تتمثل أعلى صورة وصل إليها تطور مذهب الأفلاطونية الحديثة عند مسلمي الأندلس المتفرع من مدرسه ابن مسرة في شخص أبي بكر محمد بن علي بن عربي ت ٦٣٨ هـ ، وقد عرف بمحيى الدين وبالشيوخ الأكبر ، وابن افلاطون قضى سنوات طفولته وصباه ، ودرس علوم الحديث والفقه والتفسير والأدب واللغة ، ثم زهد الحياة بعد تفكير فلسفي عميق ، وانصرف الى دراسة كتب التصوف وممارسة حياة التصوف مع شيوخ كثيرين ، وعندما استكمل عدته ، خرج يجول في الأرض ، وقضى بقية حياته متجولا في بلاد المسلمين والنصارى ، بتعلم ويعلم ويجادل ، ولقى بعض الصوفية في المغرب ، وهو الذي بدأ ثورة المريدين في غرب الأندلس على المرابطين ، وبعد أن قام بسياحات متعددة في بلاد المغرب والأندلس ، استقر في فاس سنة ٥٩١ هـ ، حيث انصرف الى الرياسة الروحية ، وغادر المغرب الى المشرق لسوء علاقته بالموحدين ، ووضع قبل رحيله كتاب « مواقع النجوم » أوضح فيه الطريق الذي يجب أن يتبعه المريدون ، وتوجه الى مصر ومنها الى مكة المكرمة سنة ٦٥٩ هـ ، وحدث الناس حول ما سيحل بهم ، وتعلق بفتاه من أهل مكة ، وضع فيها مجموعة من شعر العشق ، وكتب كتابه « الدرة الفاخرة » ويتضمن سير الصوفية من شيوخه وزملائه من أهل المغرب .

ورحل الى الموصل سنة ٦٠١ هـ ، ثم القاهرة ٦٠٣ هـ ، وظهرت له كرامات ، ولكن الفقهاء هاجموا قواه بوحدة الوجود ، ثم رحل الى قونيه بدولة سلاجقة الروم وتعلم عليه كثيرون ، ووضع كتابين « مشاهد الاسرار » و « رسالة الأتوار » ثم ساح ينواحي الأناضول ، وعاد الى بغداد سنة ٦٠٨ هـ ، واجتمع به المريدون ، وتعلموا عليه ، وعاد الى مكة حيث كتب « ذخائر الإعلاق » ترحا على حيوانه « ترجمانُ الأشواق » وقد ابرز في هذه الكتب العشق الروحي الذي يقصده من

كتابه وهو بعيد كل البعد عن المنطق الجسدى . وعاد الى دولة سلاجقة الروم ، ثم توجه الى حلب ، حيث لقيه السلطان الظاهر غازى صاحب حلب ، واشتد به المرض ، فكتب كتاب « الحكمة الالهامية » وهو رد على الفلاسفة على طريقة الغزالى واستقر فى دمشق حتى وفاته ٥٦٢ هـ .

كتب ابن عربى أربع مئة كتاب ورسالة ، وأعظم كتب ابن عربى « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المكية والملكية » وجمع فيه كل ما أورده فى كتبه الأخرى .

والفكرة الرئيسية التى يقوم عليها تفكير ابن عربى هى الزهد والقول بوحدة الوجود والشك المصوفى ومذهب الصوفية فى النفس ، وجمع بين هذه الآراء المتباينة ، ونسقاها ، ويرى ابن عربى أن لا دواء ينقضى من الحيرة التى وقع فيها الانسان من أفكار الفلاسفة ، لا الزهد والتصوف ، وذاعت آراء ابن عربى فى البلاد الاسلامية وغير الاسلامية .

ينسب ابن عربى الى قبيلة حاتم الطائى ، وهو أبو بكر محمد بن على ويلقب محبى الدين والشيخ الأكبر وابن أملاطون ، ونشأ فى مرسية بالأندلس فى عصر الموحدين ، ونشأ من أسرة متدينة يغلّب عليها الزهد والتصوف ، وأقبل فى طفولته الى اشبيلية مع أهله وهناك درس التاريخ والأدب والقراءات والشعر ، وتولى وظيفة فى بعض دولتين اشبيلية وهو فى شبابه الخضر ، ولما توفى والده تأثر لذلك كثيرا حتى تحول الى الله بكليته نهائيا ، ويشير ابن عربى فى بعض كتبه الى الكرامات التى صحبت وفاة والده ، ودخل الحياة الصوفية ، وصار صوفيا ، بعد أن تجاوز العشرين فى حوالى سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م . وفى سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠م ارتحل صوفى شهير الى اشبيلية ، واتصل بابن عربى للاستفادة منه ، وعكف ابن عربى بعد أن تحول الى طريق التصوف على قراءة كتب الصوفية وعلى الاجتماع بشيوخ الطريقة ، وتلقى الكثير من الآراء والامكار عن المتصوفين الذين اتصل بهم وتعلم منهم الاتصال بأرواح الموتى ، وكان ابن عربى يتصل بالشيوخ والعلماء ، وقد أشادوا بعلمه

وورعه وزهده ، وتلقى ابن عربى عن شيخين متخصصين فى عمليّة محاسبة
الضمير يوميا ولكن طريقتهم كانت مقصورة على المحاسبة على الأعمال
والأقوال ، فأضاف إليها ابن عربى المحاسبة على الخواطر أيضا ، وعمل
على تكوين روحه منذ سنوات بشبابه بالزهد فى الشهوات •

وبعد فترة من الزمن أمر ابن عربى العزلة ، وترك التسامح
وخلا إلى المقابر ، يقضى عندها النهار بطوله على اتصال مباشر بأرواح
الموتى ، كان يجلس على الأرض باكيا ، متأملا فى فسحة الله وفوته ،
متأملا فى قضية الحياة والموت ، وبذلك اشتد إيمانه بالظواهر الخارجة فى
الحياة الصوفية ، وشاهد بنفسه كرامة قدمها صوفى ، وهى عدم الاحتراق
بالب نار • وكان ابن عربى يرى فى المنام ما يتحقق فى اليوم التالى ، الأمر
الذى أثار دهشة أهل اشبيلية ، واعتقادهم فى ولايته •

وأثم ابن عربى تكوينه الصوفى تحت اشراف جميع الشيوخ الذين
اتصل بهم ، وكان يقضى أياما كثيرة فى مسجد الزبيدي يصحبه أبى يحيى
الصنهاجى الضرير — صاحب الكرامات الذى علمه أن يصبر على اضطهاد
العامة ، مخفيا الولاية ، وتعلم الفوائد فى حياة التجوال بالنسبة إلى
الصوفى ، واتصل بالصوفية رجالا ونساء وقد صحب الصوفية فاطمة
سنتين متتاليتين ، مريدا وخادما ، وعاش معها عيشة ظاهرة فى كوخ من
القصب ، بناء هو نفسه فى لشبيلية ، ليعود حياة العزلة ، ويشاهد عن
قرب الظواهر المعجبية ، التى كانت تصدر عن فاطمة ، وحضور الجن
حينما تدعوهم •

وبعد أن تعمق ابن عربى فى حراسة التصوف ، جال فى الأرض ،
وكانت حياته سياحة مستمرة ، طاف بلاد المشرق والمغرب ، متعلما ومعلما
ومناقشا ، وبدأ جولاته فى قرى الأندلس ومن البلاد التى زارها ،
مدينة الزهراء — قرب قرطبة — وهى التى شيدها عبدالرحمن الناصر ،
أوحى إليه أطلالها بتأملات حزينة تبكى من شيدها وينها وأقام صرحاها ،
ذكر فى ذلك أبياتا :

ينفوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحينئذ يرجع
فخاطبت منها طائرا متضردا
له شجن في القلب وهو مروع
فقلت : على ماذا تنوح وتشتكى
فقال : على دهر مضى ليس يرجع

ورأى في منامه أسماء الصوفية في عالم الاسلام ، واشتعر أمره
بصفته صوفيا في بلاد الأندلس ، ولجأ إليه التسيوخ ، يسأله الرأي
في المسائل الصوفية .

ويبدو أن روح ابن عربي القلق لم تقتنه بحدود بلاده الضيقة
فارتحل منها الى افريقية قبل سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٣ م ، وكان هدفه
الرئيسي أن يلتقى بالشيخ الاشبيلي ابن مدين ، الذي أقام مدرسه
صوفية في مدينة بجاية منذ عدة سنوات ، ويشير اليه ابن عربي بوصفه
شيخه ، وأورد في كتبه كراماته ورواه ومناقبه ومذاهبه ، ولم يقم ابن
عربي كثيرا في بجاية ، ورحل الى تونس سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٣ م ، وهناك
أكرمه حاكمها ، وأنزله منزلا جليلا من الاكرام والتبجيل والاعزاز ،
ويقول ابن عربي بأنه في أثناء اقامته بتونس تجلّى له الخضر من جديد
في ليلة قمرية كان ابن عربي يستريح فيها من دراساته ومجاهداته
الصوفية ، ومن بين أسباب زيارته لتونس حرصه على لقاء صوفي خبير
هو أبو محمد عبد العزيز ، ولم يلبث ابن عربي أن غادر تونس عازما على
المسير بهذا الشاطئ حتى يماغ اشبيلية لان الاضطرابات السياسية
في شمال افريقية جعلت من المصوبة عليه البقاء فيها ، وعاد الى الأندلس
ونزل في ميناء طريف ، ثم عاد الى شبيلى ، حيث وقعت له كرامة جديدة
أعجبت من كان شاهده ، وثبت ذلك اعتقاد الناس فيه ، فقد قيل بأن ابن
عربي قد ألف قصيدة في ذهنه لم ينسخها ، ولم يقرأها لاحد من الناس ،
ورغم ذلك فقد أنشدها نسخا لا يعرفه .

وفي سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م ، عاد ابن عربي الى بلاد المغرب ونزل في فاس ، واتصل بالمشايخ والاخوة في طريق الله الذين سيقرد عليهم كثيراً في السنوات التالية ، منهم صوفي أفاد ابن عربي في علوم السحر ، وتباً بعض الشيوخ هناك بانتصار الموحدين في هوقعة العقاب سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م الأمر الذي شجع ابن عربي على العودة الى الأندلس ، ونزل في شبييلة عند أحد أصعقائه ، وأقبل عليه الناس من كل مكان ، حيث ازدادت شهرته ، وأقبل الناس على قراءة كتبه ، والاستفادة منها ، وعاد شيخنا الى فاس سنة ٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م ، وعكف على الدراسات والمجاهدات هناك ، وكان يحضر دروس المشايخ في فاس . وكان يجلس في أحد بساتين فاس ، ويلتف حوله تلاميذه ، فيستمعون الى محاضراته في الصوفية ، واتخذ لنفسه آراء مستقلة ، وبحض آراء بعض المشايخ .

وقد نال ابن عربي شهرة كبيرة بين تلاميذه — لكن حكام الموحدين كانوا يغيظونه ، ويخشون على حكمهم من الصوفية ومن ثوراتهم ، وقد جرى حديث بين ابن عربي والسلطان يعقوب المنصور ، يدلل على ذلك . فقال السلطان لابن عربي : ذل من ليس له ظالم يعضده ، فقال له ابن عربي : وهل من ليس له عالم يرشده ، فقال : يا أخى : الرفق فقال ابن عربي : ما دام رأس المال محفوظا ، يعنى الدين ، فقال : صدقت ، وسكت عنه .

لذلك رأى ابن عربي مغادرة المغرب نهائياً حتى ينال في المشرق من العظوة والتقدير ما لم ينلها في المغرب ، وفي أثناء مغادرته للمغرب تجلّى له الخضر للمرة الثالثة ، وهو يسير في الهواء بحضور ناس آخرين .

وفي سنة ٥٩٧ هـ — ١٢٠٠ م ، توجه ابن عربي الى مراکش — عاصمة دولة الموحدين — بصحبة الصوقي أبو العباس السبتي ، وبينما ابن عربي في مراکش ، اذا برؤيا يراها ، تطلب من ابن عربي الرحيل الى فاس للقاء محمد الحصار ، ويرحل معه الى الشرق ، الذى أخبره هو أيضاً أنه رأى هذه الرؤيا ، وأرتحل الرجلان الى تلمسان ، وأقبل ابن

عزى إلى بداية سنة ٥٩٧ هـ ، وواصل ابن عربى رحلته ، فتوقف في تونس وفيها وصل إلى درجة من أعلى درجات السلوك ، وأقام ابن عربى في تونس تسعة أشهر الا قليلا ، ثم استأنف الرحلة إلى الشرق ، وفقد صاحبه محمد الحصار أثناء الرحلة ، ومر بمصر ولم يقيم طويلا بها ، واستأنف السير إلى غايته ، إلى مكة المكرمة وبلغها سنة ٥٩٨ هـ ، وذاع صيته في هذه المدينة المقدسة ولتفت حوله الصالحون والعلماء والزهاد . واستقرت حياته نسبيا سنة ٥٩٨ هـ ، ونشط نشاطا كبيرا في مجال التأليف والتصنيف . وفي سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ، صنف كتاب « مشكلة الأنوار فيما روى عن النبي من الأخبار » وفيه جمع أربعين حديثا بأسانيدها المتصلة حتى الله (أحاديث قدسية) وفي اللطائف ألف كتاب « حيلة الأبدال » وكان الطواف في البيت العتيق بحياته ينشئ في روحه رؤى وتجليات كثيرة فظهر له بعض الصوفية الذين ماتوا منذ قرون أثناء طوافه وتحدث معهم ، وتنبأ بوقوع كثرة في اليمن ، وفيما حدثت وميت عليها ربيع عاتية ، قلأس منها اليمنيون الكثير وحدثت كوارث وأوبئة في بلاد الحجاز أيضا ، الا أن هذه المصائب لم ترزع أيمانهم ، وصنف في أثناء ذلك كتاب « للجرة الفارقة » ووجهها إلى صديقه في تونس وفيها تراجم لشيخه في التصوف في المغرب ، والذين أفاد منهم في حياته الروحانية .

وفي سنة ٦٠٠ هـ / بشرع في الترحال والتجوال ، وفي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م يمر ببغداد ، ويقيم بها عدة أيام ، وغادرها إلى الموصل ، لزيارة أحد شيوخ الصوفية ، وكان لهذا الضوق كما يقول ابن عربى — بستان خارج الموصل فوق هذا البستان ظفر ابن عربى بشرف تلقى فرقة الخضر لثالث مرة من يدى ابن جامع الذى تلقاها مباشرة من الخضر ومن هذا التاريخ أصبح ابن عربى يمتد في الأهمية الكبرى لهذا الرسم من مراسم الصوفية ، وأوصى بذلك المريدين ، كدواء ناجع لعلاج الأزمات الأخلاقية .

وفي سنة ٦٥٣ هـ - ١٢٥٦ م ، ارتحل ابن عربي إلى مصر ، وكانت جمساعة من الصوفية من أصحاب ابن عربي ومريديه قد أقاموا في بيت بزقاق التناديل بالقاهرة ، فأنضم إليهم ابن عربي وقضى معهم الليالي في العبادات والمجاهدات وأيمان الكرامات العجيبة ، وكانوا يقضون أوقاتا في الظلام ، فيعتقدون بانبعث أنوار منهم تبديد نور الظلام ، وفجأة تجلى لابن عربي شخص رائع الجمال ، ألقى إليه بكلمات في غاية الحسن يوحى فيها من الله بأمر تتلمذ بالاتحاد الصوفي ، منهاها يدل على وحدة الوجود •

ولم يرض شيوخ السنة عن آراء ابن عربي ، فاتهموه بالكفر والالحاد ، وطالبوا بقتله ، واضطهد ابن عربي عقب ذلك وتجادل شيوخ الفقه حول آرائه وحقيقة إيمانه ، ولقد دخل ابن عربي من قبل مع فقهاء الشرق والغرب في مجادلات حول آرائه وأفكاره ، ومن حسن حظ ابن عربي أن الملك المعادل الأيوبي لم يستمع إلى نداءات الفقهاء بسجنه والتخلص منه •

ولم يؤثر هذا الاضطهاد على المذهب الصوفي لابن عربي ، بل زادت حماسه ، ولم يلبث أن غادر القاهرة إلى الاسكندرية ، ومنها ذهب إلى مكة ، وظل بها حتى سنة ٦٥٤ هـ - ١٢٥٧ م ، لكن السماء — كما يقول — نادته وأمرته بالسياحة إلى قونية ، وكانت عاصمة دولة سلاجقة الروم ، واتصل بالسلطان كيكاوس الأول سنة ٦٥٧ هـ - ١٢٦٠ م ، وأنزله السلطان السلجوقي في دار نليق به ، وأقام فيها بعض الوقت ، وأهداه ابن عربي صدقة إلى أحد الصائئين ، وفي هذه الفترة الهادئة من حياة ابن عربي ، استأنف التأليف والتصنيف ، فكتب كتابين هما : « مشاهد الأسرار » و « رسالة الأنوار فيها بمنح صاحب الخلوة من الأسرار » ، وفي أوقات فراغه كان يجتمع بالصوفية الذين يريدون الانتفاع بتعاليمه والاقتداء به ، وكان له تلاميذ يشهدون له بالولاية ،

ويقولون بأن ابن عربي كانت تظهر له تجليات سماوية للأرواح النبوية ، على هيئة جسمية ، أو تتحد بروح ابن عربي في مشاهد وجدانية خارقة ، وشاهد الناس كراماته فأمنوا به واعتقدوا فيه .

استأنف ابن عربي رحلته في آسيا الصغرى وأرمينية وفي خلال رحلاته اتصل بالصوفية ، وفي سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م عاد الى بغداد للاتصال بالصوفي الشهير شهاب الدين عمر السهروردي وكان صاحب مدرسة في الوعظ والمجاهدات الصوفية ، وشيخ مشايخ الصوفية ، وذاع صيت ابن عربي في بغداد حتى التف حوله الصوفية ، وكان يمشى في شوارع بغداد محاطا بتلاميذه ومريديه حتى علت مكانته على مكانة الخليفة الناصر .

وعاد ابن عربي الى مكة في سنة ٦١١ هـ - ١٢١٤ م ، وعكف على العبادة المعتادة في الكعبة ، وكتب شرحه على « ترجمان الأنساق » وقد رد في هذا الكتاب على مزاعم الفقهاء الذين هاجموا بعض أشعاره لما فيها من لهجة حسية شهوانية تشيع في قصائده دون أن يدركوا معانيها الصوفية . وعاد الى آسيا الصغرى وتنبأ بانتصار كيكلوس في إنطاكية في قصيدة كتبها للسلطان جاء فيها :

قصحت بلاد الكفر نبغى فتوحها
فابشر ، فإن الروم فيك لفسى خسر
رأيت لكم رؤيا تحل على النصر
وفتح بلاد الكفر والقتل والأسر
إذا جباء نصر الله والفتح فلتجد
بصالك من خير على العسر واليسر

وقد لقي ابن عربي الحفاوة والتكريم من سلاطين وملوك عصره مثل الملك الظاهر - صاحب حلب - ووضع كل ثقته في ابن عربي ، وأفرد لابن عربي بيتا خاصا ، وكان أهل حلب يوسطونه لدى الملك في قضاء حوائجهم ، والملك لا يرد له طابا وزاد نفوذه على نفوذ كبار رجال الدولة

والفقهاء ، ودارت بينه وبين الفقهاء مجادلات كثيرة حول التصوف .

وكان ابن عربي يحصل من أسد الدين شيركوه - سلطان حمص - سنة ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م كل يوم على مائة درهم ، فكان يتصدق بها .

كتب ابن عربي أكثر من أربعمئة كتاب ، ولم تكن هذه الكتب تنمى مع العقل والمنطق ، لأنه لم يستطع التخلص من تأثير الوحي الإلهي الذي كان يعلى عليه ما يجب أن يكتبه أو لا يكتبه .

واشتد به المرض نتيجة كثرة أسفاره ، وإقامته في بعض الاوقات في بلاد شديدة البرودة ، ومجاهداته الروحية ، وفي مرضه صنف كتاب « الحكمة الإلهية » وهذا الكتاب على نمط كتاب « تهاوت الفلاسفة » للغزالي . وقد مرض في أثناء تأليفه لهذا الكتاب ، ولم يسمح له مرضه بالتفكير أثناء وضع الكتاب في المسائل الطبيعية ، فإلهه الله حلها دون تفكير ولا تأمل ولا نظر ، وفي سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٣ م استقر ابن عربي في دمشق وكان في الستين من عمره ، ولم يخادرها حتى وفاته . وبأنه الملك المعظم ابن الملك الكامل في أكرامه ، وكانت صلته بابن عربي صلة المريد بالشيخ ، وقد تعددت تجلياته في السنوات الأخيرة من حياته ، وانقطع فترة في صبراء خارج دمشق . ويقول ابن عربي : بأن اللبي ظهر له سنة ٦٢٧ هـ ، وسلمه كتابا سماه « فصوص الحكم » وأمره بإذاعته ونشره بين الناس لما فيه من كمال صوفي ويعرض في هذا الكتاب أغرب نظرياته في وحدة الوجود على هيئة الهامات يعزوها إلى التوالت إلى تطعيم السبعة وعشرين نبيا للرئيسين بين الأنبياء الذين يعتز بهم الإسلام ابتداء من آدم و انتهاء بمحمد ، وأقبل طلاب ابن عربي على دراسة هذا الكتاب والتعليق عليه .

ويعتقد أنه ألف كتاب « الديوان » بعد سنة ٦٣١ هـ - ١١٣٢ م وتبجلى في قصائده في الديوان لهجته عن الوجد للصوفي . ويعتقد أن

(١١) انظر الرسالة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الرحمن بنوى من

ابن عربي .

ابن عربى أتم فى تلك الفترة كتابه الاكبر « الفتوحات المكية » وقد استغرق تأليفه بضع سنين ، وهذا الكتاب خلاصه شاملة لكل مؤلفاته بما فى ذلك تضافده الشعرية ، وقد وضع هذا الكتاب بعد أن زار القدس والمدينة ، وزار مكة لأول مرة ، وفتح الله عليه عند طوافه بيئته الحرام ، ومن هنا جاءت تسمية الكتاب « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والمكية » ويذكر فى مقدمه كتابه أن الرسول ظهر له فى المنام ، ولقنه خطبة طويلة من وحى الروح القدس •

وقد شرح الصوفية هذا الكتاب ، ونال شهرة واسعة بينهم ، واعتقدوا بما فيها من آراء وأفكار صوفية ، ولم يكتب ابن عربى فى التفسير كتاب « التفسير الكبير » ولم يتمكن من إتمامه ، ثم كتابه المعروف « تفسير الشيخ الاكبر » وهو تفسير رمزى صوفى للقرآن وأطلق فيه العنان لتأويل الرمزى المستور ، وله رسائل لأهل الطريق ، وتوضح لهم الأسلوب الواجب اتباعه •

وعاش ابن عربى فى هدوء شديد فى دمشق فى أيامه الأخيرة مع أسرته ، وكان موضع تقدير الناس حكما ومحكومين ، وكان الملك الأشرف ابن الملك العادل يحضر دروسه ، وتلقى الاجازة منه برواية كتبه ، وكان قاضى الشافعية يخدمه خدمة العبيد تقديرا ولجلالا له ، وقام القاضى ابن زكى بترتيب معاشه فى دمشق ، ثلاثين درهما كل يوم ، وأنزله فى منزله •

وعاش ابن عربى فى شيخوخته يصنف مصنفاته حتى وفاته سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م وقد اقترب من الثمانين ، ودفن قرب دمشق فى قرية الصالحية على سفح جبل قاسيون ، يعتقد الناس ، أن الأنبياء زاروه خصوصا الخضر •

وقد ظلت شهرته بعد وفاته قائمة ، ونسب اليه الصوفية واتباع الكرامات والأساطير ، وأمر السلطان سليم الثانى سنة ١٥٧٩ م ببناء مسجد باسمه ، ومدرسة كبيرة على ضريحه ورتب الأوقاف عليها •

ولا تزال كتب ابن عربي حتى يومنا هذا في المكتبات العربية ،
ويقبل على قراءتها ودراستها الصوفية والدارسون ، وانطرق
الصوفية في انشراح الاسلامى تستلهم القواعد المملية والنظرية في
تصوف ابن عربى •

ومن أهم آراء ابن عربى ، وهذه الوجود : ويفسرهما الدكتور
بلاقيوس ^(١) بقوله : اذا كان العالم يصدر عن الله ، والمخلوقات هى
علامات وآثار وتجليات له ، واذا كان الجوهر أو الحقيقة المحدية
للكون واحدة ، هى الحقيقة الالهية ، واذا كان لا يوجد خارجها غير
ظواهر هى بمثابة أعراض لها ، فمن الواضح أن ادراك هذه الوحدة
فى الوجود ينبغى أن يكون المطلب الأسمى للتصوف : فالنفس ، بعودة
مثالية ترجع الى الاعتماد بالله الذى صدرت عنه • ويقول ابن عربى فى
نظريته بأن الحلول (وحدة الوجود) ليس سبيلها بوصول الجسم
بالجسم ، أو العرض بالعرض أو العلم بالمعلوم ، أو الفعل بالمفعول ،
بل الاتصاد أو الوصول متخيلا أكثر منه حقيقا ، ويفضاهد المصوف
محبوبه بالقرب منه على نحو كأنه يشاهده بعينه ، ويسمر بلذة
الوصول بتجربة أنطف وأعذب من الوصال الجسمانى ، لأن الله روح
محض فلا يمكن للإنسان أن يتصل به الا عن طريق التخييل •

(١) ابن عربى حياته ومذهبه ص ٢٥٢

الفضل الساب

مملكة غرناطة ونهاية الأندلس

مملكة غرناطة

أو دولة بنى الأحمر

كانت مملكة غرناطة للبقية الباقية من ملك العرب في أسبانيا ، بعد أن فقد العرب أملاكهم في أسبانيا ، ودالت دولتهم ، واستولى الأسبان على بلدانهم ، اليلدة تاو الأخرى ، وفيما بين ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ) و ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) فتح غرديناند ملك قشتالة وجايم الأول — ملك أرغون — مدن يونسية وقرطبة واشبيلية ومرسية ، ولم يبق للعرب سوى غرناطة ، وقدر للعرب أن يستمروا في غرناطة قرنين ونصف قرن •

وكان للعرب في غرناطة جيش قوى ، واجتمع بهذه البقعة الحصينة المسلمون الذين فروا من المدن الأخرى التي استولى عليها النصارى ، وتجمعوا في غرناطة ، وتحصنوا بهذه البلاد التي يحيط بها اندو من كل جانب ، وكانت غرناطة تؤدي اتاوة سنوية لملك قشتالة حتى تؤجل مصرها المحتوم قدر استطاعتها •

أسس دولة بنى نصر في غرناطة ابن الأحمر — وهو عربى الأصل لشقرة فيه ، سمى بهذا الاسم ، وكان قوى الشكيمة شجاعا ، غير أنه لم يستطع مقاومة فرديناند ، هذان له بالولاء وأدى له جزية سنوية ، واتبع هذه للسياسة مع أبنسة الفونسو ومضت فترة من الوقت ، ترك فيها النصارى هذه المملكة الإسلامية وشأنها ، وانصرفوا الى توطيد ملكهم ، وإبعاد الخلاف عن بلادهم •

ازدهرت العلوم والفنون في غرناطة في فترة الهدوء هذه وذاعت شهرة مهندسيها وبنائيتها في انحاء أوربا ، وهم الذين ساعدوا الحمراء (نسبة الى لون التربة التي أنشئت عليها) وأنشئ قصر الحمراء فوق أرض مرتفعة تحيط به قمم جبال عالية صعبة المنحدر ، وحصن القصر

بأسوار غطيت بالمرمر ، وشيدت عند كل مسافه حصون تشرف عليه .
وزينوا حيطانها بالزخرف الذهبى البهيج ، وزينوها بالأشكال المصنوعة
ذات الهندسة العربية لفائقة ، وتحيط بها البساتين والحدائق والجداول
مما يبعث فى انفس البهجة والمتعة ، وفى حدائقها أشجار الكروم والبرتقال .

وكان من العجيب أن يعينى العرب فى غرناطة قرنين من الزمان أو
أكثر ، والحدو يحيط بهم من كل جانب ، ولكنهم شعروا بقرب زوال دولتهم
فى الربع الثالث من القرن الخامس عشر وازدادت قوة النصارى الاسبان
الاتحاد بين مملكتى قشتاله وأرغون بتزويج فرديناند من ايزابيلا وكان هذا
الاتحاد نذير الخطر على بقاء المسلمين فى آخر معاقلهم بالاندلس ، وكان
يلقى حكم غرناطة فى هذا الحين مولاى على أبو الحسن بن بونان شديد
البأس ، قوى الشكيمة ، وعقد العزم على محاربتهم معا كانت التضحيات ،
ولم يأت بهما بلقاء من قوة ، ورفض دفع الأتاوة ، لفرديناند ، وهى التى
اعتاد أسلافه أداءها ، ورد فى كبرياء على رسالة فرديناند : ان دار
الضرب لا تطيع نقودا ، ولكنها تطيع سيوفنا ، وهذا الرد اشارة الى
استعداده وتصميمه لحرب الاسبان . وشن غارة على المسيحيين فى قلعة
الصخرة فى ليلة شديدة البرودة وقد فرغ أهلها من هول الغارة ، وساقهم
جميعا الى غرناطة كما يساق العبيد ، وأبقى بالمدينة والقلعة حراسا أشداء ،
ودخل غرناطة مزحوا بنصره ومحملا بالأسلاب واللغنائم ، ودخل الأسرى
من الرجال والنساء والأطفال المدينة كما يدخلها قطعيع البقر . ولكن هذا
الأمير بعماء هذا عجل بمصير بلاده المؤلم ، فكان لا بد للنصارى من
الانتقام ، وفعلوا استولى مركز قادس على حصن الحمه غنوة ، وبسبب هذا
الاستيلاء تمكن النصارى من وضع حامية قوية فى قلب بلاد المسلمين ،
وعلى مسافة قصيرة من غرناطة نفسها ، وحاول أبو الحسن عبثا استرداد
هذا الحصن . وكان هذا الحصن نذير الخطر وبداية النهاية لغرناطة .
وقال بعض المعاصرين ان مفتاح غرناطة فى أيدي الكفار . ومنذ ذلك الحين
أصبح هذا الحصن شوكة فى جبين ملوك العرب .

وتبادل الفريقان العرب والاسبان شن الغارات والأعمال التخريبية

في أراضيهم ، ولم يكن من نتيجتها سوى الدمار وتوقف السباط
الاقتصادي . وفي النهاية أعد النصارى جيشا كبيرا بزعامة مركز قانس
لمهاجمة غرناطة ، ولكن الزغل قائد العرب مزق جيشه كل ممزق ، وفر
النصارى لا يلوون على دار وفي غضون ذلك اغتصب عبد الله ملك غرناطة
من أبيه ، وشن غارة فاشلة على النصارى ، وعادت غلول جيشه مهزومه
الى غرناطة ففرع أهلها ، ودب في نفوسهم اليأس ، وقبض على أبي عبد الله
في هذه الموقعة ، وسبق أسيرا الى قرطبة ، وعاد مولاي أبو الحسن الى
ملكه ، ولكن دب فيه الضعف بسبب شيخوخته .

مسقوط غرناطة :

كان أبو عبد الله مترددا شؤم الطالع ، وقد استغل النصارى ضعفه
فأحسن فرديناند استقبله ، ودارت مفاوضات بين الرجلين حول خلع
أبيه ، وفعلوا أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله ، وعاد الى غرناطة لانتزاع
الملك من أبيه ، وتيسر استيلاء النصارى على بلاده ، وتحصن أبو عبد الله
بحصن القصبه ، واتخذ قاعدة لشن الهجمات على أبيه ، وكان لهذا
الموقف السيء أثره في سقوط غرناطة ، الابن يحارب أباه لصالح العدو ،
وأصبح لغرناطة سلطانان ، أحدهما أبو عبد الله ، المنكود الحظ في ميدانى
السياسة والحروب ، والبيض الى العرب لأنه العوبة في أيدي أعدائهم ،
والثانى أبو الحسن ، أو هو على الأصح أخوه الزغل ، لأن السلطان قضى
بقية أيامه في حزن بسبب موقف ابنه الانهزامى . وفقد بصره ثم مات .

وكان الزغل — آخر ملوك غرناطة الأقوياء — وقضى فترة من حكمه
يحارب ابن أخيه أبا عبد الله ، وهكذا انقسم البيت الحاكم على نفسه
وكان الأمراء يحاربون بعضهم بعضا ، ويستعينون في خصوماتهم بالعدو ،
وقصرت فترة حكم السلاطين ، وكان أهل غرناطة يبقون على السلطان
الذى يحارب ، ويعود محملا بالأسلاب والخنائم ، أما السلطان الذى
ينهزم يعزلوه . وانتهاز النصارى فرصة ضعف غرناطة ، وضعف سلاطينها ،
وما زالوا يشنون عليها الغارات وتم استيلاء فرديناند ورجاله على القسم

الغربي من المملكة ، وتقصت أطراف غرناطة قليلا قليلا ، وسخط
الغرناطيون على الزغل لأنهم لم يتملوا كل هذه الهزائم ، ودعوا أبا عبد الله
مرة ثانية الى مدينتهم فلم يستطع التبات وحده أمام عمه الزغل ،
فاستعان عليه بالمسيحيين ودخل غرناطة ، وحكمها ، وحاول الزغل صد
المسيحيين عن مملكته ، وكان البارود قد استخدم في الحروب في ذلك العصر ،
وواصل النصارى شن الهجمات على قلاع مملكة الحمصينة ، اجتمع الفرسان
الاسبان حول مملكة وحضرت الملكة ايزابيلا بنفسها ، فآثار حضورها
حماس الفرسان والجنود •

وبعد حصار طويل ، قاس فيه أهل مملكة الجوع والبؤس والحرمان ،
حتى استسلمت مملكة ، وقد آذلم الاسبان ، وظالبوهم بأن يفقدى كل
واحد نفسه بغدية كبيرة ، والا وقع في الأسر ، وأهلوهم ثمانية أشهر ،
وأرسل الاسبان أهل مملكة الى اشبيلية لخدمة الاسبان فيها ، حتى
انقضت الثمانية أشهر ، ومن لم يستطع وقع في الأسر • وبذلك أصبح
القسم الغربي من غرناطة في قبضة النصارى •

بقى الزغل يسيطر على بعض الأراضي والحصون ويواصل في الوقت
نفسه للجهاد ضد الاسبان ، ويشن الغارات على بلادهم ، ولكن فرديناند
استولى بعد حصار طويل وخسائر فاحشة على حصونه ، وسقطت بلاد
الزغل في يد الأعداء ، وقبض عليه فرديناند ، فاقطعه أرضا ، ولكنه لم
يبق طويلا في هذه البلاد التي ذهب فيها مجده ، وولى ساطنانه قباج أرضه ،
واجتاز البحر الى افريقية ، وهناك قبض عليه سلطان فاس ، فعذبه أشد
عذاب ، وسمل عينيه ، وقضى بقية أيامه في بؤس وشقاء • ولم يبق من
هلك المسلمين سوى غرناطة نفسها ، واستراح أبو عبد الله من نهاية الزغل ،
ولكن فاته أن فرديناند يتخذة أداة ، وأنه سيلقى نفس المصير ، فلا بقاء
لخمسائين •

واستاء أهالى غرناطة من موقف أبى عبد الله ، ومن خيانتة لوطنه
وكان يسمع سبه بأذنه ، وكان سعيدا بزوال ملك عمه الزغل ، وبصدافته

لفرديناند • ولم يلبث أن تبين له أن فرديناند كان يستنله فقط للاستيلاء على ما تبقى من مملكة غرناطة ، فأرسل اليه يدعو الى التسليم بالسروط التي حددها ، وبعثا حاول أبو عبد الله أرجاء هذا الأمر ، لذلك أعلن أبو عبد الله الجهاد ، وشن غارات على أراضي النصارى ، وأحرز بعض الانتصارات ، ولكن كل هذه المحاولات كانت يائسة ، فلم يعد هناك مفر من الاستسلام ، وفعلما خرج فرديناند وايزابيلا سنة ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) للحرب الصليبية لاثى اعتادها كل علم ، وعزما ألا يعودا الا وغرناطة في قبضتيهما ، وكان جيش الملك يتكون من أربعين ألفا من المشاة وسره آلاف من الفرسان • ورأى أهل غرناطة أن الموت في ساحة القتال أفضل من الاستسلام للعدو الذي يريد أن يستولى على أراضيهم ويزيلهم ، وقام فرسان العرب بأروع ضروب الشجاعة والاقدام ، وأحرق الملك بساتين ومزارع العرب ، ولما لم يجد العرب فائدة من مقاومة العدو ، أغلقوا أبواب مدينتهم ، وقاوم أهل المدينة المحاصرين الجوع ثمانين يوما حتى أهلكهم ، ووتسلوا الى السلطان أبي عبد الله بطلب الصلح وفي ٢٥ نوفمبر ١٤٩١ ، وقعت شروط التسليم ، ويمقتضاه تسلم المدينة الملكين بعد وقت معين ، ودخل الملك المدينة بجيوشه والحرب في حزن على ما أصابهم ، ونصب علم قشتالة وأراغون فوق قمة برج المدينة ، وسلم أبو عبد الله المدينة الى فرديناند وولى منطلقا الى الجبال وعاد الى افريقية هو وقومه وقضى بها ما تبقى له من العمر ، واتبع سقوط غرناطة حملة اضطهاد العرب ، لذلك ثار العرب ، وحملوا السلاح ، واستصدر فرديناند مرسوما يخير العرب بين التصر أو مهاجرة البلاد ، وأعقب هذا غلق المساجد واحراق المخطوطات والكتب النفيسة التي هي عاصمة الفكر العربى عدة سنين ، وعذب المسلمون أشد العذاب • ويقول لين بول : اتنا نلمس فضل العرب وعظم آثارهم ، حينما نرى بأسبانيا الأراضي القاحلة التي كانت في أيام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار ، تزدهر بما فيها من للكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية ، وحينما نذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء ، وحينما نفكر بالركود العام بعد الرغمة والازدهار •

وتلك الأيام نداولها بين الناس •

بلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها في مملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري ، وفيه ظهرت طائفة من كبار المفكرين والكتّاب والشعراء ، الذين أنتجوا انتاجا علميا بارزا في مجال العلم والأدب وكان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت في ميدان الأدب والفكر والسياسة والشعر والأدب ، ونبغ في مجالات مختلفة في الطب والفلسفة والشعر ، والدبلوماسية •

ينسب ابن الخطيب الى قبيلة يمنية ، وغدت الى الأندلس مع الفتوح وولدا في مدينة لوشة بالأندلس سنة ٧١٣ هـ — ١٣١٣ م ، ونشأ في بيت علم وفضل وجاء ، ونشأ ابن الخطيب في غرناطة وتعلم بها ، وتلقى بها دروسه ، وكانت غرناطة أعظم مركز للدراسات الإسلامية في الغرب الإسلامي ، ويجتمع بها حشد هائل من العلماء والأدباء ودرس لسان الدين الخطيب اللغة والشريعة والأدب في غرناطة ، وكان أبوه يشتغل بعض المناصب الهامة في ديوان السلطان ، وبعد وفاته ، استدعى للخدمة مكان أبيه في ديوان الانشاء واستفاد من وظيفته ، وتعلم من الكتّابة ، ولم يلبث أن شغل منصب رئيس ديوان الانشاء بعد وفاة صاحبه سنة ٧٤٩ هـ — ١٣٤٩ م ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها ، وقد نال ثقة السلطان حتى جعله كاتم سره ولسانه ، في المكاتبات السلطانية وصدرت منه خلال تلك الفترة كتّابات رائعة ، ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف ، خلفه السلطان أبو عبد الله محمد الغني بالله واستمر الحجاب رضوان في رئاسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب في منصبه معاون له • ونال ابن الخطيب ثقة السلطان الغني بالله ، وأنعم عليه بلقب ذي الوزارتين ، لجمعه بين الكتّابة والوزارة ، ولكن ابن الخطيب لم يلبث أن تجذبت أحواله ، وتعرض لحنة ، ذلك أنه في سنة ٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م ، فقد الغني بالله ملكه في انقلاب دبره ضده أخوه الأمير اسماعيل ، وأرتاب السلطان الجديد في ولاء ابن الخطيب ، وقبض عليه بتمريض من خصومه ، وأمر بمصادرة أمواله وممتلكاته ، وبذلك فقد ابن الخطيب منصبه ونفوذه

وأمواله • على أن محنة ابن الخطيب لم تستمر طويلا • ولجأ ابن الخطيب في محنته إلى بلاد المغرب ، وعاش ابن الخطيب في كنف وفي رعاية سلطان المغرب أبي سالم ، والتقى بابن خلدون ، وكلنت تجمع بين الرجلين على الرغم من فارق السن مشابهات عديدة ، أدبية ومادية ، وكان ابن الخطيب في طور الشيخوخة ، وابن خلدون في طور انتعاج ، وكان كل منهما أستاذ عصره ورثدا في الفكر والكتابة ، وكان لكل منهما تأثير واضح في حوادث وسياسة العصر ، وكان كلاهما وزيرا مستبدا ومستشارا لأمرء عصره ، ومحرضا لهم أو عليهم ، وكان ابن خلدون يشغل في دول المغرب ما يشغله ابن الخطيب في الأندلس وجمعت بين الرجلين أولامر الصداقة في البداية ثم فرقتهما بينهما عوامل النيرة والتنافس ، وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويحبه ، وترجم كل منهما للأخر ، وتبادلا مائة من الرسائل الشفوية والسياسية ، تعتبر من أبداع الكتابات السياسية والأدبية في ذلك العصر • وأذن ملك المغرب لابن الخطيب في التجول في أقاليم دولته ، وأمر عماله بحسن استقباله ، وإكرام وفادته ، وقد وصف لنا ابن الخطيب هذه الرحلة في كتابه « تنافس الجراب في علالة الأغرار » وفقدت بعض أصول هذا الكتاب •

وتعتبر دولة بنى مرين من أعظم الدول المغربية لجلالا للطم وأهله • ومن أبرز مآثرهم حماية العلوم والآداب ، ولجلال العلماء والأدباء وحسن رعايتهم ، ومن أبرز علماء وشيوخ هذه الدولة ، ابن خلدون وابن الخطيب ، وهما أكبر مفكرى القرن الثامن الهجرى •

وكان ابن الخطيب في منفاه في المغرب يتمتع بصياة ناعمة مترفه وكان وقت إقامته في سلا يعيش عيشة الأمراء في قصوره ودياره التي شيدها ، وكان للسلطان يحدق عليه بصفة منتظمة وقد سعد ابن الخطيب باسترداد السلطان أبي عبد الله محمد ملكه ويمت إليه يهنئه بقصيدة جاء فيها :

المسقى يعلو والباطل تسفل
والله عين أمهك لا يمسفل

و إذا استتاحت حباله وتبدلت
فأله عجز وجبل لا يتبدل
واليسر بمعد العصر موعود به
والصبر بالفرج القريب موكل

وشعر ابن الخطيب بعد عودة مليكه الى عرشه في غرناطة ، ضرورة
عودته الى بلاد الأندلس ، خصوصا وبلاد المغرب قد سادتها الفتن
والاضطرابات . وشجعه على ذلك أن السلطان محمد الغنى بالله كتب الى
وزيره المنفى ابن الخطيب رسالة يطلب منه العودة الى غرناطة . ونفذ
ابن الخطيب أمر سيده ، وعاد الى غرناطة سنة ٧٦٣ هـ ، وأكرم الملك
ومادته ، ونظم له استقبالا رائعا ، ولقيه ذى الوزارتين ، ومعنى ذلك
اضطلاع بمنصبى القيادة والوزارة أبى الرئاسة العليا عموما ، ويندو في
مرتبة الحاجب . وبمقتضى ذلك أصبح ابن الخطيب ينوب عن السلطان
أثناء الغزو في حكم البلاد ، وأن يتولى قيادة الحملات العسكرية أحيانا .
وامتطاع ابن الخطيب التخلص من منامه عثمان بن أبى يحيى ، الذى
كان يلقب بشيخ الغزاه ، لأنه عاون السلطان في استرداد ملكة . وما زال
ابن الخطيب يوغر صدر السلطان على منافسه حتى نكل به وأسرته .

وفي غضون ذلك وفد على الأندلس ، ابن خلدون ، بعد تضاع نفوذه
في بلاط هاس ، فعاد المغرب الى الأندلس سنة ٧٦٤ هـ ، ولجا الى غرناطة ،
وكان ابن خلدون يقوم بخدمة السلطان الغنى بالله أثناء اقامته منفيا في
هاس ، لذلك كان ابن خلدون يتطلع الى نيل مكانة كبيرة في غرناطة من
السلطان الغنى بالله ، وقد أكرم السلطان ووزيره ابن الخطيب ومادة ابن
خلدون واختاره الغنى بالله ليكون سفيره لدى ملك قشتالة ، ليعتم معه
الصالح بين غرناطة وقشتالة ، ونجح ابن خلدون في مهمته وبالح السلطان
في أكرامه ، وعاش المؤرخ في غرناطة في أمن ورعاية مع أسرته . ولكنه
شعر بتغير السلطان وأبن الخطيب عليه . ويبدو أن ابن الخطيب قد
خس على نفوذه في الدولة من ابن خلدون ، لأنه يعرف قدره وبراعته

السياسية والعلمية ومكانته التي نالها في الدولة ، وتقدير السلطان الكبير له فأوغر ابن الخطيب صدر السلطان على مناقسه في السلطة ، ابن خلدون باعراض السلطان عنه ، وفي نفس الوقت تلقى دعوات من حكام المغرب بالمقدم ، فقرر العودة الى المغرب ، وأذن له السلطان ، وغمره بصلاته ، وودعه وشيعه معززا مكرما ، وعاد ابن خلدون الى بجاية •

أما ابن الخطيب فقد ضاق ذرعا بالحياة السياسية والعمل السياسي لذلك تطلع الى العودة الى حياة العزلة في سلا ببلاد المغرب •

وكان ابن الخطيب — على حسب قوله — هدفا لحملات خصومه ، ولم يكن يتمتع بحب الكبر من الناس ، لذلك سئم الحياة السلطانية والمستوليات السياسية ، ومظاهر الترف والنعيم ، ورغب في ازهد والعزلة ، وطلب من السلطان أن يأذن له في الحج وكان يفكر في مغادرة الأندلس نهائيا • وكان استبداد ابن الخطيب بالنفوذ والسلطان في المملكة الأندلسية ، سببا في نفور الناس منه ، وسمى بعض رجال الدولة لدى السلطان بالنيل منه والتخلص منه وفعلنا نجحت مساعيهم ، وتغير للسلطان منه ، وساء وضع ابن الخطيب سنة ٨٧٧٢ هـ ، وقد مهد ابن الخطيب سر المغادرة الأندلس ، والذهاب الى المغرب ، فالتصّل بالسلطان المريتى عبد العزيز ، فأبدى هذا الأخير ترحيبا بمقدمه وكانت العلاقات بين مملكتي غرناطة وبنى مرين في فاس قد سادت •

تحين ابن الخطيب الفرصة ، واستأذن السلطان الغنى بالله بالرحيل الى المغرب لتتقد الثغور المغربية ، فأذن له وخرج من غرناطة مع واده على ، وكان من خاصة السلطان والمترين اليه ، وفي قلة من الفرسان ، وسار في صحبه نحو الجنوب ، فلما وصل الى جبل طارق — وكانت يومئذ من أملاك بنى مرين — دخاها وأبرز الى عالمها المريتى عهد السلطان عبد العزيز ، فأكرم وقادته ، ونقله الى سبته وهناك استقبل بجفاوة بالغة سنة ٨٧٧٢ هـ وأرسل من هناك يعتذر الى مليك الغنى بالله ، ويطلب منه اعفائه من مهام منصبه حتى يأخذ الى الراحة •

لم يابث ابن الخطيب أن غادر سبتة الى تلمسان ، فأكرم السلطان عبد العزيز وفادته ، واستقر ابن الخطيب في تلمسان ثم انتقل الى ماس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنق في بناء المساكن ، واغتراس الجنات ، وكان الملك الطفل محمد السعيد قد خلف أباه عبد العزيز في الملك ، وقد استاء رجال الدولة من هذا العهد الجديد . ووضع ابن الخطيب في ذلك كتابا سماه « أعمال الأعلام غين ببيع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » وفيه أثبت أن العالم الاسلامي قد شهد ملوكا صغارا مثل هذا الملك ، وأن ذلك لا يخالف الدين في شيء . ويبدأ كتابه بسرد تاريخ الدولة المرينية منذ السلطان عبد العزيز ، وهو آخر كتاب وضعه ابن الخطيب قبل مصرعه ، وفيه يروى كيفية مناورته الأندلس ، والتجائه الى السلطان عبد العزيز ، ويحاول أن يبرر لنفسه تصرفه ، ويثبت حسن نواياه .

وكان ابن الخطيب يسعى الى تحسين العلاقات بينه وبين أمراء المغرب ، واستقر أخيرا في ماس ، بعيدا عن أهل والوطن وكان يحتل في بلاط بني مرين مكانة لا تقل عن مكانته في الأندلس .

قضى ابن الخطيب شيخوخته في ماس وهدوء ، ولكن فرار ابن الخطيب من الأندلس ، لم يهدئ من ثورة خصومه ، بل استغلوا هذا الحدث للنيل منه ، ولو ثأروا سمعته في الأندلس والمغرب ، واتهموه بالزندقة والكفر بالاسلام حتى يتخلصوا منه بسهولة ويسر ، وأولوا بعض كتاباته بحيث تتماشى مع مزاعمهم واتهاماتهم ، وخصوصا ما جاء في كتابه « روضة التصريف بالحب الشريف » وقالوا أن بعض عبارات هذا الكتاب تتضمن طعنا في النبي ، والقول بالطول ، وسلوك مذاهب الفلاسفة المحدثين . ولم يقف خصوم ابن الخطيب عند هذا الحد من الاتهام بل تجاوزوه الى مؤلفات ابن الخطيب الأخرى ، فقد زعموا أن مؤلفات ابن الخطيب للتاريخية ، ولا سيما كتاب « الاحاطة في أخبار غرناطة » وما اشتملت عليه من تراجم الأعياء المعاصرين ، والأموات الأقربيين ، وما يتفلقها من الطعن والقذف ، في حق الكثير

منهم انما هي من قبيل الغيبة المحرمة ، وكان تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه المزاعم ، وتولى صياغة الاتهام عدو ابن الخطيب اللحدود ، القاضي أبو الحسن النباهي ، وأفتى بوجوب حرق كتبه ، التي تتناول العقائد والأخلاق ، وأحرقت هذه الكتب في غرناطة في منتصف سنة ٧٧٣ هـ في جمع من الفقهاء والعلماء ، ووجه القاضي أبو الحسن في نفس الوقت الى ابن الخطيب في المغرب ، رسالة شديدة يوجه اليه تهما شخصية وشرعية ، وفي رسالته يعدد عيوب ابن الخطيب ، وما يسند اليه من تهمة الاصلاد والزندقة . ويوجه اليه القاضي أبو الحسن في غرناطة بعد احراق كتبه تهمة الاصلاد والزندقة وصادق السلطان الغني باقية على حكمه ، وفرر بلاط غرناطة أن يبذل مساعيه لدى سلطان فاس لتفويض حكم الشرع في ابن الخطيب . فرفض السلطان المغربي هذه التهمة عن ابن الخطيب ومما زاد وضع ابن الخطيب سوءا ، أن ابن الخطيب حرض سلطان فاس المريني على غزو الأندلس ، لذلك زاد حق السلطان الغني بالله عليه .

وأصبح واضحا الآن مصير ابن الخطيب ، ولما انتهت الحال ، وانتظر كارثة قد تقع به ، وكان الغني بالله قد ساعد السلطان على الوصول الى ملك فاس مقابل تسليمه ابن الخطيب ولم تمش أيام قلائل على دخول السلطان الجديد فاس ، حتى حرضه وزيره سليمان ابن داود على اعتقال ابن الخطيب ، فقبض عليه ، وزجه في السجن ، وأرسل الى الغني بالله الضبر ، فبعث الغني بالله وزيره أبا عبيد بن زمرك - تلميذ ابن الخطيب - ليقوم في الظاهر بتهنئة السلطان الجديد ، وليعمل في الواقع على استلام ابن الخطيب واعادته الى الأندلس مقبوضا عليه لمحاكمته بها .

وعبثا حاول ابن الخطيب الاستغاثة بأصدقائه ، ولكن السلطان أحمد قرر محاكمته في فاس بالتهم التي وجهت اليه في غرناطة ، وأمهأ الاصلاد والزندقة ، وعقدت المحاكمة فعلا ، وزج في السجن ولكن

أنوزير ابن زمرك حرض بعض خدمه بقتل ابن الخطيب بالسجن ، وأحرقت
جثته وذلك في سنة ٧٧٦ هـ .

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره ، كان مساعرا فذا وأديبا
كبيرا ، ويكتب الشعر في موضوعات متنوعة تتناسب حيلاته المليئة
بالأحداث والمحن . ومن أبرز كتاباته في النثر المراسيم السلطانية ،
التي أصدرها أيام توليه الوزارة ومنها رسائل الى ملوك اسبانيا
النصارى وسلاطين المغرب وسلاطين مصر ، وجمع ابن الخطيب عددا
كبيرا من هذه الرسائل في كتابه « ريحانة الكتاب ونجمة المنتاب » منها
رسائل يصف فيها بعض الوفان الحربية ورسائل يحث سلاطين
المغرب ومصر على انضمام لمواجهه أعداء الاسلام ، وتعتبر رسائل
ابن الخطيب السلطانية من اروع نماذج النثر الدبلوماسي في الأندلس
والغرب الاسلامي بصفه عامة . في كتابه « الاحاطة » نثر بعض الرسائل
الخاصة التي أرسها الى أصحابه وزملائه ، وتتجلى فيها دقة العبارة
وروعة الأسلوب .

وابن الخطيب مؤرخ بالدرجة الأولى ، ومؤرخ عصره بنوع خاص،
وله مؤلفات عديدة تتصل بتاريخ عصره ، ولا سيما فيما يتعلق بدولة
بنى الأحمر ، ابدى خان ابن الخطيب من كبار رجالها . وتعتبر هذه
المؤلفات أهم مصادر هذه الفترة ويؤخذ عليه هجاؤه لأعدائه بأسلوب
متطرف ، ريبا خ في المدح والهجاء ، ولكنه بارع في تحليله للشخصيات
التاريخية والحكم عليها .

وتميز شعر ابن الخطيب بالتنوع في المدائح النبوية ومدح السلطان،
والزجل والتواشيح ، ويكتب ابن الخطيب الكثير من الكتب في الطب ، وكان
طبيبا وفيلسوفيا يكتب في النفس والمشاعر الانسانية ، والواقع أن ابن
الخطيب كان قطب الشعر والنثر في عصره ، ومصرر النشاط الأدبي
في عصره . ويعتبر أعظم كاتب كتب عن تاريخ وجغرافية غرناطة وأوصاف
حياتها الاجتماعية وترك تراثا فكريا كبيرا في النثر والشعر والتاريخ

والجغرافيا والرحلات والبلاغة والشريعة والطوم والأخلاق والدين
والنبات والطب والبيطرة والموسيقى والفن الحربى والسياسة ، ويظهر
في هذه المؤلفات العمق وأصالة التفكير والابتكار .

ويتميز منهج ابن الخطيب في الكتابة التاريخية بأنه لا يقتصر على
التاريخ السياسى ، إنما يكتب عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية
والثقافية والنظم وجغرافية الاقليم ، ويموت ابن الخطيب انحدرت الحركة
الفكرية في الأندلس . وقد بُعِثَ في مختلف الدراسات حتى أصبح أعظم
مؤرخ وأكبر كاتب وأفضل شاعر في عصره . ويمثل التاريخ أعظم وأجل
وأكثر مؤلفاته ومن أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية « الأحاطة وأخبار
غرناطة » وكتاب « النعمة البدرية في تاريخ الدولة النصرية » و « طرفة
العصر في تاريخ دولة بنى نصر » و « رزم الحد في نظم الدول » و
« أعمال الأعلام فيمن بويح قبل الاحتلال » ر « لتكنية الكرامة في أدباء
المائة الثامنة » و « ونفاضة الجواب في علالة الاغتراب » وكتاب « ربحانة
الكتاب » ويتضمن رسائل تاريخية ودبلوماسية .

ومعظم هذه الكتب تتضمن تاريخ العصر الذى عاشه وترجمه للأعلام
من الشعراء والكتاب وقادة الفكر المعاصرين أو القريبين من عصره ، ولكن
قلة من هذه الكتب مثل « الأحاطة » وأعمال الأعلام » تتضمن تاريخا
لصور سابقة .

ويتضمن بعض كتب ابن الخطيب معلومات جغرافية هامة ، مثل
حديثه في « الأحاطة » عن جغرافية غرناطة ، وله رسالتان في الأدب
الجغرافى الأولى « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار » ويصف فيها
على لسان شيخ رحالة بعض مشاهداته في الأندلس . والثانية رسالة
عنوانها « مفاخرة بين مالقه وسلا » وهى عبارة عن مقامة مسجعة يفان
فيها ابن الخطيب بين الثغرين الأندلسى والمغربى .

وترك ابن الخطيب تراثا فكريا كبيرا في مختلف فروع العلم ، وأن
كان الكثير من كتبه قد أحرق في غرناطة ، حينما وجهت اليه تهمة الإلحاد
والزندقة ، والواقع أنه وضع الكثير من كتبه أثناء منفاه في المغرب حيث
كان لديه متسع من الوقت .

ومن أهم كتبه التاريخية « الإحاطة في أخبار غرناطة » وكتاب « التاج المحلى في مساجلة لندح المولى » وهو يحتوى على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ انشائها على أيدي بنى نصر وتراجم أعيانها في القرن الثامن الهجرى ، ويترجم ابن الخطيب لنفسه ولوالده ، وله كتاب « النكتية للكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائنة الفامنة » وكتاب « اللوحة البحرية في الدولة النصرية » وهو مختصر تاريخ بنى نصر ملوك غرناطة حتى سنة ٧٦٥ هـ ، وكتاب « رقم الحلال في نظم الدول » وهو تاريخ منظوم للدول الإسلامية وكتاب « تنفاضة الجواب في علاقة الاغتراب » وقد أشرنا اليه فيما سبق . وكتاب أعمال الأعلام وهذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل موته ، وكتاب « طرفة العصر في تاريخ بنى نصر » وهو تاريخ آخر للدولة النصرية . هذه أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية .

ومن أهم الكتب الأدبية لابن الخطيب « ربحانة الكتاب ونجمة المنتخب » وكتاب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » وكتاب « معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار » وكتاب « مفاصلة بين مالمقه وسلا » وكتاب « خطرة الصيف في رحلة الشتاء والصيف » يصف فيه رحلة قام بها السلطان يوسف أبو الحجاج في الأندلس وزار فيها عددا من مدن الأندلس . وله الكثير من الرسائل الأدبية تتجلى فيها أفكاره الفلسفية وآراؤه في التصوف وفي السياسة ومناقشات بين ابن الخطيب وأهل الطريقة وفي الصب على الجهاد ، وله رسائل في الموسيقى والقضاء والحرب وأهل المحن والحرف وطوائف الشعب . ورسائل في الرد على بعض خصومه .

ولابن الخطيب دواوين في الشعر مثل ديوان « الصيب والجهم والماضى والكهام » و « الحل المرقومة في اللمع المنظومة » وهي أرجوزة من ألف بيت في أصول الفقه ، و « السحر والشعر » وهو مجموعة مختارة من شعره . و « جيش التواشيح » وجمع فيه أعظم وأجمل تواشيح عصره . وله مؤلفات تضمنت أشعار كبار الشعراء ، وكذلك صنف في العروض .

لابن الخطيب مؤلفات في الطب ، منها كتاب « عمل من طب ابن حب » ويتناول هذا الكتاب مختلف الأمراض ، وأسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، ونظام الغذاء الذي يناسبه ويصف مختلف أعضاء الجسم ، وطرق العناية بها .

ولابن الخطيب أرجوزة في الطب ، تقع في ١٦٠٠ بيت ، وذكر للأمراض المختلفة وطرق علاجها وأسبابها ، وله كتاب « وجز في الأغذية » ويقع في نحو ١٢٠٠ بيت ، ويذكر في الكتاب الأغذية مرتبة حسب حروف المعجم وطبائعها ومنافعها ومضارها وإصلاح خللها ، وله كتاب « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » كتاب في علاج السموم ، بالإضافة إلى رسائل عديدة في الطب .

من هنا نرى أن ابن الخطيب كان دائرة معارف ، وعالمًا ومفكرًا موسوعيًا ، صنف في مختلف أنواع المعرفة ، كتب في الأدب والشعر والفقه والتاريخ والتراجم والفلسفة والطب ، وترجم لحياته في خاتمة كتاب الاحاطة ، وهذه المؤلفات العديدة وهذا الانتاج العلمي المثير يتجلى فيه عمق التفكير ، وقوة البيان وسعة الاطلاع ، وكتب التاريخ لأنه عاصر الأحداث أو كان قريبًا منها . ويعتبر ابن الخطيب خلاصة ما وصل اليه الفكر الأندلسي من قوة وازدهار ، وفي نفس الوقت تضاعف الفكر الإنساني في الأندلس بعد ابن الخطيب حتى انكمش نهائيًا .



يقول صاحب كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر : فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة سمعوا ما فيها واطمأنوا اليها واتقادوا لطلعتها كتبوا بيعتهم وأرسلوها إلى فرديناند صاحب قشتالة وسمحوا له في الدخول إلى مدينة الحمراء وإلى غرناطة فعند ذلك أمر أمير غرناطة محمد بن علي بإخلاء مدينة الحمراء فأخيط دورها وقصورها ومنازلها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها فلما كان لليوم الثاني لربيع الأول عام سبعة وتسعين وثمانمائة أقبل الملك فرديناند بجيوشه حتى

قرب من البلد ويمت جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وأقام ببقية
الجيوش خارج البلد لأنه كان يخاف من الغدر وكان طلب من أهل البلد
حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهونا من أهل البلد ليضمن بذلك
فأعطوا خمسمائة رجل منهم وأقدمهم بمحلته فحينئذ قدسهم كما ذكرنا
فلما أطمأن من أهل البلد ولم ير منهم غدرا سرح جنوده لدخول البلد
والحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقي هو خارج البلد وأحسن الحمراء
بكثير من الدقيق والطعام والمعدة وترك فيها قائدا من قواده وأنصرف
راجعا إلى محلته وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والفارغات وأنواع الطعام
والمعدة وما يحتاج إليه وقدم في البلد فوادا وحكما وبوابين وما يحتاج إليه
إليه من الأمر وصار المسلمون يختفون إلى المحلة للبيع والشراء والنصاري
كذلك ولما سمع أهل البصرة أن أهل عرابطة حطت تحت ذمة النصاري
أرسلوا ببيعتهم إلى ملك النصاري ودخلوا في دمه ولم يبق للمسلمين
موضع بالاندلس « غانا لله وأنا إليه راجعون » *

ثم أن الملك فرديناك سرح الناس الذين كانوا عنده مرتعنين ومؤمنين
في أموالهم وأنفسهم مكرمين وأقبل في جيوشه حين أطمأن فدخل مدينة
الحمراء في بعض حواصيه وبقي الجند خارج للبلد وبقي يقتزوه في الحمراء
في القصور والمنازل المسيدة إلى آخر النهار ثم خرج بجنوده وصار إلى
محلته وأخذ في بناء الحمراء وسبيدها وأطمأن في البلاد وصرح
لهم الجواز وأتاهم بالمراكب إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز
يبيع ماله ودوره وشرع في تحصينها وإصلاح أسانها وفتح طرقها
وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل فلم يزل كذلك
إلى أن أطمأنت نفسه من غدر المسلمين فحينئذ دخل البلد ودار فيه
نفر من قومه وضمه فلما أطمأن في البلاد سرح لهم بالجواز وأتاهم
بالمراكب إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره
فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة أو واسعة المحبرة بالثمن القليل
وكذلك يبيع جنته وأرض حرته وكرمه وفدائه بأقل من ثمن الخلة التي
كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم

من اشتراه منه النصرارى وكذلك جميع الخرائج والأمتعة . وأمرهم بالمسير
الى الساحل بما معهم ففهمهم النصرارى فى البحر مضربين مكرمين
مؤمنين .

وكان الملك فرديناند قد أظلم "مسلمين فى هذه المدة العناية والاحترام
حتى كان النصرارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ماكما اعز
وأكرم منا ، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيه منه وثيدا نيعرهم
بذلك وليمنعهم عن الجواز ، فوقع الطمع الكثير من الناس وطبوا ان ذلك
يديم لهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعة وعزموا على الجلوس مع
النصارى .

ثم ان الملك فرديناند أمر الأمير محمد بن على بالامراع من سرنطه
الى قرية اندرشن قرى البشارة فارتبط الأمير محمد بعميله وحمله
وأمواله وأتباعه فنزل قرية اندرشن وأقام بها ينتظر مايزمن به ، ثم ان
الطاغية ظهر له أن ينصرف الأمير محمد الى المدوة فأمره بالجوار ويب
للمراكب تأتي لمرسى عذرة واجتمع معه حاق كبير من أراد الجوار فركب
الأمير محمد ومن معه فى تلك المراكب فى عزة واحترام وكرامة مع النصارى
وساروا فى البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب بم أرضى
مدينة فاس حرسها الله وكان من عذر الله تعالى لا جاز الأمير محمد بن على
وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجسوع وطماعون
واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من اساس دن شدة الأمر ورجع بعض
ناس من الذين جازوا الى الأندلس فاقبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن
الجواز عند ذلك وعزموا على الإقامة والدجن ولم يجوز النصرارى أحدا
بعد ذلك الا بالكراء والمكرم وعشر المال .

فلما رأى الملك فرديناند أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على
الاستيطان والمقام فى الوطن أخذ فى نقض الشروط التى شرطوا عليه أول
مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا الى أن نقض جميعها وزالت حرمة

المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصرارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المخارم وقطع لهم الأذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الأرياض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم الى التتصر وأكرهم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، وجعلت النوافيس في صوامعها بعد الأذان في مساجدها الصور والصليبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكلم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكلم فيها من الضعفاء والمعتوزين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بأخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سلا غزيرا ، وينظرون أولادهم ويناتهم يعبدون الصليبان ، ويسجدون للأوثان ، يأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقصدون على منعهم ، ولا على نهيم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، وعذب بأشد العذاب ، فيلها من فجأة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها ، وظلمة ما أكبرها ، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجا ومفرجا والله على كل شيء قدير .

وقد كان بعض أهل الاندلس امتنعوا من التتصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كاهل قرية وتجن والبشرة وأندرش ويلفيق فهجم عليهم الملك فرديناند بجموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدهم ، الا أن ناسا في غربية الاندلس امتنعوا من التتصر وانحازوا الى جبل منيع فاحتسوا فيه بملئهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بنيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه وردده على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقا كثيرا من رجاله وفرسان وأجناد .

فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الامان ويجوزهم

لعدوة المغرب مؤمنين فأنعموا له ذلك إلا أنه لا يسرح لهم شئنا من أموالهم
غير الثياب التي كنتم عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا عليه، ولم
يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع القرى
والمبلدان ، وانطلقى من الانحطاس الاسلام والايمن ، فطلى هذا خلييك
البكون وينتصب المنتصبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك فى
الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، لاراد لأمره ، ولا حول
ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم تسليما الى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين •

نهلية الاندلس

بعد أن سلم أبو عبد الله مدينته غرناطة لفردناند ، ودعها وترك هذه المدينة بأبراجها الحمراء وبساتينها الخضراء وزرعها النضير ، وكل ما بها من جمال وعظمة ، بدأ عصر جديد من الحزن والاستبداد والبؤس للمسلمين في الأندلس وانتفح منذ اللحظة الأولى أن الأسبلن لن يلتزما بما عاهدوا المسلمين عليه . من اطلاق حربة انقياد لهم ، ومعاملتهم بالتسامح والعدل ، وقدم إلى غرناطة في سنة ١٤٩٩ رسولا من قبل الملكة ، وأرغم في يوم واحد ثلاثة آلاف من العرب على التتصر ، وفي زعمه انقاذ هؤلاء الموحدين وكانت الملكة ايزابيلا بمعصية ، واعتقدت أن التسامح مع المسلمين ، يبعدها عن الله ، لذلك أمرت باضطهاد العرب . مار المسلمون ضد هذا التعصب ، وهاجموا المسلمين الذين ارتدوا خوفا وضعفا وتقربا إلى السلطات الحاكمة . ادرك احدوت الملكة دوسوما ، بأن يخير المسلمون بين التتصر أو مقاومة السلاط ، لأنه في زعمها لا مكان لثماحدين في ديارها ، وجاء في هذا المرسوم : أن أسلافهم كانوا مسيحيين ، وأن الكنيسة تعدهم وهم من سلاطين مسيحيين منذ الولادة ، فيجب عليهم أن يظهر دينهم الموروث ، وعلى أن ذلك أمرت الملكة باغلاق المساجد ، واحراق المخطوطات والكتب النفيسة ، التي يتجلى فيها مدى ما بلغه الفكر العربي من رقى وتقدم ، واضطهد حينئذ غرناطة المسلمين . وسامهم سوء الذئاب ، لأرغامهم على التخلي عن دينهم ، واستدباب لؤذا الافطهاد المستضعفون ، وارتدوا عن دينهم ، وحوالوا إلى البصرانية ، حتى واصلوا حياتهم المسيحية في ديارهم ، وخلفاء السلاط في بداع الأرض في مجاهل لا يدركون مصيرهم فيها . وبقيت طائفتهم جماعة من الشجعان ، وأعلنوا الدعة لمقاومة بطش الملكين الظالمين ، وهاجموا الافطهاد في نسجاعة واقدام ، ورفضوا الظلم والظيم ، وأعدوا الدعة للتضحية بالثألى والنفيس في سبيل الدين الحنيف ، ولكن السلطات الحاكمة أمعنت في اضطهاد المسلمين ، حتى هدمت مسجدا

على من فيه من الرجال والنساء والأطفال ، ممن لا مأوى لهم ، واضطر من أراد الفرار بدينه الى هجرة اوطن والدار ، واستقر بهم المقام في بلاد المغرب ، واشتغلوا بالزراعة والصناعة واضطر بعض المسلمين الى التظاهر بالنصرانية ، فكانوا يؤدون شعائرتهم الدينية سرا ، واذا عقد زواج أحدهم ، طبقا للطقوس المسيحية ، عاد سرا الى بيته ، وجمع أقاربه من المسلمين ، وعقد الزواج طبقا للشريعة الاسلاميه ، وكرد فبا لما عاناه المسلمون من البطش والاضطهاد ، ساعدوا قراصنة البحر على الهجوم على شواطئ اسبانيا ، واختطف أطفال النصارى •

لكن السلطات الحاكمة حرصت على ازالة كل أثر للإسلام ، فأرغموا المسلمين على ارتداء ملابس النصارى وقيعاتهم وسراويلهم ، واقتلوا عن لغتهم وأسمائهم وتقاليدهم •

ولم يقبل المسلمون في غرناطة التخلي عن قوميتهم وتقاليدهم ولغتهم ودينهم ، لذلك ثارت الحمية في نفوسهم ، والتفوا حول أحد زعمائهم ، ويسمى محمد بن أميه من نسل خلفاء قرطبة ، وثاروا في منطقة البشيرات الحصينة سنة ١٥٦٨ م وكانت هذه الثورة عيفة تجت في الكراهية المتبادلة بين الفريقين ، وكان المسلمون يهاجمون النصارى في باس واستماتة وكانت هذه الثورة آخر محاولة لهم للتعبير عن الظلم الذي لحق بهم ، لذلك قتلوا النصارى والقساوسة ، ولطفوا الكنائس بالأقذار • ولكن السلطات الحاكمة في غرناطة قمعت هذه الثورة بعنف وضراوة ، وذبخوا من المسلمين الكثير ، وحولوا مراكز الثوار الى بحار من الدماء ، ولانتهت الثورة حوالي سنة ١٥٧٠ م بعد أن أحرقوا ألفي العربي ومنعوا من التجأ الى الكهوف من منادرتها ، فدفنوا فيها أحياء ومن نجا من هذه البورد استرق أو تقي • وقد قتل في الثورة أكثر من عشرين ألف مسام • وقد نفى من اسبانيا مايلادر بن ثلاثة ملايين مسلم ، لجأ بعضهم الى المغرب ، وعاشوا في شظف من العيش • وبعضهم مات في الطريق ضعفا وكهدا ، ولجأ بعضهم الى فرنسا •

وضياع الأندلس من المسلمين وأحرب يوقع المؤرخ في حيرة شديدة — هل حقيقة العرب مسؤولون مسؤولية كاملة عن فقدانهم للأندلس ، كما هو الحال في فلسطين ؟ الصراع بين الإسلام والنصرانية صراع طويل مرير ، وأقصم بين المسلمين في الشرق والنصارى في الغرب . لقد أحرز المسلمون الانتصارات الرائعة على النصارى ، وانتزعوا منهم الامبراطورية البيزنطية التي كانت تسيطر على مصر والشام والمغرب وآسيا الصغرى . كما أن المسلمين والحرب لم يمتكوا المصليين من الاستمرار في أرض العربيه والإسلام ، بل عادوا الى بلادهم بعد قرنين من الزمان ولكن العرب ظلوا في الأندلس أكثر من سبعة قرون وأدت الحضارة الإسلامية دورها الكبير في هذه الأرض الأوربية التي لا تزال آثارها باقية الى يومنا هذا وفي نفس الوقت فشل الاستعمار الأوربي في الاستمرار في أرضا العربية الإسلامية . معنى ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب . أى أن الشرقيين لا يمكنهم البقاء في أرض غربية باستمرار . وفي نفس الوقت لا يستطيع الغربيون البقاء في العالم العربي والإسلامي .

ولكن المحزن أن تضع أرضا من ديار الإسلام مثل الأندلس . ولعب العرب دورا كبيرا ورئيسيا في ضياع هذا الملك العتيق . وكان المسلمون في المغرب فأضعف أمام النصارى في الوقت الذي كان فيه الأتراك العثمانيون يجهتسون أوربا حتى وصلوا الى أبواب فيينا ، وكانوا في أوج عظمتهم ، وفي أبهى انتصاراتهم . ولكن على الأرجح بعد المساهمة ، وانقطاع الأخبار ، وعدم وضوحها جعل من الصعب بل ومن المستحيل على العثمانيين انقاذ اخوانهم في الدين في الأندلس .

وهكذا فقد العرب إسبانيا — هذه مأساة المسلمين والحرب رقم ١ — يليها فلسطين — المأساة رقم ٢ ، يليها لبنان التي تتعزق أمام أعيننا الآن — يليها أفغانستان جذبوا العدو الى بلادهم ليمزق شملهم ، ويفرق وحدتهم والحرب بين العراق وإيران — حضارة تتعزق أمامنا ، والعدو يعمل على توسيع نطاقها حتى يرى بنفسه المسلمين في ضعف وهوان ، وحتى يروج لاسلحتهم ، ويفرض سيطرته على دول الخليج بحجة حماية البترول . والكويت تتعزق وتتهار بأيدي عربية إسلامية .





وهل حقيقة أن العرب والمسلمين لا يميزون بين العدو والصديق ؟؟
يقدرون الأخطار المحيطة بهم من كل مكان • اننا في شدة الحاجة الى
ذه والتضامن والعمل بكتاب الله حتى نستطيع أن نواجه كل هذه
أر وحتى لا ننزف وندمر بيوتنا بأيدينا •

يقول بدر الدين الجارم :

أماك قصه عن مجد قوم تقشع عن سمائم السحاب
مناضل أن دعوا للحرث لبو وإن نودوا لكرمه أجابوا
تجوم ما بدت إلا لتخفى كما يطو على الماء الحباب
سلوا التاريخ عنها أن أردتم ففي صفحاته خط الجواب

والله أعلم •

ثبت للمراجع

١ - المراجع العربية

- ١ — ابن الأبياد (أبو عبد الله محمد ، القضاعى البلبسى) • ت ٦٥٨
— ١٢٦٠ م
(أ) كتاب التكملة لكتاب الصلة ٢ ج ، الخامس والسادس من
مجموعه المكتبة الأندلسية • نشر كودبرا مدريد ١٨٨٧ م •
(ب) المعجم • المكتبة الأندلسية مدريد ١٨٨٦ م •
- ٢ — ابن أبى زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم) •
ت ٢٢٦ هـ — ١٢٣٥ م •
الأنس المطرب مروض القرطاس فى أحبار ملوك المغرب وتاريخ
مدينة فاس ، ٢ ج • إيطاليا ١٨٤٣ •
- ٣ — ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم) ت ٣١٠ هـ
الكامل فى التاريخ ، ١٠ ح • بولاق •
- ٤ — ابن الأحمر (الأمير أبو انوليد اسماعيل بن يوسف النصرى)
ت ٨١٠ هـ ، ١٤٠٧ م •
(أ) نثر الجمان فى نسج من نظمى وإياه الزمان • مخطوط دار
الكتاب المصرية رقم ١٨٥٣ أدب •
(ب) روضة النسر فى ملوك بنى مرين نسره الأستاذان مارسية
ويولى باريس ١٩١٧ م •
- ٥ — ابن بسام (أبو الحسن على السقترى) ت ٥٤٢ هـ •
النفرة فى محاسن أهل الجزيرة • القاهرة ١٩٤٥ م •
- ٦ — ابن بسكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨ هـ ، ١١٨٣ م •
كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس • مدريد ١٨٨٣ •

- ٧ — ابن بطوطة (أبو عبادة محمد عبادة الطنجي) ت ٨٧٧هـ ، ١٣٧٧م
نحلة الأنظار في غرائب الإنكار وعجائب الأسفار ، ٢ ج ، القاهرة
١٩٣٨ م •
- ٨ — ابن حجر العسقلاني (نساب الدين أحمد بن عاى) ت ٨٥٢ هـ ،
١٤٨٨ م •
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ؛ ج • الهند ١٣٥٠ هـ •
- ٩ — ابن حوقل (أبو القاسم محمد) • عاش في القرن الرابع الهجرى
كتاب صورة الأرض ، ٢ ج ، ليكن ١٩٣٩ م •
- ١٠ — ابن الخطيب (الورير محمد لسان الدين) • ت ٧٧٦ هـ ، ١٤٨٥ م •
(١) الاحاطة في أخبار غرناطة ، ٢ ج ، القاهرة ١٣١٩ هـ •
(ب) أعمال الاعلام من بومع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام •
رباط الفتوح ١٩٣٤م ، حققه ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦م •
(ج) اللوحة البحرية في الدولة الصرية : القاهرة ١٣٤٧ هـ •
- ١١ — ابن خلدون (أبو ركبنا بن محمد) ب ٨٧٨٠ هـ ، ١٣٧٩م بنية الرواد
في ذكر الملوك من بنى عبد الواد • نشر وترجمه للفرنسية الفرديل،
الجزائر ١٩٥٣ م •
- ١٢ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ •
المبر وحيوان المبتدأ والخبر • بولاق ١٢٨٤ هـ •
- ١٣ — ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم)
ت ٦٨١ هـ •
وفيات الأعيان وأنباء الزمان •
- ١٤ — ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ت ٨٧١٨ هـ ، ١٣٠٨ م •
صلة الصلة ، نشره ليفى بروفنسال • رباط ١٩٣٨ م •
- ١٥ — ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن على التيمبرى) ت ٨٧٩٩ هـ ،
١٣٩٦ م •
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة ١٣٣٩ هـ •

- ١٦ — ابن عذارى المراكشى •
الليسان العرب • فارس ١٩٣٠ م •
- ١٧ — ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى)
ت ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م •
تاريخ علماء الأندلس ، مدريد ، ١٨٩١ م •
- ١٨ — أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمؤلف مجهول • مدريد ١٨٦٧ م •
- ١٩ — الإدريسي (محمد بن عبد العزيز الشريف الفايومي) ت ٦٤٩ هـ •
صفه المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس — أبجد ١٨٩٤ م •
- ٢٠ — التبتكى (أبو العباس أحمد بابا)
نيل الابتهاج بتطريز الديباج • كتب على هامس كتاب الديباج
المذهب لابن فرحون • القاهرة ١٣٣٩ هـ •
- ٢١ — المقرئ (سهاب الدين محمد بن التماساني) نفع الطب من عصن
الأندلس الرطيب • القاهرة ١٩٤٠ م •
- ٢٢ — الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبدالمعزم) ت ٨٦٦ هـ •
صفه جزيرة الأندلس • منتخبه من كتاب الروض المعطار • القاهرة
- ٢٣ — حسن أحمد محمود (الدكتور) قيام دولة المرابطين، صفحه مسرقة
من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ م •
- ٢٤ — زكي محمد حسن (الدكتور) ت ١٩٥٧ م •
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى • القاهرة ١٩٤٥ م •
- ٢٥ — زيادة (الدكتور محمد مصطفى) •
رحلة ابن جبير وابن بطوطة • لجنة التأليف والترجمة والنشر •
القاهرة ١٩٣٩ م •
- ٢٦ — السلاوي : (سهاب الدين محمد بن خالد الفاضلي) ت ١٣١٩ هـ ،
١٩٠١ م •
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ ج ، القاهرة ١٨٩٤ م •

— السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر محمد)

ت ٨٩١١ هـ ، ١٥٥٥ م .

(١) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين . القاهرة ١٣٥١ هـ .

(٢) حسن المحاصرة فى أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٣٧ هـ .

— الطبرى : (الإمام أبى جعفر محمد بن جرير) .

تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ١٩٣٩ م .

— العبادى (عبد الحميد) .

(١) صور من التاريخ الإسلامى ، ٢ ج (١٩٤٨ — ١٩٥٣) .

(٢) حديث الفتية المرويين من أهل لسبونه . مجله النفايه

١٩٣٧ م .

— العبادى (أحمد مختار . دكتور) .

(١) الصقالبه فى أسبابها — لحه عن أصابع ونسأتهم وعلائقهم

(٢) لسان العيين بن الخطيب ومرعاته الانتصاحيه .

(مجله لسان الدين الجزء التاسع والعاشر — سبتمبر —

مقامه العيد لأبى عبد الله الأندرى (صحيفه المعهد المصرى

١٩٥٤ م) .

(مساهدات لسان الدين بن الخطيب (مجموعه من رسائله)

الاسكندرية ١٩٥٨ م .

١ — لين بول .

العرب فى أسبانيا ، ترجمه على الجارم .

٢ — على محمد حمودة .

الاسلام فى الأندلس . القاهرة ١٩٥٣ م .

- ٣٣ — محمد عبد الله عنان • ترجمه على الموزح الألماني يوسف أسباج •
 (١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطيين والموحدين • القاهرة •
 ١٩٤٠ م •
 (٢) نهاية الأندلس ، وتاريخ العرب المسلمين • القاهرة ١٩٤٩ م •
 (ج) تاريخ العرب في أسبانيا • القاهرة •
 ٣٤ — مؤنس (حسن — دكتور) •
 (١) الثغر الأعلى الأندلس في عصر المرابطيين • مجلة كلية الآداب
 — جامعة القاهرة ج ٢ ، ١٩٤٩ م •
 (٢) السيد القبيطور وعلاقاته بالمسلمين • مجلة كلية الآداب
 القاهرة العدد الأول المجلد الثالث ١٩٥٠ م •
 ٣٥ — النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي) ت ٥٧٧٦ •
 المرتبة العليا فبين بسنحو العشاء والفتيا • القاهرة ١٩٤٨ •
 ٣٦ — النويري (سهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن
 عبد الدائم) •
 نهاية الأرب • غرناطة ١٩١٩ م •

ب - المراجع الأجنبية

- 1 Altamers :
 - a) Spain (1031-1248), London 1949.
 - b) Cambridge Medieval History, vol VI, Ch XII.
- 2 Bel, A. :

Ency. of Islam, Arts, Almoravides & Ah Ben Youssef.
- 3 Dozy, R., :
 - a) Histoire des Musmans d'Espagne, 3 vols, (ed. Levi-Provençal) Leyde, 1932
 - b) Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1946
 - c) Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne Pendant le Monyen âge, Leyde, 1881 (2 vols)
- 4 Gayangus (P.) :

The History of the Mohammadan Dynasties in Spain, (Extracted from the Nafhu-t-tib), 2 vols, London 1840.
- 5 Levi Provençal :
 - a) Un Manuel Hispanique de Hisba sur la Surveillance des corporation et la repression des fraudes en Espagne Musulmane, Paris 1931.
 - b) Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.
 - c) Seville Musulmane au debut du XIIe Siecle la Tranté d'Ibn Abdun, Paris 1970.
 - d) La Mora, Zaida femme d'Alphonse VI (en) Hesperis 1934, t. XVII.
 - e) Ency of Islam, Arts. Le Cid & Sons.

للؤلف

- ١ — كتف « تاريخ الاسلام في العصر البركى » .
- ٢ — « الحواصر الاسلاميه الكبرى » .
- ٣ — « بلاد الجزيرة في اواخر العصر العباسى » .
- ٤ — « الدين في ظل الاسلام » .
- ٥ — « الهند في العصر الاسلامى » .
- ٦ — « الاسلام وعالم الفكر » .
- ٧ — « الدول الاسلاميه المستقلة في الشرق » .
- ٨ — « الدوله العباسيه » .
- ٩ — « تاريخ المغرب والاندلس » .
- ١٠ — « الدوله الاسلاميه وحضارتها » .
- ١١ — « معالم الفكر الاسلامى » .
- ١٢ — « الحركة الفكرية في بلاد الين في عصر منى رسول » .

شارك في اعداد اطلس العالم الاسلامى يضاف الى ذلك العديد من
البحوث والدراسات في تاريخ الاسلام وحضارته .

د. عصلم الدين عبد الرؤوف النقي في سطور

- استاذ الفارح الاسلامي والحضارة الاسلاميه في كلية الآداب —
جامعة القاهرة .
- ألقى العديد من المحاضرات في الفارح الاسلامي والحضارة الاسلاميه
في جامعات مصر والسعودية واليمن والجزائر والكويت .
- عضو في العديد من الهيئات العلمية .
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية .
- له بحوث عديدة في المجال العلمية المتخصصة والتقنية .
- أشرف وبتزم على رسائل الماجستير والدكتوراه ، محاول في دراسه
امرار دور المسلمين في الحضارة الاسلاميه ، وحب المسلمين ونبههم
الى الاستفادة من ماضيهم ، والسمي الى حياة افضل ، واستعاده اجدادهم
ونبوتهم المكفة اللاتقه بهم .

محتويات الكتاب

الموضوع	المصفحة
الفصل الأول : التعريف ببلاد المغرب والأندلس	
أهميه دراسة تاريخ المغرب والأندلس	١١
نظرة عليه حول بلاد المغرب	١١
الفتح العربي للمغرب	١٦
حملة عقبة بن نافع الأولى على المغرب	١٧
الفتوح المتتالية على بلاد المغرب	١٩
بنايات الفتح العربي لبلاد المغرب	٢٧
استيلاء قتل الفتح العربي	٣٠
الأندلس	٣٣
الفتح العربي للأندلس	٣٦
بنايات الفتح العربي للأندلس	٤٤
الفصل الثاني : عصر الولاة في الأندلس	
بدء المحاولات الحديثة لمحو مرسا	٤٦
الفن والحروب الداخلية في المغرب والأندلس	٥٥
ضعف الدولة الأموية ويدهورها	٥٩
الفصل الثالث : الأمراء الأموية في الأندلس	
عبد الرحمن الداخل	٦٠
السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموي	٦١
ثورة المصطفى	٦٤
ثورة عبد الغافر السحائي	٦٦
سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجية	٦٧
موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل	٦٩
حضره الأندلس في عصر عبد الرحمن الداخل	٧٣
هشام بن عبد الرحمن	٧٦
الموقف من نصارى الشمال	٧٧
مذهب مالك في الأندلس	٧٨
الأمير الحكم الريفي	٨١
الفن والتورات الداخلية	٨١

الصفحة

الموضوع

٨٢	• • • • •	ثورات المولدين
٨٦	• • • • •	للعلاقات الخارجية
٨٩	• • • • •	الأمير عبد الرحمن الأوسط
٩٦	• • • • •	للثورات الداخلية
٩٧	• • • • •	عزارة التوريس
١٠٠	• • • • •	فتنة المسمعين المطربين في مرطبه
١٠٢	• • • • •	للملانات الدولية في عمر عبد الرحمن الأوسط
١٠٣	• • • • •	أعماله الإدارية والعربية
١٠٥	• • • • •	عصر دويلات الطوائف الأولى
١١٠	• • • • •	المملكة القصرية في الشمال

الفصل الرابع : المغرب الإسلامي في العرس الثماني والثالث للهجرة

١١٨	• • • • •	المغرب من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغالمة
١٢١	• • • • •	دولة الأغالمة في المغرب الأدنى
١٣٦	• • • • •	دولة الإدريسي في ماس
١٤٠	• • • • •	تأسيس مدينة ماس
١٤٣	• • • • •	حركات الحوارج في المغرب
١٤٨	• • • • •	في حكم الدولة الرشيدي
١٦٠	• • • • •	دولة بني مسندار
١٦٤	• • • • •	الدولة الإسماعيلية الأولى في اليمن
١٨٥	• • • • •	الدولة الزييرية
١٩٠	• • • • •	سيرة بني هلال

الفصل الخامس : الخلافة الأموية بالاندلس

١٩٢	• • • • •	عبد الرحمن الناصر
١٩٣	• • • • •	سياسة عبد الرحمن الناصر الداخلية
١٩٤	• • • • •	تحويل الإمارة إلى حلامة
٢٠٢	• • • • •	العلاقات الدبلوماسية بين الناصر وملك أوربا
٢٠٤	• • • • •	المقاتلة في عهد الناصر
٢٠٥	• • • • •	المنشآت المعمارية في عهد الناصر
٢٠٨	• • • • •	الحكم المستنصر
٢١٠	• • • • •	السياسة الخارجية
٢١١	• • • • •	الخطر التورماني
٢١٢	• • • • •	موقف المستنصر نصارى الشمال

الموضوع	الصفحة
هــنـام النـملى	٢١٣
محمـد بن عبد الله بن أبى عليـر	٢١٤
خلفاء المنصور ..	٢٢٣
نـهـايـة الدولـة الأمويـة	٢٢٦
اس حرم	٢٢٧
المـلـك الصـرـايـه خـلال العـرن العـلـمـيـر المـيـلـادى	٢٣٨
اللـمـه العـرـيـسـة وآدبـيـا فـى الأندلس	٢٤٢
الفصل السادس : المرابطون والموحدون	٢٤٩
المرابطون ..	٢٥١
الموحدون ..	٢٦٤
ازدهار الفكر العلمى فى عصر الموحدين	٢٧٦
اس طـفـيـل	٢٨٠
اس رثـد	٢٨٥
ابن عربى	٢٩٧
الفصل السابع : ملكه غرناطة وبهايه الأندلس	٢٩٩
ملكه غرناطة - بطورها وسقوطها	٣٠٤
لسـلـال الحـدـن اس الحـطـيـب	٣٢٢
المـصـلـحـ والمـرـاحـع	٣٣١
مـهـرس الكـلاب	

رسم الانداع ٨٦١٠ / ١٩٩٠

المطبعة الجارية الحديثة
٢٢ شارع اندرس راغب - الطاهر
تلخون ٩٠٣٣٦٤ القاهرة

UNIVERSITY OF MICHIGAN LIBRARY



Ann Arbor, Michigan



0307889

